إدجار والاس

دليل الشمعة الملتوية

رواية

مكتبة علي بن صالح الرقمية

إدجار والاس

دليل الشمعة الملتوية

روايـــة بوليسية

ترجمة: شيماء طه الريدي

1916

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الفصل الأول

توقَّف قطار الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة المتجه من فيكتوريا إلى لويس في محطة ثري بريدجيز إثر خروجه عن مساره، وعلى الرغم من أن جون لكسمان كان محظوظًا بما يكفي بحيث لحِق بقطارٍ فرعي جاء متأخرًا عن موعده متجه إلى بيستون تريسي، كانت العربة الصغيرة التي كانت وسيلة النقل الوحيدة بين القرية والعالم الخارجي؛ قد غادرت.

قال ناظر المحطة: «إذا كان بإمكانك الانتظارُ نصف ساعة، يا سيد لكسمان، فسوف أتصل بالقرية وأستدعي بريجز للحضور إليك.»

أطل جون لكسمان إلى الخارج وشاهد الأجواء الممطرة، وهز كتفَيْه.

قال باقتضاب: «سوف أقطع الطريق سيرًا»، وخطا وسط الأمطار في ثباتٍ وعزم، تاركًا حقيبته في رعاية ناظر المحطة وجعل يزرِّر معطفه حتى ذقنه، ليقطع الميلين اللذين يفصلان محطةَ السكة الحديدية الصغيرة عن قرية ليتل بيستون.

كان المطر يتساقط بلا توقُّف، ومن المحتمل أن يستمر على مدار الليل. كان الطريق محاطًا على كلا جانبَيْه بأسيجةٍ شجرية عالية تألَّفت من أشجارٍ عديدة متتالية وارفة الأوراق، وكان الطريق نفسه في بعض المواضع موحلًا بشدة. توقَّف أسفل شجرةٍ كبيرةٍ محتميًا بها، ليملأ غليونه بالتبغ ويشعله ثم تابع مسيره خافضًا فُوَّهة الغليون إلى أسفل. كان يفضِّل السَّير، بل كان مستحبًّا لديه، لولا الأمطار الغزيرة التي نفذت إلى كل شق، وأغرقت معطفه الواقي من المطر بالكامل.

كان الطريق من بيستون تريسي إلى ليتل بيستون مرتبطًا في ذهنه ببعضٍ من أجمل المواقف في رواياته. فعلى هذا الطريق وضع تصوُّره لأحداث رواية «لغز تيلبري». وفي الطريق بين المحطة والمنزل، نسج حبكةَ قصةِ «محبرة جريجوري»؛ القصة البوليسية الأكثر رواجًا لهذا العام. فقد كان جون لكسمان متخصصًا في كتابة الحبكات الدرامية البارعة.

إذا كان الكبار في عالم الأدب يعتبرونه كاتب الأعمال «الصادمة»، فقد كان له جمهور عريض ومتزايد ومنبهر بالقصص الرصينة والمثيرة التي يكتبها، وكان يحبس أنفاسه وهو يتابع خيوط اللغز المتشابكة حتى يصل إلى حل الحبكة التي وضعها.

لكن ذهنه المضطرب لم يكن منشغلًا بالتفكير في الكتب، أو الحبكات، أو القصص وهو يهرول بخطوات واسعة عبر الطريق المهجور إلى ليتل بيستون. فقد حظي بمقابلتَيْن في لندن، كانت إحداهما كفيلةً بأن تملأه بالسعادة في الظروف العادية؛ فقد التقى تي إكس، و«تي إكس» هو تي إكس ميرديث الذي سيصبح يومًا ما رئيس إدارة المباحث الجنائية، وكان في ذلك الوقت مفوَّضَ شرطةٍ مساعدًا وكان منخرطًا في الأعمال الشائكة لتلك الإدارة.

اقترح تي إكس، بأسلوبه العصبي العنيف، أعظم فكرة لحبكةِ قصةٍ يمكن لأي كاتب أن يتمناها. لكن لم يكن اللقاء مع تي إكس هو ما يشغل ذهن جون لكسمان وهو يرتقي قمة التل، على المنحدر الذي كان يشكل المنزل الصغير الذي عُرِف بذلك الاسم المهيب نوعًا ما؛ بيستون بريوري.

كان ما يشغل ذهنه هو اللقاء الذي جمعه بالرجل اليوناني في اليوم السابق، والذي عبس وجهُه حينما تذكَّره. فتح بوابة المرور الصغيرة وسار عَبْر المزروعات وصولًا إلى المنزل، باذلًا قصارى جهده لينفض عن ذهنه ذكرى المناقشة الاستثنائية والعقيمة التي خاضها مع المرابي.

كان بيستون بريوري يتجاوز مساحة كوخ بقليل، على الرغم من أن أحد جدرانه كان أثرًا لا شك فيه لتلك المنشأة التي شيَّدها رجلُ دين يُدعى هوارد في القرن الثالث عشر. لقد كان مبنًى صغيرًا ومتواضعًا، شُيِّد على الطراز الإليزابيثي، ذا أسقف جملونية غريبة الشكل ومداخن عالية، أعطته نوافذه الشبكية وحدائقه المنخفضة عن الأرض من حوله، وبستان الورد الخاص به ومَرْجه الصغير؛ طابَعًا إقطاعيًّا معينًا كان مصدر فخر كبير لصاحبه.

مرَّ أسفل الشرفة المسقفة، ووقف لحظة في المدخل الواسع وأخذ يخلع عنه معطفه المبلل.

كان المدخل غارقًا في الظلام. كانت جريس على الأرجح تبدِّل ملابسها استعدادًا لتناول العشاء، وقرَّر أنه لن يزعجها وهو في تلك الحالة المزاجية التي كان عليها. مر عبر الممر الطويل المؤدي إلى غرفة المكتب الكبيرة الواقعة في مؤخرة المنزل. كانت ثمة نيرانٌ متوهجة في المدفأة ذات الطراز القديم، وكانت أجواء الراحة والدفء في الغرفة تبعث إحساسًا بالارتياح والسكينة. أبدل حذاءه، وأشعل مصباح الطاولة.

كان واضحًا أن الغرفة كانت مختلًى لرجل. كانت الكراسي المغطاة بالجلد، وخزانة الكتب الكبيرة والممتلئة عن آخرها التي شغلت أحد جدران الغرفة، وطاولة الكتابة الضخمة المصنوعة من خشب البَلُّوط المتين المغطاة بالكتب والمخطوطات غير المكتملة، كل ذلك كان يشي بما لا يدع مجالًا للشك بمهنة صاحبها.

بعد أن أبدل حذاءه أعاد مَلء غليونه، واتجه صوب المدفأة ووقف يحدِّق في قلبها المتقد.

كان رجلًا ذا طول يفوق المتوسط، نحيل البنية، وله كتفان عريضتان توحيان بأنه رياضي. وكان بالفعل يمارس التجديف في قاربه في فريقٍ من أربعة مُجدِّفين، وخاض منافساتٍ شرسة في الأدوار قبل النهائية لبطولة إنجلترا للملاكمة للهواة. كان وجهه ذا ملامح قوية، ونحيلًا، ولكن متناسقًا. كانت عيناه رماديتَيْن وعميقتَيْن،

بينما كان حاجباه مستقيمَيْن ومنفرَيْن قليلًا. كان فمه الذي لا يوجد حوله أي شَعر كبيرًا وعريضًا، وفي وجنتَيْه سمرة عافية تشي بأنه قد عاش حياته في الهواء الطلق.

لم يكن في مظهره ملامح الزاهد أو رجل العلم. فقد كان في الواقع مجرَّد بريطاني عادي تبدو عليه أمارات الصحة والعافية، ويشبه إلى حد كبير أي رجل آخر من طبقته الاجتماعية ممن قد نقابلهم في صالة الطعام في معسكرات الجيش البريطاني، أو في استراحات سفن الأسطول البحري، أو في المواقع البعيدة من الإمبراطورية، حيث يُشَاهد العاملون وهم يعملون كتروس صغيرة في ماكينة ضخمة.

كان ثمة نقرٌ خفيفٌ على الباب، وقبل أن يأذن للطارق بالدخول، فُتِح الباب ودلفت منه جريس لكسمان.

لو وصفتها بأنها امرأة جريئة وجميلة، لربما استشفَفْت من هذا الوصف الوجيز وصفًا لأسلوبها وجاذبيتها. اجتاز الغرفة حتى وصل لمنتصفها لمقابلتها وقبَّلها في حنوٍّ ورقَّة.

قالت وهي تتأبَّط ذراعه: «لم أعلم بعودتك حتى ...»

ابتسم قائلًا: «حتى رأيتِ الفوضى العارمة التي أحدثها معطفي.» وتابع: «أعرف أساليبك يا واطسون!»

ضحكت، ولكنها عادت إلى جديتها مرة أخرى.

«أنا في غاية السعادة بعودتك. فلدينا زائر.»

رفع حاجبَيْه في تساؤل.

«زائر؟ مَن ذلك الذي جاء في يومٍ كهذا؟»

نظرَت إليه مستغربةً بعض الشيء.

قالت: «إنه السيد كارا.»

«كارا؟ متى حضر؟»

«جاء في الرابعة.»

لم يكن في نبرتها أي حماس.

قال زوجها ساخرًا: «لا أفهم لمَ لا تحبين كارا العزيز.»

أجابَت بشيءٍ من الاقتضاب بالنسبة إلى طبيعتها: «توجد أسبابٌ كثيرة جدًّا.»

قال جون لكسمان بعد لحظةٍ من التفكير: «على أي حال، لقد جاء في وقته. أين هو؟»

«إنه في غرفة الاستقبال.»

كانت غرفة استقبال المنزل عبارة عن غرفة كبيرة متشعبة الاتجاهات ذات سقف منخفض، «مليئة باللوحات القديمة وزهور الأُقْحُوان» حسب وصف لكسمان. كراسي مريحة ذاتُ ذراعين، وبيانو كبير، ومدفأة مفتوحة تعود إلى القرون الوسطى، تواجهها أرضية ذات قِرْمِيد بلونٍ أخضر باهت وسجادة مهترئة ولكنها مبهجة، وشمعدانان فضيان كبيران، كانت تلك أبرز الملامح التي جذبت الزائر الجديد في المكان.

كان في هذه الغرفة تجانُس، ونظام هادئ، وطابَع يبعث الهدوء في النفس جعل منها مستقرًّا وبرَّ أمانٍ لأديب مضطرب الأعصاب. كان يوجد إناءان برونزيان كبيران ممتلئان ببراعم البنفسج، وثالث متوهج بزهور الربيع كشمس باهتة، بينما كانت براعم أزهار الغابات تعبق الغرفة برائحة عطرة خفيفة.

نهض رجلٌ عند دخول جون لكسمان وعبر الغرفة بخطًى رشيقة. كان رجلًا يمتلك وسامة استثنائية سواء في الملامح أو القوام. كان يفوق الكاتب طولًا، ما جعله يسير في اتجاهه بحركةٍ رشيقة تخفي طوله.

قال: «لم ألحق بك في المدينة؛ لذا فكّرتُ في التوجُّه إلى القرية على أمل مقابلتك.»

كان يتحدَّث بتلك النبرة المنغمة ببراعةٍ تميز شخصًا له دراية طويلة بمدارس إنجلترا وجامعاتها العامة. فلم يكن في حديثه أي أثر للكنةٍ أجنبيةٍ غريبة، مع أن رمينجتون كارا كان يونانيًّا ووُلد في المنطقة الأكثر اضطرابًا من ألبانيا وتلقَّى جزءًا من تعليمه فيها.

تصافح الرجلان بحرارة.

«هل ستبقى حتى العشاء؟»

ألقى كارا نظرةً سريعة حوله مبتسمًا لجريس لكسمان. كانت جالسةً بقامة منتصبة في ضيق، عاقدة يديها بلا إحكام على ساقيها، وقد تجرَّد وجهها من أي حماس.

قال اليوناني: «إذا لم تمانع السيدة لكسمان.»

قالت بأسلوبٍ شبهِ آليٍّ: «سأكون سعيدةً إذا فعلت، إنها ليلةٌ مريعة ولن تجد أيَّ شيء يستحق الأكل في هذا الجزء من لندن، وأشكُّ كثيرًا ...» وهنا ابتسمت قليلًا وأردفت: «إن كان ما يمكنني أن أقدِّمه لك من طعامٍ سوف يكون جديرًا بهذا الوصف.»

قال بانحناءة بسيطة: «ما ستقدِّمينه لي سيكون كافيًا وزيادة»، والتفت إلى زوجها.

في غضون بضع دقائق كانا قد استغرقا في نقاشٍ حول الكتب والأماكن، وانتهزت جريس الفرصة للإفلات. ثم تحوَّلت دفة الحديث من الكتب على وجه العموم إلى كتب لكسمان على وجه الخصوص.

قال كارا: «لقد قرأتها جميعًا كما تعلم.»

لوى جون قسماته قليلًا. ثم قال متهكمًا: «يا لك من شيطان مسكين!»

قال كارا: «على العكس. لست أنا مَن يستحق الشفقة. إنَّ بداخلك مجرمًا كبيرًا يا لكسمان.»

قال جون: «أشكرك.»

ابتسم اليوناني قائلًا: «تلك ليست مجاملة.» وأضاف: «أنا فقط أشير إلى عبقريةِ قصصك. أحيانًا ما تضعني كتبُك في حيرةٍ وتزعجني. فأنا أغضب قليلًا إذا لم أستطِع تبيُّن الحل لألغازك قبل أن أنتهي من نصف الكتاب. بالطبع في أغلب الحالات أعرف الحل قبل أن أصل إلى الفصل الخامس.»

نظر إليه جون في دهشةٍ وكان منزعجًا إلى حدٍّ ما.

قال: «إنني أتباهى بنفسي إذا استحالت معرفة نهاية قصصي قبل الفصل الأخير.»

أومأ كارا.

وقال: «هكذا الأمر بالنسبة إلى القارئ العادي، ولكنك تنسى أنني طالب علم. أنا أتَّبع كلَّ خيط ولو صغيرًا تتركه مكشوفًا من الدليل.»

قال جون ضاحكًا وهو ينهض من كرسيه ليذكي نار المدفأة: «يجب أن تقابل تي إكس.»

«تي إكس؟»

«تي إكس ميرديث. إنه أذكى رجل يمكنك أن تقابله. كنا معًا في كايوس، وهو صديق مقرب جدًّا لي. إنه يعمل في إدارة المباحث الجنائية.»

أومأ كارا. ولاح في عينيه بريقُ الاهتمام وكان سيواصل المناقشة، ولكن في تلك اللحظة كان العشاء قد أصبح جاهزًا.

لم تكن وجبةَ مرحة؛ إذ لم تشارك جريس كعادتها في الحوار، وآلت مهمة سد مواضع الفراغ في الحديث لكارا وزوجها. كان يراودها شعورٌ غريبٌ بالكآبة، هاجس شر لم تستطِع تحديده. أخذت على مدار العشاء تستدعي في ذهنها أحداث اليوم مرارًا، لعلها تكتشف سبب قلقها.

حين كانت تتبع هذه الطريقة، كانت تتوصل عادة إلى الأسباب التافهة التي ولَّدت خوفها، ولكن في تلك اللحظة تملكتها الحيرة حين وجدت نفسها عاجزة عن اكتشاف أي حل. كانت الخطابات التي تلقَّتْها هذا الصباح سارة، ولم تُعانِ أي مشكلاتٍ لا في المنزل ولا مع الخدم. كانت هي نفسها على ما يُرام، وعلى الرغم من أنها كانت تعلم أن جون يواجه مشكلةً ماديةً بسيطة، منذ لم يوفَّق في مضاربته على أسهم الذهب الرومانية، وما راودها من شكوك محدودة في أنه قد اضطر لاقتراض أموال لتعويض خسائره، فإن حظوظه كانت ممتازة، وكان نجاح كتابه الأخير مبشرًا، حتى إنها كانت أقل قلقًا منه بشأن المشكلة، ربما لأنها كانت ترى بوضوحٍ أكثرَ عدمَ أهمية تلك المخاوف المالية.

قالت جريس: «أظن أنكما ستحتسيان القهوة في غرفة المكتب، وأعرف أنكما ستعذراني؛ فعليَّ أن أقابل السيدة تشاندلر بخصوص الغسيل.»

منَّت على كارا بإيماءة بسيطة وهي تغادر الغرفةَ ولمست كتف جون برفقٍ وهي مارَّةٌ بجواره.

تتبَّع كارا قوامَها الرشيق بعينَيْه حتى غابَت عن الأنظار، ثم قال جون لكسمان:

«أريد أن أجلس معك يا كارا إذا سمحت لي بخمس دقائق من وقتك.»

قال الآخر بلا تردُّد: «يمكنك أن تأخذ خمس ساعات إن شئت.»

دلفا معًا إلى غرفة المكتب، وأحضرت لهما الخادمة القهوة والشراب، ووضعتهما على منضدة صغيرة بالقرب من المدفأة وانصرفت.

ظل الحديث عامًّا لبعض الوقت. مضى كارا يتجوَّل عبر المكان، مبديًا إعجابًا صريحًا بتلك السَّكِينة التي تعم الغرفة وتحسَّر على عجزه عن أن يشتريَ بالمال ذلك الدفء الذي ينعم به جون بثمنٍ زهيد، بينما انشغل مُضيِّفه ببروفة طباعة تحتاج إلى تصحيح.

تساءل كارا: «أظن من المستحيل أن يكون لديك إضاءة كهربائية هنا.»

أجاب الآخر: «بالضبط.»

«لماذا؟»

«أفضِّل ضوء هذا المصباح.»

قال اليوناني بتثاقلٍ وقد عبس وجهه قليلًا: «لا أقصد المصباح، إنني أكره هذه الشموع.»

وأشار بيده إلى رف المدفأة حيث برزت الشموع البيضاء الطويلة الست من شمعدانَيْن جداريَّيْن.

تساءل الآخر في دهشة: «لماذا تكره الشموع بحق السماء؟»

لم يُجِب كارا على الفور، ولكنه هزَّ كتفَيْه. وبعد قليل تكلَّم.

«لو سبق لك أن قُيِّدت في كرسيٍّ وبجوار هذا الكرسي برميل صغير من مسحوقٍ أسودَ، وفي ذلك المسحوق أُقحمت شمعة صغيرة ظلت تحترق وضوءُها يخبو ويخبو في كل دقيقة ... يا إلهي!»

ذُهل جون حين رأى قطرات العَرق عالقةً على جبهة ضيفه.

قال: «يبدو هذا مثيرًا.»

مسح اليوناني العَرق من فوق جبهته بمنديل حريري وارتعشَتْ يده قليلًا.

قال: «كان شيئًا يتجاوز حد الإثارة.»

تساءل الكاتب في فضول: «ومتى حدث هذا؟»

أجاب الآخر: «في ألبانيا، كان ذلك منذ عدة سنوات، ولكن الشياطين دائمًا ما يُرسلون لي ما يذكِّرني بما حدث.»

لم يحاول أن يوضِّح مَن هم هؤلاء الشياطين، أو الظروف التي أوقعت به في هذا المأزق؛ بل غيَّر الموضوع بلا شك.

راح يتجوَّل عبر الغرفة الدافئة على مهل، وفي تلك الأثناء تتبَّع رف الكتب الذي شغل أحد الجدران وكان يتوقَّف بين الحين والآخر لاستطلاعِ كتابٍ ما. وبعد قليل سحب كتابًا ضخمًا.

قرأ العنوان: ««البرازيل البرية»، تأليف جورج جاذركول، أتعرف جاذركول؟»

كان جون يملأ غليونه من وعاءٍ أزرقَ كبير على مكتبه وأومأ برأسه.

«قابلته مرة واحدة، إنه شيطان كتوم. إنه قليل الكلام للغاية، وأقل ميلًا إلى الحديث عن نفسه من أيِّ رجلٍ أعرفه، شأنه شأن جميع الرجال الذين رأوا وفعلوا أشياء ذات قيمة.»

نظر كارا إلى الكتاب مغضِّنًا حاجبَيْه في تأمُّلٍ وراح يقلِّب أوراقه في فتور.

قال وهو يعيد الكتاب إلى موضعه: «لم أره قط من قبل، ولكنه سيخوض رحلته الجديدة نيابةً عني بنحوٍ ما.»

رفع الرجل الآخر بصره إلى رفيقه.

«نيابة عنك؟»

«نعم، تعلم أنه قد ذهب إلى باتاجونيا من أجلي. إنه يعتقد في وجود ذهب هناك، ستعرف الكثير عن ذلك من كتابه عن السلاسل الجبلية في أمريكا الجنوبية. لقد

كنت مهتمًّا بنظرياته وراسلته. وكانت نتيجة تلك المراسلة أن اضطلع بإجراء مسح جيولوجي لي. وأرسلت إليه أموالًا من أجل نفقاته، وانطلق في رحلته.»

سأل جون لكسمان في دهشة: «ألم تره مطلقًا؟»

هزَّ كارا رأسه نفيًا.

قال مضيِّفه: «ألم يكن ذلك ...؟»

«مخالفًا لطبيعتي، هذا ما كنت ستقوله. أصدقك القول، كان الأمر كذلك، ولكني حينها أدركت أنه رجل غير عادي. لقد دعوته لتناول العشاء معي قبل أن يغادر لندن، وردَّ عليَّ ببرقية من ساوثمبتون يخبرني فيها بأنه قد بدأ رحلته بالفعل.»

أومأ لكسمان.

ثم قال: «لا بد أنها حياة شيقة للغاية.» وأردف: «أظنه سيظل بالخارج فترة طويلة جدًّا؟»

قال كارا وهو يتابع استطلاعه لرف الكتب: «ثلاث سنوات.»

قال جون وهو ينفث الدخان من غليونه في تأمُّل: «أحسد أولئك الذين يطوفون العالم وهم يؤلفون الكتب.» وتابع: «إنهم يفوزون بأفضل ما فيه.»

التفت كارا. كان يقف خلف الكاتب مباشرة ولم يكن الآخر يرى وجهه. غير أن صوته كان به جدية غير معهودة وحِدَّة هادئة غير مألوفة.

تساءل بنبرته المتثاقلة البسيطة: «ماذا لديك لتشكو منه؟!» وأضاف: «لديك عملك الإبداعي، أروع فرع من فروع العمل يمكن أن يحظى به إنسان. إن ذلك الرجل البائس مقيدٌ بحقائق الواقع. أما أنت فلديك كل العوالم التي يقدِّمها لك خيالك مفتوحة على مصراعيها. يمكنك أن تخلق بشَرًا وتدمرهم، وتصنع قضايا مشوقة، وتضع عشرة أو عشرين ألف شخص في حيرة وارتباك، وفي لحظة، تفسِّر لغزك.»

ضحك جون.

وقال: «كلامك به قدْر من الصحة.»

تابع كارا بصوتٍ أكثر انخفاضًا: «أما بالنسبة لما تبقَّى من حياتك، فأظن أن لديك ما يجعل الحياة تستحق أن تُعاش ... زوجة لا مثيل لها.»

استدار لكسمان في كرسيه سريعًا، والتقى بعيني الآخر، وكان في وضعيةِ وجهه الوسيم شيء حبس أنفاسه من الدهشة.

بدأ حديثه قائلًا: «لا أرى ...»

ابتسم كارا.

قال ممازحًا: «كانت تلك صفاقة، أليس كذلك؟» وتابع: «ولكن لا بد إذن أنك لم تنسَ يا عزيزي أنني كانت لدي رغبة شديدة في الزواج من زوجتك. لا أظن ذلك سرًّا. وحين فقدتها، واتتني أفكارٌ بشأنك لا يُستحَب أن أتذكرها.»

استعاد ثباته وهدوءه وواصل تجوله العشوائي عبر الغرفة.

«لا بد أنك تذكر أنني يوناني، واليوناني المعاصر ليس فيلسوفًا. ولا بد أنك تتذكر أيضًا أنني ثري مدلَّل منذ نعومة أظافري، وكنت أحظى بكلِّ ما أريد منذ كنت رضيعًا.»

قال الآخر وهو يعود إلى مكتبه ويمسك بقلمه: «أنت شيطان محظوظ.»

لم ينبس كارا بكلمةٍ للحظة، ثم بدا كما لو كان سيقول شيئًا، ثم تراجع وتمالك نفسه وضحك.

قال: «أتساءل إن كنت كذلك بالفعل.»

وفي تلك اللحظة تحدَّث بفورة نشاط مفاجئة.

«ما المشكلة التي تواجهها مع فاسالارو؟»

نهض جون من كرسيه واتجه صوب المدفأة، ووقف يحدِّق في أعماق نيرانها مباعدًا بين ساقيه وعاقدًا يديه خلفه، وتأهب كارا للإجابة عن السؤال الذي طرحه.

قال وهو ينحني بجوار الآخر ليشعل سيجاره بلفافة ورقية: «لقد حذرتك من فاسالارو. عزيزي لكسمان.» وأردف: «إن أبناء جلدتي يكونون بغضاء عند التعامُل معهم وهم في حالات مزاجية معينة.»

قال لكسمان موجِّهًا جزءًا من الحديث لنفسه: «لقد كان في غاية الكرم واللطف في البداية.»

قال كارا بتثاقُل: «وها هو الآن قد أصبح في غاية الفظاظة.» وأضاف: «تلك طريقة يتَّبعها المرابون يا عزيزي، كانت حماقة بالغة منك أن ذهبت إليه من البداية. كان بإمكاني أن أقرضك المال.»

قال جون في هدوء: «كانت لدي أسبابٌ دفعتني لعدم الاقتراض منك، وأعتقد أنك أنت نفسك قد ذكرت السبب الأساسي، حين أخبرتني لتوك، ما كنت أعرفه بالفعل، بأنك كنت ترغب في الزواج من جريس.»

تساءل كارا وهو يتفحَّص أظافره المشذبة بعناية: «كم المبلغ؟»

أجاب جون بضحكةٍ قصيرة: «ألفان وخمسمائة جنيه، ولا أملك منها في هذه اللحظة ألفين وخمسمائة شلن.»

«هل سينتظر؟»

هز جون لكسمان كتفَيْه.

ثم قال فجأة: «اسمع يا كارا، لا تعتقد أنني أريد توبيخك، ولكن معرفتي بفاسالارو كانت من خلالك؛ ومن ثَم فأنت تعرف أيُّ نوع من الرجال هو.»

أومأ كارا.

قال جون مقطِّبًا: «حسنًا، يمكنني أن أخبرك أنه كان شخصًا بغيضًا للغاية بالفعل، ولقد التقيته بالأمس في لندن، ومن الواضح أنه سيسبِّب لي الكثير من المتاعب. لقد كنت أعوِّل على نجاح مسرحيتي التي عُرضت في المدينة في أن توفِّر لي ما يكفي لسداد أمواله، وبحمق شديد قطعت الكثير من الوعود بالسداد لم أستطِع الوفاء بها.»

قال كارا: «أتفهَّم الأمر»، ثم أضاف: «هل لدى السيدة لكسمان علمٌ بهذه المسألة؟»

قال الآخر: «لا تعلم الكثير.»

أخذ يذرع الغرفة جَيئة وذهابًا في تململ، عاقدًا يديه خلفه وذقنه مستقر على صدره.

«بالطبع لم أخبرها بما هو أسوأ، أو عن كم كان الرجل بغيضًا وهمجيًّا.»

توقَّف ثم استدار.

سأله: «أتعلم أنه قد هدَّد بقتلي؟»

ابتسم كارا.

قال الآخر في غضب: «يمكنني أن أخبرك أنه لم يكن أمرًا مضحكًا بالمرة؛ فلقد جذبت ذلك التافه المدعي من مؤخرة عنقه وركلته.»

وضع كارا يده على ذراع الآخر.

«أنا لا أضحك عليك؛ بل أضحك من فكرة إقدام فاسالارو على التهديد بقتل أي شخص. إنه أكبر جبان في العالم. ما الذي دفعه لاتخاذ هذه الخطوة العنيفة بحق السماء؟»

قال الآخر في كآبة: «قال إنه في حاجةٍ ماسة للمال، وقد يكون ذلك صحيحًا. لقد كان في قمة الغضب والقلق، وإلا فربما أبرحت ذلك الوغد الضئيل ما يستحق من الضرب.»

واصل كارا جولته، ثم أنهى مسيرته وتوقَّف أمام المدفأة وراح ينظر إلى الكاتب الشاب بابتسامةٍ أبوية.

قال: «أنت لا تفهم فاسالارو، وأكرِّر إنه أكبر جبان في العالم. ستكتشف على الأرجح أنه مدجَّج بالأسلحة وتهديدات الذبح، ولكن ما عليك سوى أن تضغط على زناد مسدس وستراه يخر منهارًا أمامك. هل لديك مسدس بالمناسبة؟»

قال الآخر بفظاظة: «أوه، هذا هراء، لا يمكنني أن أورِّط نفسي في ذلك النوع من الميلودراما.»

قال الآخر في إصرار: «ليس هراء، حين تكون في روما، أو ما شابه، وحين تضطر للتعامل مع يوناني من الطبقة الدنيا، لا بد أن تستخدم أساليبَ من شأنها أن تؤثِّر فيه على الأقل. إن ضربته، فلن يغفر لك أبدًا وربما سيغرز سكينًا في صدرك أو في صدر زوجتك. أما إذا قابلت ميلودراميته بميلودراما مماثلة، وأشهرت سلاحك في اللحظة المناسبة، فسوف تنال النتيجة التي تبغيها. هل لديك مسدس؟»

ذهب جون إلى مكتبه، وفتح أحد الأدراج وأخرج منه مسدس براونينج صغيرًا.

قال: «هذا آخر حدود تسليحي؛ لم تنطلق منه رصاصة واحدة وأُرسِل إليَّ من معجب مجهول في عيد الميلاد الفائت.»

قال الآخر وهو يتفحص السلاح: «هدية غريبة في عيد الميلاد.»

قال لكسمان مستعيدًا بعضًا من خفَّة ظله: «أظن أن المانح الواهم تخيَّل من كتبي أنني أعيش في متحفٍ حقيقي للمسدسات وعصي السيوف والعقاقير المخدرة السامة، وقد جاءت معه بطاقة.»

سأله الآخر: «هل تعرف كيف يعمل؟»

أجاب لكسمان: «لم أعبأ به كثيرًا قط؛ أعرف أنه يُعبأ بسحب الزلاقة إلى الوراء، ولكن نظرًا لأن معجبي لم يرسل ذخيرة، فلم أجرِّبه قط.»

كان ثمَّة طرْق على الباب.

قال جون موضحًا: «إنه البريد.»

كان بحوزة الخادمة خطاب واحد على الصينية، وأخذه الكاتب عابسًا.

قال عندما غادرت الفتاة الغرفة: «إنه من فاسالارو.»

أمسك اليوناني بالخطاب في يده وتفحَّصه.

كان تعليقه الوحيد وهو يعيده إلى جون: «إنه يكتب بخط رديء للغاية.»

فتح المظروف الرفيع الأصفر البرتقالي وأخرج منه ستَّ ورقات صفراء، لم يُكتب سوى على واحدة منها. كان الخطاب مختصرًا:

> لا بد أن أراك الليلة دون تأخير، قابلني عند التقاطع ما بين بيستون تريسي وطريق إيستبورن. سأكون هناك في الحادية عشرة، وإذا أردت الحفاظ على حياتك، يُستحسن أن تُحضر لي معك جزءًا كبيرًا من المبلغ.

كان التوقيع باسم «فاسالارو».

قرأ جون الخطاب بصوتٍ مرتفع. ثم قال: «لا بد أنه فقد عقلَه ليكتب خطابًا كهذا، سوف أقابل هذا الشيطان الضئيل الجسد وألقنه درسًا في الأدب لن ينساه على الإطلاق.»

ناول الخطابَ لكارا الذي راح يقرؤه في صمت.

قال وهو يعيده إليه: «من الأفضل أن تأخذ مسدسك معك.»

نظر جون لكسمان إلى ساعة يده.

«لا يزال أمامي ساعة، ولكني سأستغرق قرابة عشرين دقيقة للوصول إلى طريق إيستبورن.»

تساءل كارا بنبرة دهشة: «هل ستقابله؟»

أجاب لكسمان بنبرة تأكيد حاسمة: «بالتأكيد، لا يمكن أن أجعله يأتي إلى المنزل ويتسبَّب لي في فضيحة، وهذا بالتأكيد ما سوف يفعله هذا الوغد الوضيع الضئيل.»

سأله كارا بصوت خفيض: «هل ستدفع له؟»

لم يُجِب جون. لم يكن بالمنزل سوى ١٠ جنيهات على الأرجح وشيك يستحق الدفع غدًا سوف يجلب له ثلاثين جنيهًا أخرى. نظر إلى الخطاب مرة أخرى. كان مكتوبًا على ورقةٍ ذات ملمس غير مألوف. كان سطحها خشنًا مثل ورق النشاف تقريبًا، وفي بعض المواضع سال الحبر الذي امتصه السطح المسامي للورقة. كان واضحًا أن الأوراق الخاوية قد وضعها رجل في عجالة شديدة حتى إنه لم يلحظ كثرتها المبالغ فيها.

قال جون: «سوف أحتفظ بهذا الخطاب.»

«أعتقد أنك على حق. ربما لا يعرف فاسالارو أنه ينتهك القانون بكتابته رسائلَ تهديدٍ وينبغي أن يكون ذلك الخطاب سلاحًا قويًّا جدًّا في يدك حال ظهور أي ظروف طارئة.»

كانت توجد خزنة صغيرة في أحد أركان غرفة المكتب فتحها جون بمفتاحٍ أخرجه من جيبه. فتح أحد الأدراج الفولاذية، وأخرج منه الأوراق التي كانت بداخله ووضع مكانها الخطاب، ثم دفع الدرج إلى مكانه وأغلقه.

ظل كارا طوال الوقت يراقبه باهتمام شديد كمن وجد قدرًا من الإثارة يفوق العادي في حداثة ما فعل.

وبعد ذلك بقليل غادر المنزل.

قال: «كنت أود أن آتي معك لحضور لقائكما الشائق، ولكن للأسف لدي أعمال في مكان آخر. دعني أطالبك بأن تأخذ مسدسك ومع ظهور أول علامة لأي نوايا دموية من جانب مواطني الرائع، أشهِرْه في وجهه واضغط عليه مرة أو اثنتين، ولن تضطر للقيام بالمزيد.»

نهضت جريس من خلف البيانو حين دخل كارا غرفة الاستقبال الصغيرة وتمتم ببعض تعبيرات الأسف التقليدية لقصر مدة الزيارة. لم يكن ثمة شك في أن اعتذار كارا ذاك لم يكن به ذرة صدق بالتأكيد. فقد كان رجلًا متحررًا من الأوهام على نحوٍ فريد.

ظلا يتحدثان معًا برهةً.

قال جون: «سأرى إن كان سائقك نائمًا»، وخرج من الغرفة.

ساد صمت قصير بعد انصرافه.

قال كارا: «لا أظن أنك سعيدة برؤيتي كثيرًا.» أثارت صراحته بعض الحرج لدى الفتاة واحمر وجهها قليلًا.

قالت بهدوء واتزان: «أنا دائمًا ما أسعد برؤيتك يا سيد كارا، سواء أنت أو أي من أصدقاء زوجي.»

أمال رأسه إلى أحد الجانبين.

ثم قال: «إن صداقتي بزوجك شيء ...» ثم توقَّف كأنما تذكَّر شيئًا ما ثم أردف قائلًا: «كنت أريد أن آخذ معي كتابًا، تُرى هل سيمانع زوجك في أخذه؟»

«سوف أحضره لك.»

قال معارضًا إياها: «دعيني لا أزعجك؛ فأنا أعرف طريقي.»

ودون أن ينتظر لتأذن له ترك الفتاة بذلك الشعور البغيض بأنه يأخذ الكثير من الأمور كمسلَّمات. غادر لأقل من دقيقة ثم عاد واضعًا كتابًا تحت ذراعه.

قال: «إنني لم أستأذن لكسمان لآخذه، ولكنني مهتمٌّ بالكاتب إلى حدٍّ ما. أوه، ها هو»، والتفت إلى جون الذي دخل في تلك اللحظة. وسأله: «هل لي أن آخذ هذا الكتاب عن المكسيك؟» وأضاف: «سوف أعيده لك في الصباح.»

وقفا عند الباب يراقبان الضوء الخلفي للسيارة وهو يختفي عبر الممشى، وعادا إلى غرفة الاستقبال في صمت.

قالت وهي تضع يدها على كتفه: «تبدو قلقًا يا عزيزي.»

ابتسم ابتسامةً باهتة.

سألته في قلق: «هل الأمر متعلق بالمال؟»

للحظةٍ وسوست له نفسُه بأن يخبرها بأمر الخطاب. ولكنه كبح هذا الوسواس، لعلمه أنها لن تقبل بخروجه لو علمت بالحقيقة.

قال: «الأمر لا يستحق.» وتابع: «لا بد أن أذهب إلى بيستون تريسي لاستقبال آخرِ قطار. فأنا أنتظر وصول بعض بروفات الطباعة.»

كان يكره أن يكذب عليها، وحتى كذبة تافهة لا ضرر منها كهذه كانت بالنسبة إليه أمرًا مقيتًا.

قال: «أخشى أنكِ قضيت أمسية مضجرة.» وأضاف: «لم يكن كارا مسليًا.»

نظرَت إليه في تفكير.

ثم قالت بنبرةٍ متثاقلة: «لم يتغيَّر كثيرًا.»

تساءل بنبرةٍ تنمُّ عن إعجاب: «إنه رجلٌ غاية في الوسامة، أليس كذلك؟» وأردف: «لا أفهم ماذا أعجبكِ في شخصٍ مثلي، بينما كان أمامكِ رجلٌ ليس ثريًّا فحسب، بل ربما كان الرجل الأكثر وسامةً في العالم.»

ارتعدَت قليلًا.

ثم قالت: «لقد رأيت جانبًا من شخصية كارا ليس به أي جمال.» وتابعت: «أوه، يا جون، أنا خائفة من ذلك الرجل!»

نظر إليها في دهشة.

وسألها: «خائفة؟» وأضاف: «يا إلهي، ما أغرب ما تقولين يا جريس! أنا لا أظن أنه يمكن أن يفعل بكِ شيئًا.»

قالت بصوتٍ خفيض: «هذا بالضبط ما أخشاه.»

كان لديها سببٌ لم تُفصح عنه. كان أول لقاء لها برمينجتون كارا في سالونيك قبل عامَيْن. كانت تقوم بجولةٍ عبر منطقة البلقان بصحبة والدها — وكانت تلك آخر جولة لعالم الآثار المعروف — والتقت بالرجل الذي قُدِّر أن يكون له مثل هذا التأثير على حياتها في عشاءٍ أقامه القنصل الأمريكي.

كثيرة هي القصص التي رُويت حول هذا اليوناني بوجهه الملائكي، وعربته الفخمة، وثرائه غير المحدود. كان يُقال إن والدته سيدة أمريكية سُبيت على يدِ قُطَّاعِ طرقٍ ألبان وبيعت إلى أحد الأعيان الألبان، الذي وقع في حبها وتحوَّل لأجلها إلى المذهب البروتستانتي. تلقى تعليمه في يال وأكسفورد، وكان معروفًا بامتلاكه ثروةً طائلة، ويكاد يكون قد نُصِّب ملِكًا على حيٍّ جبلي مرتفع يقع على بُعد أربعين ميلًا من دورازو. كان بمثابة الحاكم، وكان يقطن منزلًا جميلًا بناه مهندس معماري إيطالي، جُلب أثاثه وتجهيزاته من أفخم مراكز العالم.

كانوا يطلقون عليه في ألبانيا «كارا رومو»، الذي يعني «الروماني الأسود»، ولم يكن لتلك التسمية سبب محدَّد، مثلما قد يتراءى لأي شخص؛ إذ كان ذا بشرة

شقراء مثل بشرة الساكسونيين، وكانت خصلات شعره المجعدة القصيرة ذهبية تقريبًا.

وقع في غرام جريس تيريل. في البداية كانت مجاملاته لها تطربها، ثم جاء وقتٌ صارت تخيفها؛ إذ كانت عاطفته المشبوبة ولهيب عشقه لها واضحين على نحوٍ لا تخطئه عين. أوضحت له أنه لا يمكنه أن يعقد أيَّ آمال على أن تبادله حبَّه بحب، وفي مشهدٍ ما زالت أوصالها ترتعد حتى الآن حين تتذكَّره، أفصح عن شيءٍ من طبيعته المستهترة الجامحة. لم تره في اليوم التالي، ولكن بعد يومين وهي عائدة عبر السوق العامة من حفلٍ راقص أقامه الحاكم العام، استُوقفت عربتها، وأُجبرت على النزول منها عنوة، وكُتمت صرخاتها بواسطة قطعة من القماش مشبعة برائحة عطرية جميلة. كان مهاجموها على وشك إدخالها عنوة في عربة أخرى، حين تصادف مرور مجموعة من جنود البحرية البريطانية كانوا في إجازة ورأوا المشهد، وهمُّوا بإنقاذ الفتاة دون أدنى دراية لهم بجنسيتها.

لم يكن في أعماقها أيُّ شك في ضلوع كارا في هذه المحاولة التي تعود إلى القرون الوسطى للحصول على زوجة، ولكنها لم تخبر زوجها بشيء عن هذه المغامرة. وظلت حتى زواجها تتلقى دائمًا هدايا ثمينة، وكانت دائمًا ما تعيدها على العنوان نفسه … ضيعة كارا بليمازو. بعد بضعة أشهر من زواجها، علمت من الصحف أن «زعيم المجتمع اليوناني» هذا اشترى منزلًا كبيرًا بالقرب من كادوجان سكوير، ثم سعى جاهدًا للتعرُّف على زوجها حتى قبل انقضاء شهر العسل، ما كان مثار دهشة وإحباط لها.

كانت زياراته، لحسن الحظ، قليلة، ولكن الألفة التي كانت تتزايد بين جون وهذا الرجل الغريب غير المنضبط كانت مصدرَ ضيقٍ مستمر لها.

هل ينبغي في هذه اللحظة، في ذلك الوقت المتأخر، أن تصارح زوجها بكلِّ ما يخالجها من مخاوفَ وشكوك؟

قلّبت الأمر في عقلها بعض الوقت. ولم تكن أقربَ إلى مصارحته بما بداخلها في أي وقتٍ أكثرَ من هذه اللحظة بينما كان جالسًا على الكرسي الكبير ذي الذراعين بجوار البيانو، وقد بدا وجهه مرهقًا قليلًا، ومستغرقًا بعض الشيء في تأملاته. ربما كانت ستتكلم لو كان أقل قلقًا. وعلى ذلك، حوّلت دفة الحديث إلى عمله الأخير؛ تلك القصة البوليسية التي إن لم تجلب له ثروة، فسوف تدرُّ عليه زيادةً كبيرةً في دخله.

في الساعة الحادية عشرة إلا ربعًا، تفقَّد ساعته ونهض. وساعدته هي في ارتداء معطفه. ووقف مترددًا بعض الوقت.

سألته: «هل نسيت أيَّ شيء؟»

سأل نفسه إن كان ينبغي أن يأخذ بنصيحة كارا. فعلى أي حال لم تكن مقابلةُ رجلٍ شرس ضئيل الجسد هدَّد حياته بالشيء المستحب، وكانت مقابلته أعزلَ دون سلاح بمثابةِ مجازفة سخيفة. كان الأمر برمَّته عبثًا بالطبع، ولكن كان من العبث أنه اضطُر للاقتراض، ومن العبث أن هذا الاقتراض كان ضروريًّا، إلا أنه راح يتدبَّر أفضل النصائح، والتي كانت نصيحة كارا.

خطرت الواسطة فجأة بباله، ومع ذلك لم يكن كارا قد أشار مباشرة إلى أنه سيشتري أسهم الذهب الرومانية؛ بل تحدَّث فقط بحماس عن توقعاتها. فكَّر برهةً، ثم عاد أدراجه ببطء إلى غرفة المكتب وفتح درج مكتبه، وأخرج ذلك السلاح الصغير المقيت، ووضعه في جيبه.

قال: «لن أغيب طويلًا يا عزيزتي»، وبعد أن قبَّل الفتاة خرج بخطًى واسعة في الظلام.

جلس كارا مضطجعًا في سيارته الفارهة يدندن بلحنٍ صغير، بينما كان السائق يتقدَّم بحذرٍ على الطريق الشائك. كانت الأمطار لا تزال متواصلة، وكان كارا يضطر لمسح النوافذ لإزالة رذاذ الضباب الذي تجمَّع عليها ليعرف أين هو. كان

يطل من النافذة من حينٍ لآخر كأنما كان يتوقّع أن يبصر شخصًا ما، بعد ذلك تذكّر بابتسامةٍ خفيفة أنه قد غيَّر خطته الأصلية، وأنه قد حدَّد قاعة الانتظار بمحطة لويس مكانًا للقاء.

هناك وجد رجلًا ضئيل الجسد ملفعًا حتى أذنيه في معطف كبير، يقف أمام النار الآخذة في الخمود. انتفض عند دخول كارا واتبعه إلى الخارج بناءً على إشارة منه.

كان واضحًا أن الغريب لم يكن إنجليزيًّا. كان وجهه شاحبًا ونحيلًا، ذا وجنتَيْن غائرتَيْن، وكانت لحيته غيرَ مشذبةٍ وشعثاء تقريبًا.

اقتاده كارا إلى حافة الرصيف المظلم، قبل أن يهم بالحديث.

سأله بفظاظة: «هل نفذت تعليماتي؟»

كان يتحدث باللغة العربية، وجاءت إجابة الآخر باللغة نفسها.

قال في خنوع: «كل ما أمرت به نُفِّذ، يا سيدي.»

«هل معك مسدس؟»

أومأ الرجل إيجابًا وضرب برفق على جيبه.

«معبأ؟»

سأله الآخر متعجبًا: «وما جدوى المسدس إن لم يكن معبأً، يا صاحب الفخامة؟»

قال كارا: «كما فهمت، لن تطلق الرصاص على هذا الرجل.» وتابع: «سوف تشهر المسدس فحسب. وعلى سبيل الحرص، من الأفضل أن تفرغه من الطلقات الآن.»

امتثل الرجل متعجبًا، وضغط على القاذف إلى الخلف.

قال كارا مادًّا يده: «سوف آخذ الطلقات.»

وضع الطلقات الأسطوانية الصغيرة في جيبه، وبعد أن تفقَّد السلاح، أعاده إلى صاحبه.

تابع قائلًا: «سوف تهدِّده.» وأردف: «صوِّب السلاح نحو قلبه مباشرة. ولا شيء سوى ذلك.»

أخذ الرجل يحرِّك قدميه في الأرض إلى الأمام وإلى الخلف في اضطراب.

وقال: «سوف أفعل ما تأمر به يا سيدي. ولكن ...»

رد الآخر في غلظة: «بدون «لكن».» وتابع: «عليك أن تنفِّذ تعليماتي دون نقاش. وسوف ترى ما سيحدث في حينه. سوف أكون قريبًا منك. تأكد أن لدي سببًا لهذه اللعبة.»

أصرَّ الآخر في قلق: «ولكن افترض أنه أطلق الرصاص؟»

قال كارا في هدوء: «لن يطلق الرصاص.» وأردف: «كما أن مسدسه غير معبأ. يمكنك الانصراف الآن. فأمامك مسيرة طويلة. هل تعرف الطريق؟»

أومأ الرجل إيجابًا.

وقال في ثقة: «سرت عليه من قبل.»

عاد كارا إلى السيارة الليموزين الكبيرة التي كانت متوقفة على مسافةٍ من المحطة. تحدَّث إلى السائق بكلمة أو كلمتين باليونانية، وأمال له الرجل قبَّعته.

الفصل الثاني

لم يكن مفوَّض الشرطة المساعد، تي إكس ميرديث، يشغل أحد المكاتب الكائنة في مقر سكوتلاند يارد. فمن السمات الغريبة للمكاتب العامة أنها تُصمَّم على أساس توفير هامش مساحة كبير، ويكون ذلك فوق جميع الاشتراطات الأخرى، وعند اكتمالها يتبيَّن أنها غير كافية تمامًا لإيواء الإدارات والأقسام المختلفة التي تظهر على نحوٍ غيرِ مفهوم بالتزامن مع عمليات البناء.

كان لـ «تي إكس»، وهو الاسم الذي كان يُعرَف به من قِبَل جميع قوات الشرطة في العالم، مجموعةٌ كبيرة من المكاتب في وايتهول. كان المبنى قديمًا يواجه مبنى مجلس التجارة وكانت الكتابة المحفورة على بابه القديم تخبر مَن يمرون به أن هذا هو مبنى «المدعي العام، الفرع الخاص».

كانت مهام تي إكس متعددة ومتنوعة. كان الناس يقولون عنه — وهو ما قد يكون غير صحيح مثل أغلب ثرثرة العامة — إنه رئيس إدارة «الأمور غير القانونية» لسكوتلاند يارد. فإذا تصادف أن فقدت مفاتيح خزنتك، كان بإمكان تي إكس أن يجلب لك (بحسب شائعة كانت رائجة للغاية) لصًّا يفتح تلك الخزنة في نصف ساعة.

إذا كان في إنجلترا شخصٌ سيئ السمعة لم تستطِع الشرطة جمْع أي أدلة لتسويغ الادعاء ضده، وإذا كان صالح المجتمع يستلزم إبعاد هذا الشخص، كان تي إكس هو مَن يأخذ على عاتقه مهمة القبض على هذا الشخص البغيض، ويزج به

في عربة أجرة، ولا يرفع قبضته عن ضحيته حتى يحط به على السواحل الناقمة لدولة أخرى غير صديقة.

من المؤكد تمامًا أنه حين يُستدعى الوزير المعني لدولة صغيرة مغمورة من قِبل حكومته فجأة، ويُحاكم في بلده بتهمة ترويج صكوك مزيفة، يكون شخصٌ من الإدارة التي يتولاها تي إكس هو مَن اقتحم منزل سيادته، وحطَّم أقفال خزنته ووضع دليل الإدانة اللازم.

أقول إن هذا مؤكد إلى حدٍّ كبير، وما قولي هذا إلا مجرد نقل لرأي أشخاص على دراية وخبرة واسعتَيْن جدًّا في الواقع، ورؤساء إدارات عامة يتحدثون في الخفاء، ووكلاء وزارات يناقشون الأمور همسًا في الأركان البعيدة من غرف الاجتماعات في النوادي، والآراء الأكثر صراحة للمراسلين الأمريكيين الذين لا يترددون تمامًا في كتابة تلك الآراء ونشرها لإفادة قرائهم.

نحن نعلم أن تي إكس كانت له أعمال أكثر شرعية؛ إذ كان ذلك الرجل الصفيق هو مَن راح اعتقاد واسع عن أن تعليقه الغاشم على وزارة الداخلية قد أرسل أحد وزراء الداخلية إلى قبره، وهو مَن تتبَّع أثرَ قَتَلة دبتفورد عَبْر متاهة من الأيمان الكاذبة، وهو مَن قدَّم السير جوليوس واجليت للمساءلة والعقاب رغم أنه أخفى آثار اختلاسه عَبْر كشوف الميزانيات العمومية لأربع وثلاثين شركة.

في ليلة الثالث من مارس، جلس تي إكس في مكتبه الداخلي يتحدَّث مع مفتشٍ من شرطة العاصمة، يُدعى مانسوس، كان في حالة من الحزن والكآبة.

كان مظهر تي إكس يوحي بشباب طاغٍ؛ إذ كان يغلب على وجهه ملامح طفولية، ولم يكن أحد ليخمن أنه في طريقه إلى الأربعينيات من العمر إلا عندما ينظر إليه عن كثب ويرى التجاعيد القليلة المحيطة بعينيه، وإطباق فمه المستقيم. في صباه، كان أقرب إلى شاعر، وألَّف كتابًا صغيرًا بعنوان «قصائد الغابة»، والذي كان مجرد ذكره في هذه المرحلة المتقدمة من حياته كفيلًا بأن يبعث فيه شعورًا عنيفًا بالحزن والتعاسة.

أما في الأسلوب، فكان لبقًا، ولكنه مثابر وعنيد، وكانت لغته في بعض الأحيان يميزها مغالاة شديدة واشتُهر بكتابةِ خطابٍ ظهرَ للعيان، وأثار حفيظة وزير داخلية سابق ما دفعه إلى التعليق عليه قائلًا: «إنه لأمرٌ مؤسف أن السيد ميرديث لم يأخذ موقعه الوظيفي بالجدية المتوقعة من مسئول حكومي.»

كانت لغته، كما قلت، مثيرة للاستفزاز، وعنيفة، وغير مألوفة. كان يمارس حيلة تتمثَّل في استخدام كلماتٍ ليس لها وجود في البَر أو في البحر، وإبداء تعليماته أو تحذيراته بأغرب الأساليب والتراكيب.

كان في هذه اللحظة متكئًا على كرسي مكتبه بتعبيرات وجه مخيفة، ينظر في عبوس إلى مرءوسه المغتم الذي جلس على حافة كرسي على الجانب الآخر من مكتبه.

قال المفتش محتجًّا: «ولكن لم يُعثَر على شيء يا تي إكس.»

كان من عادة السيد ميرديث — وكانت عادة مثيرةً للسخط — الإصرارُ على أن يناديه زملاؤه بالأحرف الأولى من اسمه، وهي عادة أثارت الاستهجان لدى أعلى الجهات.

قال مكررًا كلماته في غضب: «لم يُعثر على شيء!» وتابع: «يا لغرابة أطوارك!»

جلس على نحوٍ مفاجئ جعل الضابط ينتفض إلى الخلف في انزعاج.

قال تي إكس ممسكًا بفتَّاحة ورق ذات مقبض عاجي في يده في عنف، وهو ينقر على نشافته للتأكيد على كلماته: «أنصت إليَّ، أنت أحمق!»

قال الآخر في صبر: «أنا شرطي.»

صاح تي إكس الغاضب: «شرطي!» وأضاف: «أنت أكثر من مجرد أحمق، أنت حثالة! أخشى أنني لن أصنع منك محققًا أبدًا»، وهز رأسه في أسفٍ في وجه

مانسوس المبتسم الذي كان ملتحقًا بقوات الشرطة حين كان تي إكس صبيًّا صغيرًا في المدرسة مردفًا: «أنت لا تملك حصافة ولا مكرًا، إنك تجمع بين براءة طفل رضيع ووضاعة كاهن محلي ... كان لا بد أن تكون في الجوقة.»

التزم مانسوس الصمت أمام تلك الإهانة الصارخة؛ وقد يظل أي شيء آخر ربما يكون قد قاله، أو أي استفزاز آخر ربما يكون قد تلقاه، مجهولًا إلى الأبد؛ إذ قد دخل في تلك اللحظة رئيس الشرطة بنفسه.

كان رئيس الشرطة في تلك الفترة رجلًا أشيب، منهكًا إلى حدٍّ ما، ذا أنف معقوف وعينَيْن غائرتَيْن تبرزان أسفل حاجبَيْن أشعثَيْن، وكان يبث الذعر في نفوس كل رجال إدارته عدا تي إكس، الذي لم يكن يحترم شيئًا على وجه الأرض والقليل جدًّا من الأمور خارجها. أومأ إلى مانسوس إيماءة مقتضبة برأسه.

وقال: «حسنًا، ما الذي عرفته بشأن صديقنا كارا، يا تي إكس؟»

وانتقل ببصره من تي إكس إلى المفتش المنزعج.

قال تي إكس: «لم أعرف سوى القليل جدًّا.» وأردف: «لقد كلفت مانسوس بالمهمة.»

قال رئيس الشرطة متبرمًا: «ولم تجد شيئًا، أليس كذلك؟»

قال تي إكس: «لقد وجد كلَّ ما يمكن اكتشافُه.» وتابع: «نحن لا نصنع المعجزات في هذه الإدارة، يا سير جورج، ولا يمكننا أن نجمع خيوط قضية في خمس دقائق.»

زمجر السير جورج هالي.

وتابع الآخر في سلاسة وهدوء: «لقد بذل مانسوس قصارى جهده، ولكن من السَّخف أن نتحدث عن أفضل ما لدى المرء بينما لا يعرف إلا أقل القليل عما تريد.»

هوى السير جورج على الكرسي ذي الذراعَيْن بقوة، ومدَّد ساقَيْه النحيلتَيْن الطويلتَيْن.

قال وهو ينظر إلى السقف عاقدًا يدَيْه معًا: «ما أريده هو معرفة شيء عن شخصٍ يُدعى رمينجتون كارا، وهو ثري يوناني كان يقطن منزلًا في كادوجان سكوير، وليس لديه وضعٌ معيَّن في مجتمع لندن؛ ومن ثَم ليس لديه مبرِّر للقدوم إلى هنا، ويعبِّر علانيةً وصراحةً عن امتعاضه من المناخ، ولديه ضيعة فخمة في مكانٍ بعيدٍ في البلقان، كما أنه خيَّال ممتاز، ورامٍ رائع، وطيار متوسط المستوى.»

أومأ تي إكس إلى مانسوس وغادر المفتش وفي عينَيْه شيء من الامتنان.

قال تي إكس وهو يهم بالجلوس على حافة مكتبه ويتخير بعناية شديدة سيجارة من العلبة التي أخرجها من جيبه: «ها قد غادر مانسوس، هيا أخبرني بالسبب وراء هذا الاهتمام المفاجئ بعظماء كوكب الأرض.»

ابتسم السير جورج في تكلُّف.

قال: «اهتمامي هو اهتمام إدارتي.» وتابع قائلًا: «أقصد أنني أرغب في معرفة الكثير عن الأشخاص الغرباء. لقد تلقينا منه طلبًا غير مألوفٍ نوعًا ما. يبدو أنه يخشى على حياته لسبب أو لآخر ويريد أن يعرف إن كان بإمكانه الحصول على خط هاتف خاص يصل بين منزله ومركز قيادة الشرطة. أخبرته أن بإمكانه دائمًا الوصولَ إلى أقرب قسم شرطة عبر «الهاتف»، ولكن ذلك لم يُرضِه. إن له صديقَ سوء من بلده يعتقد أنه آجلًا أو عاجلًا سوف يقتله.»

أومأ تي إكس.

ثم قال في صبرٍ: «أعرف كل هذا، إذا كنت ستفصح عن المزيد من الملف السري، يا سير جورج، فأنا على استعداد للإثارة.»

قال العجوز مزمجرًا وهو يهم بالنهوض: «لا يوجد ما هو مثير في الأمر، ولكنني أذكر قضية قتل ذلك الرجل المقدوني التي وقعت في جنوب لندن ولا أرغب

في تَكرار مثل هذا الأمر. إذا أراد الناس أن يسفكوا دماء الإقطاعيين، فليفعلوا ذلك خارج حدود العاصمة.»

قال تي إكس: «فليفعلوا بأي طريقة ممكنة. عن نفسي، أنا لا يهمني إلى أين يذهبون. ولكن إذا كانت تلك هي حدود معلوماتك، فبإمكاني أن أكملها لك. لقد أدخل تغييرات شاملة على المنزل الذي ابتاعه في كادوجان سكوير، والغرفة التي يقطن فيها فعليًّا عبارة عن خزنة.»

رفع سير جورج حاجبيه.

ثم قال مكررًا: «خزنة؟»

أومأ تي إكس إيجابًا.

قال: «خزنة ذات جدران مضادة للسرقات، وأرضية وسقف من الخرسانة المسلحة، ويوجد بها باب يُغلق بمزلاج فولاذي، إلى جانب قفله العادي، يغلقه حين يأوي إلى فراشه ليلًا ويفتحه بنفسه في الصباح. أما النافذة، فلا يمكن الوصول إليها، والغرفة في العموم مصممة للصمود أمام أي هجوم.»

كانت أمارات الاهتمام باديةً على رئيس الشرطة.

تساءل: «هل من معلومات أخرى؟»

قال تي إكس وهو ينظر إلى السقف: «دعني أفكِّر.» وتابع: «نعم، إن غرفته من الداخل مؤثَّثةٌ بأثاث بسيط، وتوجد مدفأة كبيرة وسرير مزخرف نوعًا ما، وخزنة فولاذية مثبتة في الحائط وظاهرة من جانبها الخارجي للشرطي الذي يقع مركز خدمته في ذلك الحي.»

تساءل رئيس الشرطة: «كيف عرفت كل ذلك؟»

قال تي إكس ببساطة: «لأنني دخلت الغرفة، بعد أن نجحت بحيلة خفية في كسب ثقة مدبِّرة منزل كارا، وهي ثقة في غير موضعها، وهي بالمناسبة ...»

والتفت إلى مكتبه وكتب اسمًا على النشافة في عجالة، متابعًا: «سوف تُطرد من عملها غدًا ولا بد من إيجاد مكان لها.»

قال رئيس الشرطة: «هل يوجد في الأمر أي …؟»

قاطعه تي إكس: «شيء مريب؟ — إطلاقًا. إن المنزل وصاحبه طبيعيان تمامًا إلا فيما يتعلق بتلك الأمور الغريبة. لقد أعلن عن نيته قضاء ثلاثة أشهر من العام في إنجلترا وتسعة أشهر بالخارج. إنه فاحش الثراء، وليس له أي علاقات، ولديه شغف بالسلطة والنفوذ.»

قال رئيس الشرطة وهو يهم بالنهوض: «إذن سوف يُعدم.»

قال الآخر: «أشك في ذلك؛ فأولئك الذين يملكون الكثير من المال نادرًا ما يُعدمون. فالمرء يُعدم فقط حين يكون بحاجة للمال.»

ابتسم رئيس الشرطة: «إذن فأنت تواجه خطرًا ما يا تي إكس، فأنت حسب علمي مفلس دائمًا إلى حدٍّ ما.»

قال تي إكس: «افتراء لطيف، ولكن بمناسبة الحديث عن المفلسين، لقد رأيت جون لكسمان اليوم … أنت تعرفه!»

أومأ رئيس الشرطة.

«أعلم أنه متعثِّر ماليًّا بعض الشيء. لقد تورَّط في عملية الاحتيال تلك الخاصة بأسهم الذهب الرومانية، ومن حالة الكآبة الغالبة عليه، والتي لا تصيب الرجل إلا عندما يكون واقعًا في الحب (وهو لا يمكن أن يكون واقعًا في الحب لأنه متزوج)، أو عندما يكون غارقًا في الديون، أخشى أنه لا يزال يعاني من جراء تلك المغامرة الوردية.»

دقَّ جرس هاتف في أحد أركان الغرفة بقوة، ورفع تي إكس السماعة. وكان يسمع باهتمام.

قال لرئيس الشرطة المغادر من فوق كتفه: «مكالمة خارجية، لعله أمر مثير.»

ساد صمت قصير، ثم تحدَّث إليه صوت أجش: «أهذا أنت يا تي إكس؟»

قال مفوَّض الشرطة المساعد بنبرة عادية: «هذا أنا.»

«جون لكسمان يتحدث.»

قال تي إكس: «لم أعرف صوتك، ماذا بك يا جون، ألا يمكنك أن تجد بدايةً لقصةٍ ما؟»

قال الصوت في تعجُّل، وأدرك تي إكس ما به من كربٍ حتى عَبْر الهاتف: «أريدك أن تأتي إلى هنا في الحال. لقد أطلقتُ الرصاص على شخصٍ وأرديتُه قتيلًا!»

أطلق تي إكس زفرةً مفاجئة.

قال: «يا إلهي، أنت أحمق غبي!»

الفصل الثالث

في الساعات الأولى من الصباح اجتمعت زُمْرة صغيرة كئيبة في غرفة المكتب في بيستون بريوري. جلس جون لكسمان شاحبًا مهزولًا على الأريكة وبجواره زوجته. كانت السلطة المباشرة ممثَّلة في أحد شرطيي القرية كان في الخدمة في الممر بالخارج، بينما كان تي إكس جالسًا على الطاولة وأمامه دفتر وقلم رصاص يدوِّن الأقوال باختصار.

وصف الكاتب الأحداث التي وقعت على مدار اليوم. فوصف لقاءه مع المرابي في اليوم السابق والخطاب الذي وصله.

سأله تي إكس: «هل الخطاب معك؟»

أومأ جون لكسمان إيجابًا.

قال الآخر مطلِقًا زفرةَ ارتياح: «أنا سعيد بذلك؛ فسوف ينقذك ذلك من أمورٍ كثيرة مقيتة، يا صديقي العزيز المسكين. أخبرني ماذا حدث بعد ذلك.»

قال جون لكسمان: «وصلت إلى القرية وشققتُ طريقي عَبْرها. لم يكن ثمَّة أحد في الأنحاء، وكانت الأمطار لا تزال تتساقط بغزارة شديدة ولم ألتقِ شخصًا واحدًا فعليًّا طوال المساء. وصلت إلى المكان المحدَّد قبل الموعد بخمس دقائق. كان المكان هو ناصية طريق إيستبورن على جانب المحطة، وهناك وجدت فاسالارو في انتظاري. كنت أشعر بالخزي من نفسي لمقابلتي له في ظل كل هذه الظروف، ولكنني كنت حريصًا أشد الحرص على ألا أجعله يأتي إلى المنزل خوفًا من أن يتسبَّب ذلك في إثارة ضيق جريس. وما جعل الأمر كله أكثر عبثًا هذا المسدس

اللعين الذي كان في جيبي ويرتطم بجنبي مع كل خطوة أخطوها وكأنه يلكزني لكي أفهم حماقتي.»

سأل تي إكس: «أين قابلت فاسالارو؟»

«كان على الجانب الآخر من طريق إيستبورن وعبر الطريق لكي يقابلني. في البداية كان في غاية اللطف وإن كان محتدًّا قليلًا، لكنه بعد ذلك بدأ في التصرف بأسلوبٍ غاية في الغرابة وكأنه كان يدفع نفسه دفعًا نحو غضبٍ لم يكن يشعر به. وعدتُه بسداد مبلغ كبير تحت الحساب، ولكن ساءت تصرفاته أكثر وأكثر، وفجأة، وقبل أن أدرك ما كان يفعله، وجدته يلوِّح بمسدس في وجهي ويتلفَّظ بتهديدات من أغرب ما يكون. حينئذٍ تذكَّرت تحذير كارا.»

قال تي إكس بسرعة: «كارا.»

«إنه رجل من معارفي وكان المسئول عن تعريفي بفاسالارو. إنه ثريٌّ ثراءً فاحشًا.»

قال تي إكس: «فهمت، أكمل.»

تابع الآخر: «تذكَّرت هذا التحذير وفكَّرت أن الأمر يستحق التجربة لأرى إن كان سيؤتي أيَّ تأثير على ذلك الرجل الضئيل الجسد. جذبت المسدس من جيبي وأشهرته في وجهه، ولكن لم يبدُ أن ذلك كان كافيًا لإنهاء الأمر، وبعدها ضغطت على الزناد …

في غمرة فزعي انطلقت أربع رصاصات قبل أن أسترد من هدوئي ما يكفي لإرخاء قبضتي عن عُقب السلاح. سقط أرضًا دون أن ينطق بكلمة. ألقيت المسدس وجثوت بجواره. أستطيع القول إنه أُصيب بإصابات خطيرة، وفي الواقع أدركت في تلك اللحظة أن لا شيء من شأنه أن ينقذه. لقد كان مسدسي مصوبًا نحو منطقة القلب …»

ارتعدت أوصاله، ووضع وجهه بين يديه، وطوَّقت الفتاة الجالسة بجواره كتفه بذراعها وكأنها درعٌ حامية، وتمتمت بشيء في أذنه. وبعد قليل استعاد هدوءه.

«لم يكن قد أسلم الروح تمامًا. فقد سمعته يغمغم بشيء ولكن لم أستطِع تمييز ما قاله. توجَّهت مباشرة إلى القرية وأبلغت الشرطي ونُقِلت الجثة.»

نهض تي إكس عن الطاولة واتجه نحو الباب وفتحه.

قال: «ادخل أيها الشرطي»، وحين دخل الرجل أردف قائلًا: «أعتقد أنك كنت شديد الحرص أثناء نقل الجثة، وأخذت كل شيء كان موجودًا في محيطها المباشر؟»

أجاب الرجل: «نعم يا سيدي، أخذت قبَّعته وعصاه، إن كان ذلك ما تقصده.»

سأله تي إكس: «والمسدس!»

هزَّ الرجل رأسه.

«لم يكن هناك أيُّ مسدس، يا سيدي، عدا المسدس الذي كان بحوزة السيد لكسمان.»

وأخذ يتحسَّس جيبه وأخرج المسدس منه بحذرٍ شديد، وأخذه تي إكس منه.

«سوف أتولَّى أمر سجينك، أما أنت فلتذهبْ إلى القرية وتستعِنْ بمساعدة أي شخصٍ يمكنك الاستعانة به وتُفتِّش تفتيشًا دقيقًا جدًّا في المكان الذي قُتل فيه هذا الرجل، وأحضِرْ لي المسدس الذي ستجده. على الأرجح ستجده في حفرةٍ على جانب الطريق. سأمنح الشخص الذي يجده جنيهًا ذهبيًّا.»

لمس الشرطي قبَّعته تحية له وانصرف.

قال تي إكس وهو يهمُّ بالعودة إلى الطاولة: «تبدو قضية غريبة نوعًا ما بالنسبة إليَّ، ألا يمكنك أنت نفسك أن ترى ملامحها غير المألوفة، يا لكسمان؟! ليس غريبًا

عليك أن تقترض مالًا، وليس غريبًا أن يطالب المرابي باسترداد ذلك المال، ولكنه في هذه الحالة يطالب به قبل حلول موعد السداد، والأكثر من ذلك أن تأتي مطالبته به مصحوبة بتهديدات. ليس من عادة المقرِض العادي أن يطارد عملاءه بمسدسٍ محشوٍّ بالطلقات. ثمَّة شيء آخر غريب، وهو أنه لو كان يرغب في ابتزازك، بمعنى أن يقلِّل من قدْرك في أعين أصدقائك، فلماذا اختار أن يقابلك في طريقٍ مظلم ومهجور، وليس في منزلك حيث سيكون الضغط المعنوي في أوْجه؟ علاوة على ذلك، لماذا أرسل إليك رسالة تهديد من شأنها، بلا شك، أن تضعه تحت طائلة القانون وتنقذك من أمورٍ مقيتة كثيرة إذا كان قد قرَّر أن يتخذ إجراء؟!»

أخذ ينقر على أسنانه البيضاء بطرَف قلمه الرصاص، ثم قال فجأة:

«أظن أنني يجب أن أطَّلع على تلك الرسالة.»

نهض جون لكسمان من فوق الأريكة، واتَّجه نحو الخزنة، وفتحها ثم همَّ بفتح الدرج الفولاذي الذي أودع فيه مستند الإدانة. كانت يده على المفتاح حين لاحظ تي إكس على وجهه أمارات الدهشة.

تساءل المحقق فجأة: «ما الأمر؟!»

قال جون لكسمان: «هذا الدرج ساخن جدًّا»، ونظر حوله وكأنه يقيس المسافة بين الخزنة والمدفأة.

وضع تي إكس يده على مقدمة الدرج. كان ساخنًا بالفعل.

قال تي إكس: «افتحه.» فأدار لكسمان المفتاح وفتح الدرج.

وبينما كان يفعل، تحوَّلت كل محتويات الدرج سريعًا إلى كرةٍ من اللهب. خمدت النار في الحال ولم تخلِّف وراءها إلا حلقة صغيرة من الدخان تصاعدت من الخزنة الكائنة داخل الغرفة.

قال تي إكس بسرعة: «لا تلمس أيَّ شيء بالداخل.»

رفع الدرج بحرصٍ ووضعه تحت الضوء. لم يكن تحته أكثر من بضعة أكوام صغيرة من الرماد الأبيض ونقطة صغيرة من الطلاء في الموضع الذي اشتعلت فيه النار.

قال تي إكس ببطء: «فهمت.»

لقد رأى شيئًا أكثر من مجرَّد تلك الحَفْنة من الرماد، رأى الخطر الداهم الذي كان صديقه واقعًا فيه. فها هو نصف الدليل الذي كان في صالح لكسمان قد ذهب بلا رجعة.

«لقد كانت الرسالة مكتوبةً على ورقٍ معدٍّ خصِّيصى بعملية كيميائية جعلت الورقة تتفتت لحظة تعرُّضها للهواء. ربما لو تأخرت في وضع الرسالة في الدرج خمس دقائق أخرى، لرأيتها تحترق أمام عينيك. وعلى ذلك كانت تحترق قبل أن تدير مفتاح الدرج. المظروف!»

قال لكسمان بصوتٍ خفيض: «لقد حرقه كارا، أذكر أنني رأيته يأخذه من فوق الطاولة ويلقي به في النار.»

أومأ تي إكس.

قال في عبوس: «يتبقى النصف الآخر من الدليل»، وعندما عاد شرطي القرية بعد ساعة ليبلغه بأنه على الرغم من بحثه الدقيق، فشل في العثور على مسدس القتيل؛ تحقَّقَت توقعاته.

في صباح اليوم التالي أُودع جون لكسمان سجن لويس بتهمة القتل العمد.

جاء مانسوس من لندن إلى بيستون تريسي على إثرِ برقيةٍ وصلته، واستقبله تي إكس في المكتبة.

«لقد أرسلت إليك، يا مانسوس؛ لأنني أعاني من وهم أنك تملك من الذكاء ما يفوق معظم العاملين في إدارتي، وتلك ليست مبالغة.»

بدأ مانسوس الحديث قائلًا: «أنا في غاية الامتنان لك، يا سيدي، لتجميلك صورتي أمام رئيس الشرطة»، ولكن تي إكس قاطعه.

وقال في تجهُّم: «من واجب كل رئيس إدارة أن يخفي قصور مرءوسيه. إن اتباع مثل هذا النهج فقط هو ما يمكن من خلاله رصد مثالب الحياة العامة. والآن لنلتفت إلى هذا.» وقدَّم له وصفًا للقضية من البداية إلى النهاية في أقصر فترة زمنية ممكنة.

قال: «الأدلة ضد السيد لكسمان دامغة.» وتابع: «لقد اقترض أموالًا من هذا الرجل، وعُثر في جثمان الرجل على تفاصيلِ الكمبيالة التي وقَّع عليها لكسمان. لا أستطيع الجزم بالدافع وراء إحضاره لها معه. على أي حال، فإنني أشك كثيرًا فيما إذا كان السيد لكسمان سيدفع أي هيئة محلفين لقبول روايته. فرصتنا الوحيدة هي العثور على مسدس الرجل اليوناني ... لا أظن أن لدينا فرصةً كبيرة لذلك، ولكن إذا أردنا أن ننجح في ذلك، فلا بد أن نجري بحثًا في الحال.»

قبل أن ينصرف تي إكس، كان قد أجرى حوارًا مع جريس. كانت الهالات الداكنة تحت عينيها تشير إلى أرقٍ لازمها طوال الليل. فقد كانت شاحبة على غير العادة وهادئة بصورة مثيرة للدهشة.

قالت وهي تقوده إلى غرفة المكتب، مغلقةً البابَ خلفه: «أظن أنني ينبغي أن أخبرك بأمر أو أمرين.»

قال تي إكس: «وأظن أنهما يتعلقان بالسيد كارا.»

نظرت إليه في دهشة.

«كيف عرفت ذلك؟»

«أنا لا أعرف شيئًا.»

كان مترددًا وهو على شفا النطق بادعاءٍ وقحٍ بإحاطته بكل شيء، ولكنه كبح رغبته الفطرية في ذلك في الوقت المناسب، إثر إدراكه للحزن الذي لا بد أنها تعانيه.

تابع قائلًا: «أنا حقًّا لا أعرف شيئًا، ولكنني أخمن الكثير»، وكان ذلك أقربَ شيء للحقيقة يمكن أن تتوقَّع أن يصل إليه تي إكس في خضم اللحظة.

بدأت الحديث دون مقدمات.

«لا بد أن أخبرك في البداية أن السيد كارا طلبني للزواج في وقتٍ ما، ولأسباب سوف أذكرها لك، كنت في شدة الخوف منه.»

وصفتْ له دون أي تحفُّظ اللقاءَ الذي دار في سالونيك، وغضَبَ كارا المُبالَغ فيه وأخبرتْه عن محاولتِه خطْفَها.

سألها تي إكس: «هل لدى جون علمٌ بذلك؟»

هزَّت رأسها في حزن نافية.

قالت: «أتمنى الآن لو كنتُ قد أخبرته.» وأضافت: «أوه، كم أتمنى لو فعلت!» واعتصرت يديها في حزن وحسرة.

نظر إليها تي إكس في تعاطف. ثم سألها:

«هل سبق أن ناقش معك السيد كارا وضْع زوجك المالي؟»

«إطلاقًا.»

«كيف التقى جون لكسمان بفاسالارو؟»

أجابته: «أستطيع أن أخبرك أن أول مرة التقينا فيها بالسيد كارا في إنجلترا كانت عندما كنا نقيم في باباكوم في إجازة صيفية، والتي كانت في الحقيقة امتدادًا لشهر العسل. جاء السيد كارا للإقامة في الفندق ذاته. لا بد أن فاسالارو كان هناك

قبل وصولنا؛ لقد كان كلاهما على معرفة بالآخر، على أي حال، وبعد أن عرَّفه كارا بزوجي، كان الباقي سهلًا.»

ثم تساءلت في نبرة مثيرة للشفقة: «هل بوسعي فعلُ أيِّ شيء من أجل جون؟»

هزَّ تي إكس رأسه.

قال: «فيما يتعلَّق بقصتكِ هذه، لا أظن أنكِ ستفيدينه بسردها.» وتابع: «فليس بها أيُّ شيء يربط كارا بهذا الأمر ولن تقدِّمي لزوجكِ شيئًا سوى الكثير من الألم. سأبذل أقصى ما في وسعي.»

مد يده إليها وأمسكت بها وفي تلك اللحظة تولَّد بداخل تي إكس ميرديث شجاعةٌ جديدة وإيمان جديد وعزم أكبر من أيِّ وقتٍ مضى على حل هذا اللغز العسير.

وجد مانسوس في انتظاره في سيارةٍ بالخارج وفي غضون بضع دقائق كانا في مسرح الجريمة المأساوية. تجمَّع عددٌ قليل من المتفرجين الفضوليين، وأخذوا ينظرون بأقصى درجات الاهتمام إلى المكان الذي عُثر فيه على الجثة. كان يوجد شرطي محلي في الخدمة وأُوكلت إليه تلك المهمة المقيتة بتحذير مواطنيه من القرويين بالابتعاد. كانت الأرض قد خضعت بالفعل للبحث والتفتيش بمنتهى الدقة والحرص. كان الطريقان متقاطعَين في زوايا شبهِ قائمة وعلى ناصية ذلك التقاطع، كانت الأسيجةُ متقطعةً مؤديةً إلى حقلٍ من الواضح أنه كان يُستخدَم مرعًى من قِبل مزرعة ألبان مجاورة. بُذِلت محاولةٌ شاقة لإغلاق الفتحة بالأسلاك الشائكة، ولكن لم يكن ثمة صعوبة تُذْكر في العبور من فوق هذه الأسلاك المجدولة المتهدلة. انصب اهتمام تي إكس بالأساس على هذه الفتحة. كانت الحقول كلها قد خضعت للتفتيش دون جدوى، وكانت المواسير الأربع التي كانت مجرَّد مواسير واصلة بين المصارف المائية الواقعة على جوانب التقاطعات؛ قد أُفرغت دون أن يلوح في الأفق أيُّ أملٍ في أن يؤتي البحث الجديد للسياج المتكسر والشجيرات المتشابكة من خلفه أيَّ ثمار.

وفجأة قال مانسوس: «مرحى!» وانحنى ليلتقط شيئًا من فوق الأرض.

أخذه تي إكس في يده.

كانت طلقة مسدس بكل وضوح. وضع علامةً على الموضع الذي وُجدت فيه بحشر عصاه في الأرض بقوةٍ وواصل بحثه، ولكن بلا جدوى.

قال تي إكس بعد نصف ساعة من البحث المتواصل: «أخشى أننا لن نجد شيئًا آخر هنا.» ووقف واضعًا ذقنه في يده وعلى وجهه تقطيبة.

ثم قال: «مانسوس، لنفترض أن ثمَّة ثلاثة أشخاص هنا، لكسمان، والمرابي، وشاهد عِيان ثالثًا. ولنفترض أن هذا الشخص الثالث، لسببٍ غيرِ معلوم، كان منتبِهًا لما كان يدور بين الرجلين وأراد أن يشاهدهما دون أن يلاحظه أحدٌ. أليس من المحتمل، لو كان قد دبَّر لهذا اللقاء، كما أظن، أنه قد اختار هذا المكان؛ لأن هذا السياج تحديدًا منحه الفرصةَ للمشاهدة دون أن يراه أحد؟»

أخذ مانسوس يفكِّر في الأمر.

وقال بعد صمتٍ طويل: «كان بإمكانه أن يرى جيدًا من أيٍّ من الأسيجة الأخرى مع احتمالاتٍ أقلَّ لافتضاح أمره.»

ابتسم تي إكس.

وقال في إعجاب: «إنك تملك مقومات العبقرية.» وتابع: «أتفق معك. تذكَّر ذلك دائمًا، يا مانسوس. تذكَّر أن مرة في حياتك كان تي إكس ميرديث وأنت متفقَين في التفكير.»

ابتسم مانسوس ابتسامةً باهتةً قليلًا.

«بالطبع كان هذا، من وجهة نظر المراقب، أسوأ مكان ممكن؛ لذا فإن الشخص الذي جاء إلى هنا — إن كان قد جاء هنا — وأيًّا كانت هويته، وأوقع طلقات المسدس، لا بد أنه قد تخيَّر هذا الموضع لسهولة بلوغه من اتجاه آخر. من الواضح

أنه لم يستطِع النزول إلى الطريق والصعود دون أن يجذب انتباه اليوناني الذي كان في انتظار السيد لكسمان. قد نفترض أن ثمَّة بوابةً على مسافةٍ أبعدَ عَبْر الطريق، ويمكن أن نفترض أنه قد دخل من هذه البوابة، ووصل إلى الحقل من جانب السياج وفي مكانٍ ما بين هذا الموضع والبوابة، ألقى سيجاره.»

قال مانسوس في دهشة: «سيجاره!»

قال تي إكس مكررًا: «سيجاره، ولو كان بمفرده، لاحتفظ بسيجاره مشتعلًا حتى اللحظة الأخيرة.»

قال مانسوس: «ربما ألقاه على الطريق.»

قال تي إكس: «كُفَّ عن هذا الهراء»، وتقدَّمه بمحاذاة السياج. استطاعا من الموضع الذي وقفا فيه أن يريا البوابة المؤدية إلى الطريق على بُعد نحو مائة ياردة. وفي نطاق اثنتي عشرة ياردة من تلك البوابة، وجد تي إكس ما كان يبحث عنه؛ سيجارًا دُخِّن حتى نصفه. كان مبللًا بفعل الأمطار والتقطه برفق.

قال: «إن كانت لي نظرة، فهذا سيجار من نوع جيد، قُطِع بمطواة، ودُخِّن بواسطة حامل.»

وصلا إلى البوابة ومرَّا عَبْرها. وهنا صارا على الطريق مجددًا، وسلكاه حتى بلغا تقاطعًا آخرَ ينعطف يسارًا في اتجاه الجنوب إلى طريق إيستبورن الجديد بينما يواجه غربًا خطَّ السكة الحديدية الذي يربط بين لويس وإيستبورن من الخلف. كانت الأمطار قد طمست الكثير مما كان تي إكس يبحث عنه، ولكنه بعد قليل وجد أثرًا باهتًا لعجلة سيارة.

قال: «هذا هو المكان الذي استدارت منه السيارة وعادت إلى الوراء»، وسار بخطًى بطيئة إلى الطريق الواقع على الجهة اليسرى وأردف قائلًا: «وهذا هو الموضع الذي وقفت فيه. ها هو الزيتُ الذي سال من محرِّكها.»

انحنى تي إكس وتقدَّم إلى الأمام بحركة راقص روسي، وتابع قائلًا: «وها هي أعواد الثقاب الشمعية التي أشعلها السائق»، وأخذ يَعُدها: «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، إذا افترضنا أن كل سيجارة أشعلت بثلاثة أعواد بالنظر لليلة عاصفة كالليلة الماضية، فهذا يعني ثلاث سجائر. ها هو عُقْب سيجارة يا مانسوس، من نوع «جولد فليك»»، ثم قال وهو يتفحصها بدقة: «والسيجارة الواحدة الجولد فليك تستغرق في تدخينها اثنتي عشرة دقيقة في الطقس العادي، بينما تستغرق ثماني دقائق في الطقس العاصف. كانت ثمَّة سيارة توقفت هنا قرابة اثنتي عشرة دقيقة ... ما رأيك في ذلك يا مانسوس؟»

قال الآخر بهدوء: «استدلال منطقي جيد، إن حدث وكانت تلك هي السيارة التي نبحث عنها.»

قال تي إكس: «أنا أبحث عن أي سيارة قديمة.»

لم يجد أيَّ أثرٍ آخرَ لعجلات سيارة رغم أنه تتبَّع الحارة الصغيرة بدقةٍ حتى بلغت الطريق الرئيسي. وبعد ذلك أصبح البحث ميئوسًا منه؛ نظرًا لتساقط الأمطار خلال الليل والساعات الأولى من الصباح. وفي اللحظات الأخيرة اصطحب مساعده إلى محطة السكة الحديدية للحاق بقطار الساعة الواحدة المتجه إلى لندن.

قال: «سوف تتجه مباشرة إلى كادوجان سكوير وتلقي القبض على سائق السيد كارا.»

تساءل مانسوس في تعجُّل: «بأي تهمة؟»

حين كان الأمر يتعلق بالخطوة التي ارتأها تي إكس ملائمة لمباشرة مهمته، كان مانسوس يتجاوز حدود الدهشة.

قال تي إكس بلا مبالاةٍ مدهشة: «يمكنك اتهامُه بأيِّ شيء تشاء، لربما يخطر ببالك شيء مناسب في طريقك إلى المدينة. في الواقع، لقد استُدعي السائق فجأة إلى اليونان وربما يكون قد غادر على متن القطار المغادر هذا الصباح إلى أوروبا. إذا

كان الأمر كذلك، فلا يمكننا فعلُ شيء؛ لأن السفينة ستكون قد أبحرت من دوفر وأنزلته في بولون، ولكن إذا حالفك أيُّ قدْر من الحظ ولحقته، اشغله لحين عودتي.»

كان تي إكس نفسه مشغولًا في ذلك اليوم، ولم يَعُد إلى بيستون تريسي مرةً أخرى قبل حلول الليل ليجد في انتظاره برقية. فتحها وقرأها:

السائق يُدعى جول. كان فيما مضى نادلًا في ملهًى إنجليزي بالقسطنطينية. لقد غادر إلى الشرق على متن القطار المغادر اليوم في الصباح الباكر لمرض والدته.

قال تي إكس بنبرة ازدراء: «مرض والدته، يا لها من حجَّة واهية! كنت أظن أن كارا يمكنه اختلاق حجَّة أفضل من تلك.»

كان في غرفة مكتب جون لكسمان حين فُتح الباب وقالت الخادمة: «السيد رمينجتون كارا.»

الفصل الرابع

طوى تي إكس البرقية بعناية شديدة ودسَّها في جيب معطفه.

حيا الوافد الجديد بانحناءة بسيطة، وأخذ على عاتقه مهمَّة الترحيب بالضيوف في المنزل، ودفع كرسيًّا لضيفه.

قال كارا بهدوء: «أظنك تعرف اسمي.» وتابع: «أنا صديق للكسمان المسكين.»

قال تي إكس: «أخبروني بذلك، ولكن لا تدَعْ صداقتك للكسمان تمنعك من الجلوس.»

ظل اليوناني متحيرًا للحظة، ثم بابتسامةٍ خفيفة وانحناءة، جلس بجوار طاولة الكتابة.

وتابع حديثه قائلًا: «أنا في غاية الانزعاج والحزن لما حدث، وما يزيد من فجيعتي شعوري على نحوٍ ما بالمسئولية تجاهه؛ لأنني من عرَّفت لكسمان بهذا الرجل التعيس الحظ.»

قال تي إكس وهو يسند ظهره في مقعده وينظر إلى وجه الآخرِ بنظرةٍ جمعت ما بين الشك والجدية: «لو كنت مكانك، لما سمحت لتلك الحقيقة بأن تقضَّ مضجعي ليلًا. فمعظم الناس يُقتَلون نتيجةً لتعارفٍ ما. نادرة تمامًا هي القضايا التي يقتل فيها الناسُ أشخاصًا غرباءَ عنهم تمامًا. وأظن أن ذلك يعود إلى التعصب الذي يشكِّل شخصيتنا القومية.»

مرة أخرى انتاب الآخرَ شعورٌ بالدهشة والحيرة إزاء صفاقة الرجل الذي توقّع منه أن يكون أسلوبه رسميًّا على أقل تقدير.

تساءل تي إكس بلطف: «متى كانت آخر مرة رأيتَ فيها السيد فاسالارو؟»

رفع كارا عينيه كأنما يفكِّر.

«أعتقد أنها كانت منذ نحو أسبوع.»

قال تي إكس: «فكِّر ثانية.»

اندهش اليوناني برهةً ثم عاد إلى استرخائه مبتسمًا.

استهل الحديث قائلًا: «معذرة.»

قال تي إكس: «لا عليك بشأن ذلك، ولكن دعني أسألك هذا السؤال. لقد كنتَ هنا الليلة الماضية حين تلقَّى لكسمان خطابًا.» ثم قال حين رأى الآخر مترددًا: «ثمَّة أدلةٌ دامغة على أنه قد تلقَّى خطابًا؛ لأن لدينا أقوالَ الخادمة وساعي البريد التي تدعم ذلك.»

قال الآخر متروِّيًا: «لقد كنتُ هنا وكنتُ حاضرًا بالفعل حين تلقَّى لكسمان خطابًا.»

أومأ تي إكس.

قال مقترحًا: «أظنه خطابًا كُتب على ورقٍ مائلٍ إلى اللون البني وذا حجم كبير بعض الشيء.»

مجددًا خيَّم عليه ذلك التردد اللحظي.

ثم قال: «لا أستطيع الجزم بلون الورق أو حجم الخطاب.»

قال تي إكس مقترحًا: «أظنك تستطيع الجزم بذلك؛ لأنك حرقت المظروف كما تعلم، وأفترض أنك كنت ستلاحظ ذلك.»

قال الآخرُ بهدوء: «لا أذكر أنني قد حرقتُ أيَّ مظروف.»

أردف تي إكس قائلًا: «لا عليك، حين قرأ عليك السيد لكسمان هذا الخطاب ...»

قال الآخرُ رافعًا حاجبيه: «أيَّ خطاب تقصد؟»

كرَّر تي إكس في صبر: «السيد لكسمان تلقَّى خطاب تهديد، والذي قرأه عليك، وكان موجهًا إليه من فاسالارو. وقد أعطاك هذا الخطاب وقرأته أنت أيضًا. ثم وضع السيد لكسمان الخطاب، بمعرفتك، في خزنته، في درج فولاذي.»

هزَّ الآخرُ رأسه بابتسامة رقيقة.

قال بنبرةٍ شبهِ اعتذارية: «أخشى أنك قد ارتكبت خطأً فادحًا، ومع أني أذكر واقعة تلقيه خطابًا، فإنني لم أقرأه، ولم يُقرأ لي أيضًا.»

ضاقت عينا تي إكس بشدة وصار صوته رنانًا وحادًّا.

«وإذا وضعتك على كرسي الشهادة، فهل ستُقسِم أنك لم ترَ الخطاب، ولم تقرأه، ولم يُقرأ عليك، وأنك ليس لديك علمٌ بتلقي السيد لكسمان خطابًا كهذا؟»

قال الآخرُ بنبرة هادئة: «بكل تأكيد.»

«هل ستُقسِم أنك لم ترَ فاسالارو منذ أسبوع؟»

قال اليوناني مبتسمًا: «بالتأكيد.»

قال تي إكس في إصرار: «هل ستُقسِم أنك لم ترَه الليلة الماضية في الواقع، وتحدثتَ معه على رصيف محطة القطار في لويس، وأنك واصلت طريقك متجهًا إلى لندن بعد أن تركته، ثم استدرتَ بسيارتك وعُدتَ إلى حي بيستون تريسي؟»

شحب وجه اليوناني حتى شفتيه، ولكن لم تختلج عضلة فيه.

تابع تي إكس بعنادٍ لم يَلِنْ: «هل ستُقسِم أيضًا أنك لم تقف على ناصيةِ ما يُعرف بساحة مايتر وعاودتَ الدخول من إحدى البوابات إلى الجانب حيث كانت سيارتك متوقفة، وأنك لم ترَ المأساة كاملة؟»

رد كارا: «أقسِم على ذلك»، وكان صوته متوترًا ومتحشرجًا.

«هل ستُقسِم أيضًا على ساعة وصولك إلى لندن؟»

قال اليوناني: «في وقتٍ ما بين الساعة العاشرة أو الحادية عشرة.»

ابتسم تي إكس.

«هل ستُقسِم أنك لم تَعبُر جيلفورد في الثانية عشرة والنصف لتزويد سيارتك بالوقود؟»

تمالك اليوناني نفسه في تلك اللحظة ونهض.

«أنت رجل شديد الذكاء يا سيد ميرديث ... ذاك اسمك على ما أظن؟»

قال تي إكس بهدوء: «ذاك اسمي.» وتابع: «لم يكن لي حاجةٌ بتغييره كثيرًا كلما اقتضت الضرورة مثلك.»

رأى الشَّرر يتطاير من عينَي الآخر وعرف أن رصاصته قد أصابت الهدف.

قال كارا: «معذرة، ولكن عليَّ أن أذهب.» وأضاف: «لقد جئتُ إلى هنا لمقابلة السيدة لكسمان، ولم يكن لدي أدنى فكرة أنني سأقابل شرطيًا.»

قال تي إكس وهو ينهض من مكانه ويشعل سيجارة: «عزيزي السيد كارا، سوف تمضي في حياتك تحاول اجتياز تلك التجربة البائسة.»

«ماذا تعني؟»

«أعني ما قلتُه بالضبط. سوف تتوقَّع دائمًا أن تقابل شخصًا ما، وتقابل آخرَ، وما لم يكن الحظ حليفَك حقًّا، فسوف يكون هذا الآخرُ دومًا شرطيًّا.»

لمعت عيناه؛ إذ تعافى من ثورة الغضب التي اجتاحته.

ثم قال: «ثمَّة دليلان أحتاج إليهما لإنقاذ السيد لكسمان من مأزقٍ في غاية الخطورة، أولهما هو الخطابُ الذي حُرق كما تعلم.»

قال كارا: «أجل.»

مال تي إكس عبر المكتب.

ثم قال فجأة: «كيف عرفت؟»

«أخبرني شخصٌ ما، لا أعرف مَن هو.»

رد تي إكس: «هذا ليس صحيحًا، لا أحد يعرف هذا إلا أنا والسيدة لكسمان.»

قال كارا وهو يرتدي قفازيه: «ولكن يا عزيزي، لقد سألتني بالفعل عمَّا إذا كنت لم أحرق الخطاب.»

قال تي إكس بضحكةٍ خفيفة: «لقد قلتُ المظروف.»

«وكنت على وشك أن تقول شيئًا بشأن الدليل الآخر، أليس كذلك؟»

قال تي إكس: «الدليل الآخر هو المسدس.»

قال اليوناني بتثاقل: «مسدس السيد لكسمان!»

قال تي إكس باقتضاب: «إنه بحوزتنا.» وأضاف: «ما نريده هو السلاح الذي كان بحوزة اليوناني حين كان يهدِّد السيد لكسمان.»

«حسنًا، يؤسفني أنني لا أستطيع مساعدتك في ذلك.»

اتَّجه كارا نحو الباب وتَبِعه تي إكس.

«أعتقد أنني سأقابل السيدة لكسمان.»

قال تي إكس: «لا أعتقد ذلك.»

التفت الآخرُ بنظرة ساخرة.

ثم تساءل: «هل ألقيت القبض عليها هي الأخرى؟»

قال تي إكس بصوتٍ أجش: «تمالك أعصابك!» ورافق كارا إلى سيارته الليموزين الواقفة بانتظاره.

وقال: «أرى أنك قد أحضرت سائقًا جديدًا الليلة.»

دلف كارا وهو مستشيط غضبًا إلى السيارة في تأنُّق.

قال تي إكس: «إذا كنت تراسل الآخر، فأبلغه تحياتي واستفسِر عن صحة والدته. هذا مطلب خاص مني.»

لم يقل كارا شيئًا حتى ابتعدت السيارة عن مرمى السمع، ثم اتكأ على الوسائد الصغيرة واستسلم لنوبةٍ من الغضب والسَّب.

الفصل الخامس

بعد مرور ستة أشهر كان تي إكس ميرديث يتتبَّع بجهدٍ جهيد خطًّا وجد صعوبةً في تحديده واتِّباعه ظهر على خريطةٍ لساسيكس صادرة عن هيئة المساحة حين دخل رئيس الشرطة معلنًا عن وصوله.

كان السير جورج يصف تي إكس بأنه مثال للمسئول الحكومي الحكيم الميَّال للإصلاح، ولم يكن يفوِّت فرصةً للقاء مرءوسه (على حد وصفه) لهذا السبب.

قال متذمرًا: «ماذا تفعل هناك؟»

قال تي إكس دون أن يرفع بصره عما بين يديه: «درس اليوم هو الخرائط.»

مرَّ السير جورج من وراء مساعده ونظر من فوق كتفه.

ثم قال: «تلك خريطة قديمة جدًّا.»

«إنها تعود إلى عام ١٨٧٦. إنها تبيِّن مسار عدد من الجداول المائية الصغيرة المثيرة في هذه المنطقة التي غابت عن ناظري ذلك السيد الذي أجرى المسح في فترةٍ لاحقة لسببٍ أو لآخر. أنا واثق تمامًا أنني سأجد ضالتي في واحد من هذه الجداول.»

«ألم تفقد الأمل بعدُ بشأن قضية لكسمان؟»

قال تي إكس: «لن أفقد الأمل أبدًا حتى أقضي نحبي، وربما لن أفقده حتى في ذلك الحين.»

«دعني أرَ، ما الحكم الذي حصل عليه؟ ... خمسة عشر عامًا!»

قال تي إكس مرددًا كلماته: «خمسة عشر عامًا، وكم كان محظوظًا إذ استطاع النجاة بحياته!»

اتَّجه السير جورج إلى النافذة وأخذ يحدِّق في مبنى وايت هول المزدحم.

«أخبروني أن المياه قد عادت إلى مجاريها بينك وبين كارا.»

أحدث تي إكس صوتًا ربما اعتُبر إشارةً إلى تأييده لما قيل.

قال السير جورج: «أظنك تعرف أن ذلك الرجل قد قام بمحاولةٍ جبارة لفصلك من الخدمة.»

قال تي إكس: «ينبغي ألا أتعجب.» وتابع: «فقد أقدمتُ على محاولةٍ جبارة مماثلة لإعدامه، وما جزاء العمل الطيب إلا مثله. ماذا فعل؟ قابل وزراءَ وأشخاصًا من ذوي النفوذ؟»

قال السير جورج: «نعم.»

رد تي إكس قائلًا: «إنه أحمق ساذج.»

استدار رئيس الشرطة ثم قال: «أستطيع أن أتفهَّم كلَّ ذلك، ولكن ما لا أستطيع فهمه هو اعتذارك له.»

قال تي إكس بنبرةٍ لاذعة حادة: «ثمَّة أشياءُ كثيرة جدًّا لا تفهمها، يا سير جورج، حتى إنني يئست من قدرتي على تعديدها.»

قال رئيسه متذمرًا: «أنت فتًى وقِحٌ عديم الأدب.» وأضاف: «تعالَ لنتناول الغداء.»

تساءل تي إكس في حذر: «إلى أين ستأخذني؟»

«إلى النادي الخاص بي.»

قال الآخرُ بتأدبٍ متقن: «آسف، لقد تناولت الغداء في ناديك ذات مرة. هل من داعٍ لقول المزيد؟»

واصل عمله بعد أن غادر رئيسه، وابتسم حين تذكَّر الدهشة الشديدة التي اعترت كارا وإحساس التشفي والمتعة الذي استمات لإخفائه.

كان كارا رجلًا متغطرسًا، لديه إدراك مبالغ بمدَى ما يحظى به من وسامة وثراء. كان تصرُّفه رائعًا إلى أقصى حد؛ إذ لم يقبل الاعتذار فحسب، بل لم يترك شيئًا في وُسْعه إلا وفعله لخلق انطباع جيد لدى الرجل الذي أهانه إهانةً صارخة.

قَبِل تي إكس دعوةً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع لدى كارا في «منزله المتواضع في الريف»، وهناك وجد كل شيء يمكن للقلب أن يبتغيه مُجتمِعًا، فيما يتعلَّق بالرفقة؛ إذ ضمَّت سياسيين بارزين ربما يمكن أن يكونوا ذوي نفعٍ لمساعد شرطة شاب ذي طموحات وتطلعات، وسيدات جميلات للعناية به وإمتاعه. بل بلغ الأمر بكارا أن استعان بشركةٍ مسرحيةٍ لتمثيل مسرحية «لافندر الجميلة»، وفي سبيل ذلك تحوَّلت قاعة الرقص الكبيرة في هيفر كورت إلى مسرح.

وبينما كان يخلع ثيابه للخلود إلى النوم في تلك الليلة، تذكَّر تي إكس أنه قد ذكر لكارا أن «لافندر الجميلة» هي مسرحيته المفضَّلة، وأدرك أن هذا الاحتفاء قد أُقيم من أجله.

سعى كارا بطرقٍ عديدةٍ أخرى إلى تعزيز أواصر هذه الصداقة. فقدَّم لمفوَّض الشرطة الشاب نصيحةً تتعلَّق بشركةٍ للسكك الحديدية تعمل في آسيا الصغرى، والتي كانت أسهمها أقلَّ من القيمة الاسمية لها بقليل. شكره تي إكس على النصيحة، ولم يعمل بها، ولم يشعر بأي ندم حين ارتفعت الأسهم ثلاثة جنيهات في غضون عدة أسابيع.

تولَّى تي إكس الإشرافَ على عملية التصرُّف في أصول منزل بيستون بريوري. فقام بنقل الأثاث إلى لندن، واستأجر لجريس لكسمان شقةً.

كان دخلها الخاص محدودًا، وساهم هذا الدخل، إضافةَ إلى المبالغ المتزايدة التي أدرَّتها عليها عوائدُ حقوق التأليف نتيجةً لذيوعِ أمرِ القضية (وهو الأمر الذي كانت تدركه بمرارة شديدة) في إبعاد شبح الخوف من العوز عنها.

تمتم تي إكس وهو يعمل ويُصفر: «خمسة عشر عامًا.»

لم يكن لدى جون لكسمان أيُّ أمل منذ البداية. فقد كان مدينًا للرجل المتَّهم بقتله. وما رواه عن خطاب التهديد لم يكن له ما يدعمه. والمسدس الذي قال إنه أُشهر في وجهه لم يُعثر عليه قط. كان ثمَّة شخصان لديهما ثقةٌ مطلقة في صدْق هذه القصة، وأكَّد وزير الداخلية، الذي كان متعاطفًا مع القضية، شخصيًّا لتي إكس أنه إذا استطاع العثور على المسدس وربطه بالقضية ربطًا لا يدَع مجالًا للشك، فسوف يُعفَى عن جون لكسمان.

فُتِّش كل جدول مائي في المنطقة. وفي إحدى المرات كان هناك نهر صغير محاط بسدٍّ، وجُفِّف القاع جيدًا ومُحِّص بدقة، ولكن لم يُعثر على أثر للسلاح، وجرَّب تي إكس طُرقًا أكثرَ فعالية وأقلَّ مشروعية بالطبع.

لقد جاء كهربائي غامض إلى منزل كارا الكائن في ٤٥٦ كادوجان سكوير في غيابه، وكان مسلَّحًا بسلطةٍ لا تقبل الجدل، حتى إنه قد سُمِح له باقتحام حجرة كارا الخاصة، من أجل فحص بعض التركيبات الكهربائية.

لم يفكِّر كارا كثيرًا في الأمر حين علم به عند عودته في اليوم التالي، إلى أن اتَّجه إلى خزنته في تلك الليلة واكتشف أنها قد فُتحت وفُتِّشت تفتيشًا دقيقًا.

تصادف أن كان معظم مقتنيات كارا الثمينة والسريَّة في البنك. وإثرَ نوبةِ ذعرٍ انتابته، وبتكلِفة باهظة، أزال الخزنة ووضع أخرى مكانها ذاتَ قوة فولاذية، حتى إن صانعيها قدَّموا له ضمانًا ضد أي خسائر قد تنجم عن تعرضها للسطو.

أنهى تي إكس عمله، وغسل يديه، وكان بصدد تجفيفهما حين اقتحم مانسوس الغرفة. لم يكن من عادة مانسوس اقتحام أي مكان. فقد كان رجلًا بطيء الخطى،

ومنظّمًا ودقيقًا، وله أسلوبٌ متروٍّ وذو طابع رسمي.

سارع تي إكس يسأله: «ما الأمر؟»

صاح مانسوس لاهثًا: «نحن لم نفتِّش مسكن فاسالارو.» وأردف: «خطر لي ذلك وأنا أعبُر جسرَ ويستمينستر. كنت أعتلي إحدى الحافلات ...»

قال تي إكس: «استيقظ!» وتابع: «تحدَّث بحريَّة واقتطع قصة «الحافلة» تلك. لقد فتشنا مسكن فاسالارو بالطبع!»

قال الآخرُ بنبرة المنتصر: «لا لم نفعل يا سيدي.» وأضاف: «لقد كان يقطن في شارع جريت جيمس.»

قال تي إكس مصححًا: «بل كان يعيش في أديلفي.»

قال مانسوس: «كان له مسكنان.»

تساءل رئيسه وقد تخلَّى عن صفاقته: «متى علِمت بهذا؟»

«صباح اليوم. كنت أستقل حافلةً تعبُر جسر ويستمينستر، وكان أمامي رجلان وسمعت كلمة «فاسالارو»، وبطبيعة الحال أطرقت السمع.»

قال تي إكس: «لم يكن هذا طبيعيًّا تمامًا، ولكن أكمِل.»

«قال أحد الرجلين، وكان شخصًا يبدو غايةً في الاحترام: «لقد كان ذلك المدعو فاسالارو يسكن في منزلي، ولا يزال لدي الكثير من متعلقاته. تُرى ماذا يجب أن أفعل؟»»

قال الآخر مقترحًا: «وأخبرته بما يفعل.»

قال مانسوس: «لقد جعلت بدنه يقشعر من الرعب.» وأضاف: «فقد قلت له: «أنا ضابط شرطة وأريدك أن تأتي معي».»

قال تي إكس: «وبالطبع لزم الصمت ولم ينطق بكلمة أخرى.»

قال مانسوس: «هذا صحيح، يا سيدي، ولكني بعد فترة دفعته إلى التحدُّث. كان فاسالارو يقطن في شارع جريت جيمس، بناية رقم ٦٠٤، في الطابق الثالث. في الواقع، بعضٌ من أثاثه لا يزال هناك. لا بد أنه كان لديه سببٌ مقنع لأن يكون له عنوانان بكل المقاييس.»

أومأ تي إكس في تروٍّ.

سأله: «ماذا كان اسمها؟»

قال الآخر: «لقد كان له زوجة، ولكنها تركته قبل مقتله بنحو أربعة أشهر. كان يستخدم عنوان أديلفي لأغراض العمل، ويبدو أنه كان يبيت ليلتين أو ثلاث ليالٍ في الأسبوع في شارع جريت جيمس. لقد أخبرت الرجل بأن يترك كل شيء على حاله، وسوف نحضر إليه.»

بعد عشْر دقائق كان الضابطان في الشقة الكئيبة التي كان يقطنها فاسالارو.

أوضح صاحب المنزل أن معظم الأثاث كان مِلكًا له، ولكنَّ ثمَّة أغراضًا كانت مملوكة للقتيل. وأضاف، بلا داعٍ، أن المستأجر الراحل كان مدينًا له بإيجار ستة أشهر.

كانت الأغراض المملوكة لفاسالارو تضم صندوقًا من القصدير، وطاولةَ كتابة صغيرة، وخزانة كتب، وبعض الملابس. كانت الخزانة مغلقة، وكذلك طاولة الكتابة. أما الصندوق القصديري، الذي لم يكن يحوي شيئًا ذا أهمية، فكان مفتوحًا.

لم يكن الغرضان المغلقان الآخران يستحقان الكثير من الاهتمام. وقد تمكَّن مانسوس من فتحهما بلا أي صعوبة تُذكر. كانت درفة المكتب، حين تدلَّت، تشكِّل منضدة الكتابة، وبالداخل وُجدت مجموعةٌ كاملة مكدَّسة من خطاباتٍ مفتوحة وأخرى لم تُفتَح، وكشوف حسابات، ودفاتر، وكل الأدوات والمستلزمات التي يمكن أن تتراكم لدى رجلٍ يفتقر إلى التنظيم.

تفحَّص تي إكس مجموعةَ الخطابات كاملة، خطابًا خطابًا، دون أن يجد أيَّ شيء ذا نفع له. بعدها لفت نظره علبةٌ صغيرة من القصدير محشورة في الكَوَّات المستطيلة الموجودة خلف المكتب. جذب هذه العلبةَ وفتحها ووجد بداخلها لفيفةً من الأوراق ملفوفة في ورق قصدير.

قال تي إكس: «مرحى، مرحى!» وكان معذورًا فيما انتابه من نشوة وبهجة.

الفصل السادس

وقف رجل في الباحة الناصعة النظافة أمام مقر المأمور في سجن دارتمور. كان يرتدي زي الخزي القبيح الذي يميِّز المدانين. كان شَعره قصيرًا، وكان وجهه الهزيل يكتسي بلحية خفيفة. كان واقفًا ويداه خلفَه، ينتظر تلك اللحظةَ التي سيُكلَّف فيها بعمله.

نظر جون لكسمان — السجين رقم إيه أوه ٤٣ — إلى السماء الزرقاء عاليًا كما كان ينظر مراتٍ عديدة من ساحة التريُّض، وتساءل ماذا يحمل له اليوم. كان النهار بالنسبة إليه هو البداية والنهاية لأمدٍ سرمدي. لم يكن يجرؤ على ترْك عقله للتفكير في السنوات الطوال الأليمة القادمة. لم يكن يجرؤ على التفكير في المرأة التي تركها خلفه، أو يسمح لعقله بالاستغراق في التفكير في العذاب الذي كانت تتكبَّده. لقد اختفى من العالم، العالم الذي أحبه، والعالم الذي عرفه، وكل ما كان موجودًا في حياته، كل شيء ذي قيمة وجدير بالاهتمام تحطَّم وطُمس أثرُه في الأحجار الجرانيتية لمحاجر برنستاون، وتقلَّص أفقه العريض بفعل الأرض المستنقعية الكالحة بآكامها الخطرة.

صارت هناك اهتمامات جديدة تشكِّل وجوده. كان من أحد هذه الاهتمامات جودةُ الطعام. وكان من بينها أيضًا طبيعةُ الكتاب الذي سيحصل عليه من مكتبة السجن. كان المستقبل بالنسبة إليه يعني قُدَّاس الأحد، وكان الحاضر هو أي مهمة يجدونها له. في ذلك اليوم كان مقررًا له أن يطلي بعض الأبواب والنوافذ لكوخٍ ناءٍ. كان هذا الكوخ يشغله حارسُ سجن، كان قد تحدَّث معه في اليوم السابق، لسببٍ ما، بعطف واحترام لم يكونا معتادَيْن بالنسبة إليه.

صاح صوتٌ هادر يقول: «أدرْ وجهك إلى الحائط»، فاستدار تلقائيًّا، ولم تزل يداه خلفه، ووقف يحدِّق في الحائط الرمادي لمخزن السجن.

سمع صوتَ جرجرة أقدام مسجوني المحجر، والتقطت أذناه صلصلة السلاسل التي كانت تكبِّلهم معًا. كانوا رجالًا شنيعين، يثيرون اهتمامه على نحوٍ غريب، وكان يراقب وجوههم خلسةً في بداية فترة سجنه.

كان قد أُرسِل إلى دارتمور بعد ثلاثة أشهر قضاها في وورموود سكرابس. أخبره السجناء القدامى هناك على نحوٍ متباين أنه كان محظوظًا أو تعيس الحظ. كان المعمول به أن يقضي السجين اثني عشر شهرًا في سكرابس قبل اختبار الحياة في أي سجن. كان يعتقد أنه كان ثمَّة حديث حول إرساله إلى باركهرست، وهنا استشف النفوذ الذي سيمارسه تي إكس؛ إذ كانت باركهرست بمنزلة جنة المسجونين.

سمع صوت حارسه من خلفه.

«يمينًا دُر، يا سجين ٤٣، وسريعًا سِر.»

سار متقدمًا الحارس المسلَّح عَبْر بوابات السجن الكبيرة الكئيبة، واستدار بحركةٍ حادة إلى اليمين، وصعد إلى الشارع الريفي في اتجاه المستنقعات، الواقعة خلف قرية برنستاون، وعلى طريق تافيستوك حيث يقع كوخان أو ثلاثة أكواخ شغلها مؤخرًا موظفو السجن، وأُرسل السجين إيه أوه ٤٣ لطلاء أحدها.

كان المنزل لم يزل بلا سكان بعد.

كان يوجد سجين يعمل في لصق ورق الحائط في عهدة حارسٍ آخرَ في انتظار وصول السجين عامل الطلاء. تبادل الحارسان التحية، وانصرف الأول تاركًا كلا السجينين في عهدة الحارس الآخر.

ظلا يعملان في صمت على مدى ساعة تحت عينَي الحارس. وبعد قليل خرج الحارس وأُتيحت الفرصة لجون لكسمان لإلقاء نظرة فاحصة على رفيقه في

المعاناة.

كان رجلًا في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين، وكان رشيقًا خفيف الحركة. لم يكن في مظهره أيُّ قبح؛ ومن ثم افتقر إلى ذلك الإيحاء الغامض بالبهيمية الذي كان يميِّز السواد الأعظم من سكان دارتمور.

انتظرا حتى سمعا خطوات الحارس تبتعد عَبْر الممر، ولم يتكلم الرجل الآخر حتى وطئ حذاؤه الطويل ذو النعل الحديدي على الممر المرصوف المؤدي من الباب إلى الطريق عبر الحديقة الصغيرة.

سأله بصوت خفيض: «فيمَ جئت إلى هنا؟»

أجاب جون لكسمان باقتضاب: «جريمة قتل.»

كان قد أجاب عن السؤال من قبل، ولاحظ بشيءٍ من التندُّر نظرةَ الاحترام التي تظهر في عينَي السائل.

«وما الحكم الذي حصلت عليه؟»

قال الآخر: «خمسة عشر عامًا.»

قال الأول: «هذا يعني أحد عشر عامًا وتسعة أشهر.» ثم أضاف: «أظنك لم تأتِ إلى هنا من قبلُ قط، أليس كذلك؟»

قال لكسمان بجفاء: «إطلاقًا.»

قال لاصق ورق الحائط معترفًا: «أنا هنا منذ كنتُ طفلًا.» وتابع: «سوف أخرج الأسبوع القادم.»

نظر إليه جون لكسمان نظرةَ حسد. لو كان الرجل قد أخبره أنه ورث ثروةً ضخمة ولقبًا أضخم، لما كان شعوره بالحسد حقيقيًّا هكذا.

الخروج!

كان هذا يعني الذهاب إلى المحطة في عربةٍ خفيفةٍ بحصانين، والركوب إلى لندن بثيابٍ مُغضَّنة لكنها مريحة في الوقت ذاته، منطلقًا كنسيم الهواء، له مطلق الحرية في النوم والاستيقاظ وقتما يحلو له، واختيار عشائه بنفسه، وعدم الاستجابة لأي نداء سوى نداء ضميره، ورؤية ... وعند هذا الحد كبح خيالاته.

ثم تساءل بنبرة دفاعية: «ماذا جاء بك إلى هنا؟»

قال الآخر بابتهاج: «التواطؤ والاحتيال.» وأردف: «زجَّت بي امرأة في السجن بعد أن هرب ثلاثة منا بعد الاستيلاء على ١٢ ألف جنيه. تبًّا للحظ التعس، أليس كذلك؟»

أومأ جون.

فكَّر في نفسه كم كان غريبًا مدى التعاطف الذي ينمو داخل المرء تجاه تلك العناصر الإجرامية. فيجد المرء نفسه تلقائيًّا يتبنَّى وجهة نظرهم، ويرى الحياة برؤيتهم المشوَّهة.

تابع السجين قائلًا: «أنا واثق من أنني لن يُوشى بي في العملية القادمة.» وأضاف: «لقد واتتني واحدة من أعظم الأفكار التي واتتني على الإطلاق، ولديَّ رجلٌ شهم بحق سيساعدني.»

سأله جون في دهشة: «كيف؟»

حرَّك الرجل رأسه في اتجاه السجن.

ثم قال باقتضاب: «لاري جرين.» وأضاف: «سوف يُطلَق سراحه الشهر القادم أيضًا، وقد رتَّبنا كل شيء كما ينبغي. سنحصل على الغنيمة ثم نهرب إلى أمريكا الجنوبية بأقصى سرعة، ولن ترانا حتى نصير ترابًا.»

على الرغم من أنه قد استخدم جميع التعابير العامية الدارجة، فقد كانت نبرته نبرةَ رجل على قدْر من التعليم والثقافة، ومع ذلك كان في خطابه شيء أخبر جون

بالقدْر نفسه من الوضوح، كأن الرجل قد أفشى الكثير، بأنه لم يحظَ بأي مكانة اجتماعية في الحياة.

أعادتهما خطوات الحارس على الأحجار بالخارج إلى الصمت مجددًا. وفجأة جاء صوته عَبْر السُّلم.

نادى بحدة: «ثلاثة وأربعين. أريدك هنا بالأسفل.»

أخذ جون وعاء وفرشاة الطلاء ونزل مجرجرًا قدميه على السلالم التي لم يكن يفترشها أيُّ شيء.

سأله الحارس بصوت خفيض: «أين الرجل الآخر؟»

«إنه بالأعلى في الغرفة الخلفية.»

خرج الحارس من الباب وأخذ ينظر يَمنةً ويَسرة. كانت ثمَّة سيارةٌ كبيرة رمادية اللون قادمة من برنستاون.

ثم قال له: «أنزِل وعاء الطلاء على الأرض.»

كان في صوته رِعشةٌ من فرط الإثارة.

«سوف أصعد إلى أعلى. وحين تتوقَّف تلك السيارة أمام البوابة، لا تسأل أيَّ أسئلة واقفز بداخلها سريعًا. انزل إلى قاع السيارة وضعْ عليك جوالًا، ولا تنهض حتى تتوقف السيارة.»

تدفَّق الدم إلى رأس لكسمان، وأخذ يترنح.

همس قائلًا: «يا إلهي!»

قال الحارس بهمسٍ عالٍ: «افعل ما أقوله لك.»

وضع جون فرشاته تلقائيًّا كأنما قد تحوَّل إلى إنسان آلي، وسار ببطء نحو البوابة. كانت السيارة الرمادية تصعد التل ببطء، وكان نصف وجه قائدها متواريًا

بقناعٍ مطاطي كبير. لم يستطِع جون عَبْر نظارته الكبيرة رؤية الكثير من ملامح الرجل بما قد يُعينه على التعرُّف عليه. وحين وصلت السيارة أمام البوابة، قفز داخل المقعد الخلفي وعلى الفور نزل إلى القاع. وفي تلك الأثناء شعر بالسيارة من تحته تقفز إلى الأمام. كانت السيارة في تلك اللحظة تسير سريعًا، ثم ازدادَت سرعتها، ثم أخذت ترتجُّ وتتمايل مع ازدياد سرعتها. شعر بها تندفع سريعًا إلى أسفلِ تلٍّ، ثم تصعد تلًّا، وفي لحظة ما سمع قعقعةً جوفاء بينما كانت تجتاز جسرًا خشبيًّا.

لم يتمكَّن من مكمنه أن يكتشف الاتجاه الذي يسلكانه، ولكنه استشفَّ أنهما اتجها يسارًا، ومتجهان إلى أحد الأجزاء الأكثر قفرًا من المستنقع. لم يشعر للحظةٍ أن السيارة تُبطئ من سرعتها، إلى أن صدر صوتُ صريرٍ من المكابح وتوقَّفت فجأة.

خرج صوتٌ ما يقول: «اخرج.»

طرح جون لكسمان الغطاء عنه وقفز إلى الخارج، وفي تلك الأثناء استدارت السيارة وأسرعت عائدة من الطريق الذي جاءت منه.

ظنَّ للحظة أنه بمفرده، وأخذ يلتفت حوله. رأى في الأفق البعيد الهيكل الرمادي لسجن برنستاون. كان من قبيل المصادفة أن شاهد ذلك، ولكن تصادف أن سقط شعاعٌ من الشمس عليه بميلٍ وجعله واضحًا جدًّا.

كان وحيدًا في المستنقعات! إلى أين يمكن أن يذهب؟

والتفت إلى صوتٍ خلفَه.

كان يقف على منحدرِ ربوةٍ صغيرة. وعند السفح كان يوجد مرجٌ أخضرُ منبسط. كان أهل دارتمور يقيمون سباقات المهور خلال أشهُر الصيف على هذا المرج. ولكن لم يكن ثمَّة أثرٌ لأي خيول، لم يكن يوجد سوى آلة كبيرة تشبه الوطواط ذات أجنحة ممتدة إلى الخارج من قماشٍ أبيضَ مشدود، وبجوار هذه الآلة وقف رجلٌ متَّشحٌ من رأسه إلى أخمص قدميه ببذلةِ عملٍ بنية اللون.

هبط جون المنحدر منزلقًا. وعندما دنا من الآلة، توقّف وأصدر شهيقًا من المفاجأة.

قال: «كارا»، وابتسم الرجل المتشح باللون البني.

تساءل لكسمان حين استفاق من وقْع المفاجأة: «ولكني لا أفهم شيئًا. ماذا ستفعل؟!»

قال الآخر: «سآخذك إلى مكان آمن.»

قال لكسمان هامسًا: «ليس لدي مبرِّر يجعلني أشعر بالامتنان لك حتى الآن يا كارا.» وتابع: «فكلمةٌ منك كان يمكنها أن تنقذني.»

«لم أكن أستطيع الكذب يا عزيزي لكسمان. ولقد نسيت حقًّا أمرَ وجود الخطاب، إذا كان هذا ما تقصده، ولكني أحاول أن أفعل كلَّ ما بوسعي من أجلك ومن أجل زوجتك.»

«زوجتي!»

قال الآخر: «إنها في انتظارك.»

ثم أدار رأسه وأخذ ينصت.

جاء دويُّ بندقيةٍ كئيبٌ عَبْر المستنقع.

قال: «ليس لديك وقتٌ للجدال. لقد اكتشفوا هروبك. ادخل.»

صعد جون داخل الهيكل الرقيق للآلة وتَبِعه كارا.

قال: «هذه الآلة تبدأ الحركة ذاتيًّا، إنها واحدة من أحدث طرازات الطائرات الأحادية السطح.»

نقر على ذراعٍ ما، ودار الرفَّاص المروحي الكبير الثلاثي الأنصال محدِثًا صوتًا عاليًا.

تحرَّكت الطائرة إلى الأمام باهتزازة، وركضت بسرعة متزايدة لمسافة مائة ياردة، ثم فجأة توقَّف التقدُّم الاهتزازي. مالت الآلة بخفة من جانبٍ لآخر، وحين نظر راكبها إلى الأرض، رأى الأرض تنحسر وتتقلص من تحته.

راحا يصعدان إلى أعلى في طلعة واحدة طويلة ساحقة، مارَّين عَبْر سحب متدفقة حتى صارت الطائرة محلقة عاليًا كطائر فوق البحر الأزرق.

نظر جون لكسمان إلى أسفل. رأى تضاريس الساحل وتعرَّف على حواف المنازل البيضاء التي تشكِّل توركواي، ولكن في غضون فترة زمنية قصيرة للغاية كانت كل معالم الأرض قد طُمست.

كان الكلام مستحيلًا. فقد كان هدير المحركات عصيًّا على الاختراق.

كان واضحًا أن كارا طيارٌ ماهر. وكان من آنٍ لآخر يرجع إلى البوصلة على لوحة القيادة التي أمامه، ويغيِّر مساره على نحوٍ طفيف للغاية. بعد قليل رفع إحدى يديه عن عجلة القيادة، وكتب شيئًا على عُجالة على مجموعة صغيرة من الورق وُضِعت في جيبٍ في جانب المقعد ثم مرَّرها إليه.

قرأ جون لكسمان:

إذا كنتَ لا تجيد السباحة، يوجد حزام نجاة أسفل مقعدك.

أومأ جون.

كان كارا يجوب البحر بحثًا عن شيءٍ ما، ووجده بعد قليل. بدت الطائرةُ من الارتفاع الذي كانت تحلِّق منه مجرَّد نقطة بيضاء في صحنٍ أزرق كبير، ولكنها بعد قليل بدأت تنخفض، وهوت بسرعة رهيبة، حبست أنفاس الرجل الذي كان متشبثًا بكلتا يديه بالمقعد الخطر الذي كان يجلس عليه.

كان يشعر ببرودة شديدة، لكنه بالكاد لاحظ ذلك. كان الأمر برمَّته مستحيلَا ولا يصدَّق. كان يتوقَّع أنه سيستيقظ ويتساءل إن كان السجن أيضًا جزءًا من الحلم.

في تلك اللحظة أدرك الوجهة التي يقصدها كارا.

كان يوجد يخت بخاري أبيض طويل ومحدود العرض، يبحر ببطء في اتجاه الغرب. استطاع أن يرى آثار المَخْر الخفيفة التي تشبه الريش في مؤخرته، ومع هبوط الطائرة، كان لديه متسع من الوقت ليلاحظ أن ثمَّة قاربًا قد أُوقف. بعد ذلك هبطت الطائرة محدثةً اهتزازًا واستقرَّت على سطح الماء كطائر منزلق، وتوقَّفت محركاتها.

قال كارا: «من المفترض أننا نستطيع البقاءَ عائمَين على سطح المياه عشْر دقائق، وفي ذلك الوقت سوف يصطحبوننا.»

كان صوته مرتفعًا وحادًّا وسط الصمت شبه المطبق الذي أعقب توقُّف المحركات.

في خلال أقل من خمس دقائق كان القارب قد رسا بمحاذاتهما، وكان على متنه عمالٌ يونانيون، كما استشف لكسمان من نظرةٍ خاطفة لأفراد الطاقم. صعد على متن القارب بصعوبة وبعد خمس دقائق كان واقفًا على السطح الأبيض لليخت يراقب ذيل الطائرة وهو يختفي عن الأنظار. وكان كارا بجواره.

قال اليوناني مبتسمًا: «ها هي ألف وخمسمائة جنيه قد تبدَّدت، بالإضافة إلى الألفين اللتين دفعتهما للحارس، وبذلك أكون قد تكبَّدت مبلغًا ضخمًا، ولكن ثمَّة أشياء تستحق كل أموال الدنيا!»

الفصل السابع

وصل تي إكس من شارع داونينج في الحادية عشرة في إحدى الليالي، وكان قلبه مفعمًا بالفرح والعرفان.

كان يؤرجح عصاه على نحوٍ يعرِّض العامة للأذى، ولكن الشرطي الذي كان في مناوبة العمل في نهاية الشارع، والذي رآه، وتعرَّف عليه وحيَّاه، لم يعتقد أن من المناسب أن يصدر أي إنذار رسمي.

صعد درجات السُّلم ركضًا متوجهًا إلى مكتبه، ليجد مانسوس يقرأ الجريدة المسائية.

قال تي إكس: «أيها الأحمق المسكين، أخشى أن أكون قد تركتك تنتظر طويلًا جدًّا، ولكن غدًا سوف نذهب أنا وأنت في رحلةٍ صغيرة إلى ديفونشير. سيكون ذلك في صالحك يا مانسوس ... بالمناسبة، من أين لك بهذا الاسم المضحك؟»

أجاب مانسوس باقتضاب: «اسمي أم أسمائي؟»

قال تي إكس بنبرةٍ عدوانية: «أكرِّر لك أن بداخلك بذرةَ فطنةٍ وذكاء تتفتح.»

صار أكثر جديةً حين أخرج من جيبٍ داخل معطفه مظروفًا أزرقَ طويلًا يحوي الورقة التي كلَّفته الكثير للحصول عليها.

قال: «لقد كان العثور على المسدس ضربةً قويةً منك يا مانسوس»، وكان في غاية الجدية وهو يتحدث.

أشرق وجه الرجل بالسعادة؛ إذ كان مرءوسو تي إكس يحبونه، وكانت كلمة إشادة واحدة منه تعادل ترقية. وقد كان البحث الدقيق الذي شمل الطريق من لندن إلى لويس وتفتيش تلك الجداول المائية الصغيرة التي تمر أسفل ذلك الطريق، كل ذلك جاء بناءً على نصيحة من مانسوس.

جرى العثور على المسدس بعد ثالث محاولة من محاولات البحث التي شملت الطريق من جاتويك إلى هورزلي. وسهُل التعرُّف عليه من اسم فاسالارو الذي كان محفورًا على مؤخرته. كان المسدس مزخرفًا وأنيقًا نوعًا ما، وكان في أيامه الأولى مطليًّا بالفضة، وكان مقبضه مطعمًا بالصدف.

كان تعليق تي إكس عليه: «من الواضح أنه كان هديةً من لصٍّ إلى لصٍّ آخرَ.»

كانت مهمَّته ستصبح سهلة إلى حدٍّ كبير في وجود هذا المسدس بحوزته، ولكن حين أضاف إلى هذا الدليل مسوَّدةً أولية لخطاب التهديد وجدها ضمن متعلقات فاسالارو، وكان واضحًا أنها قد أُمليت على كاتبها؛ نظرًا لاحتوائها على أخطاءٍ إملائية في بعض الكلمات صُحِّحت بواسطة يدٍ أخرى، اكتملت القضية.

ولكن ما أحكم المسألة هو العثور على لفيفةٍ من ذلك الورق الكيميائي المميز، وكان عبارة عن عددٍ من الأوراق أشعلها تي إكس لتعريف رئيس الشرطة ووزير الداخلية بطبيعتها، بمجرَّد تعريضها بضع ثوانٍ لضوء مصباح كهربائي.

وفي الحال ملأت مكتب وزير الداخلية بدخان ذي رائحة نفَّاذة وكريهة للغاية، تسبَّبت في انطلاق اللعنات والسِّباب من فمي رئيسيه بكلِّ ما أوتيا من قوة. ولكنها جعلت الحجة تكتمل.

نظر إلى ساعته.

ثم قال: «أتساءل إن كان الوقت قد تأخَّر لمقابلة السيدة لكسمان.»

قال مانسوس: «لا أظن أن أي ساعة ستكون متأخرة.»

قال له رئيسه: «سوف تأتي معي لتدعمني.»

ولكنَّ ثمَّة خيبةَ أمل كانت بانتظارهما. فلم تكن السيدة لكسمان موجودةً بالمنزل، ولم يلقَ قرْعُ الجرس الكهربائي أو الطرْق العنيف لمطرقة الباب أيَّ استجابة. كان بوَّاب مدخل المجمع السكني حيث كانت تقطن مقتنعًا بأن السيدة لكسمان خارج المدينة. فقد كانت كثيرًا ما تخرج في أيام السبت وتعود يوم الإثنين، وأحيانًا يوم الثلاثاء حسبما يظن.

تصادف أن كانت تلك الليلة هي ليلة الإثنين، ما وضع تي إكس في مأزق. كان حارس المناوبة الليلية، الذي لم يكن لديه سوى النزر اليسير من المعلومات عن الموضوع، يعتقد أن حارس المناوبة الصباحية قد تكون لديه معلومات أكثر، وأيقظه من نومه.

كان رده أن السيدة لكسمان قد غادرت بالفعل. خرجت يوم الأحد، وهو يومٌ غيرُ معتادٍ القيامُ فيه بزيارات عطلة نهاية الأسبوع، وأخذت معها حقيبتيها. غامر الحارس بالإدلاء باعتقاده أنها كانت منفعلةً نوعًا ما، ولكن حين طُلب منه تحديد دلالات ذلك، غرق في بحرٍ من الكلمات غير المترابطة من قبيل «كما تعلم»، و«ما أقصده هو …»

قال تي إكس فجأة: «لا أحب ذلك.» وتابع: «هل يعرف أي شخص أننا قد عرفنا هذه المعلومات بالفعل؟»

قال مانسوس: «لا أحد خارج نطاق المكتب، إلا إذا، إلا إذا …»

قال الآخر منفعلًا: «إلا إذا ماذا؟» وأضاف: «لا تكن أحمقَ يا مانسوس. قُل ما في جَعبتك. ما الأمر؟»

قال مانسوس ببطء: «أتساءل إن كان صاحب المنزل في شارع جريت جيمس قد أفشى أيَّ شيء. إنه يعرف أننا قد قمنا بعملية بحث.»

قال تي إكس: «يمكننا معرفة ذلك بسهولة.»

أوقفا سيارة أجرة وتوجَّها إلى شارع جريت جيمس. كان ذلك الشارع الرئيسي الكبير يغط في نوم عميق، وكان لا يزال أمامهما بعض الوقت قبل أن يتمكَّنا من إيقاظ صاحب المنزل. وعندما تعرَّف صاحب المنزل على هوية تي إكس، كبح كلمات السخرية التي كان متأهبًا للتلفظ بها لأي ساكن لا يحوز مفتاح شقته، وقادهما إلى غرفة الاستقبال.

قال الرجل بنبرة المظلوم: «أنت لم تطلب مني ألا أتحدث إلى أحدٍ بشأن الأمر، يا سيد ميرديث، والواقع أنني لم أتحدَّث مع أي شخص عدا السيد الذي حضر في اليوم نفسه.»

سأله تي إكس: «ماذا كان يريد؟»

أجاب الآخر: «قال إنه اكتشف للتو أن السيد فاسالارو كان يقيم لديَّ ويريد أن يسدِّد أيَّ إيجار مستحَق عليه.»

تساءل تي إكس: «كيف كان يبدو ذلك الرجل؟»

أثار الوصف المختصر الذي أدلى به الرجل رِعشةً باردة في قلب مفوَّض الشرطة.

قال: «أراهن بجنيه ذهبي أنه كارا!»، وأخذ يتلفظ بسلسلةٍ مطوَّلة ومتنوعة من السِّباب.

قال آمرًا: «لنتجه إلى كادوجان سكوير.»

قرع الجرس وفُتح الباب في الحال. كان السيد كارا خارج المدينة، وفي الواقع أنه كان خارجها منذ يوم السبت. كان ذلك هو كل ما أوضحه الخادم وهو يرمق زائرَيْه بنظرات شك وريبة، حين تذكَّر أن الخادم الذي سبقه فقدَ وظيفته جرَّاء الأُلفة المبالغة وحسن الظن مع عمال الكهرباء. لم يكن يعرف موعد عودة السيد كارا، ربما لن يعود قبل فترة طويلة، وربما سيعود بعد فترة قصيرة. قد يأتي الليلة أو لا يأتي.

قال تي إكس غاضبًا: «أنت تضيِّع شبابك سدًى.» وتابع: «ينبغي أن تكون عرَّافًا.»

قال وهو يستقل السيارة الأجرة في طريق العودة: «هذا يحسم الأمر.» وأردف: «استعلم عن موعد أول قطار متجه إلى تافيستوك صباحًا وأرسلْ برقية إلى فندق جورج ليرسلوا سيارةً تنتظرنا.»

قال الآخر مقترحًا: «ولماذا لا نذهب الليلة؟» وأضاف: «يوجد قطار منتصف الليل. إنه بطيء بعض الشيء، ولكنه سيصل بنا إلى هناك بحلول السادسة أو السابعة صباحًا.»

قال: «فات الوقت، ما لم يكن بإمكانك أن تخترع لنا طريقةً للوصول من هنا إلى بادينجتون في نحو خمسين ثانية.»

كانت رحلة الصباح إلى ديفونشير رحلةً كئيبةً على الرغم من صفاء الجو. راود تي إكس شعورٌ مزعج بأن شيئًا مفجعًا قد وقع. وساعده السير عَبْر المستنقع في هواء الربيع العليل على استعادة نشاطه قليلًا.

وبينما كانا يستديران نحو وادي دارت، إذا بمانسوس يلمس ذراعه.

وقال: «انظر إلى تلك»، وأشار إلى السموات الزرقاء، حيث كانت طائرة بيضاء الأجنحة تحلِّق على مسافة ميل فوق رءوسهم تلمع تحت ضوء الشمس، وقد بدت لا تقل حجمًا عن تنين طائر على مسافة بعيدة للغاية.

قال تي إكس: «يا إلهي!» وأردف: «يا لها من طريقة رائعة للهروب!»

قال مانسوس: «إنها الطريقة الوحيدة المتاحة تقريبًا.»

أدرك تي إكس مغزى وجود الطائرة بعد بضع دقائق حين أوقفه حارسٌ مسلَّح. كانت نظرةٌ سريعة إلى بطاقته كافيةً كي يسمح له بالمرور.

تساءل قائلًا: «ما الخطب؟»

قال الحارس: «هرب أحد المسجونين.»

سأله تي إكس: «أهرب بواسطة طائرة؟»

«لا علمَ لي بأمر الطائرات ذاك، يا سيدي. كلُّ ما أعرفه أن واحدًا من مجموعة العمال قد هرب.»

وصلت السيارة عند بوابات السجن وقفز منها تي إكس سريعًا، يتبعه مساعده. لم يجد أيَّ صعوبة في العثور على مأمور السجن، الذي كان مضطربًا ومرتبكًا، كون هروب أحد المسجونين مسألةً غايةً في الخطورة.

كان المأمور يميل إلى الفظاظة في أسلوبه، ولكن مرة أخرى جاءت البطاقة السحرية بأثرٍ مهدئ.

قال المأمور: «أنا مرتبك ومنزعج بعض الشيء.» وتابع: «أحد سجنائي هرب. أظنك علمت بذلك، أليس كذلك؟»

قال تي إكس الذي يُكنُّ تبجيلًا غريبًا للسلطة العسكرية: «وأخشى أن سجينًا آخر من رجالك سوف يغادر أيضًا يا سيدي.» وأبرز الورقة التي بحوزته ووضعها على مكتب المأمور.

وقال: «هذا أمرٌ بإخلاء سبيل جون لكسمان، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عامًا.»

نظر المأمور إلى الورقة.

ثم قال وقد أطلق تنهيدةَ ارتياح طويلة: «إنه بتاريخ الليلة الماضية.» وأضاف: «حمدًا للرب! ... ذاك هو الرجل الذي هرب!»

الفصل الثامن

بعد مرور عامَيْن على الأحداث التي أوردتها للتو، وبينما كان تي إكس متوجهًا إلى لندن من باث، لفتت انتباهه فقرةٌ في جريدة «ذا مورنينج بوست». وقد علِم منها بإيجاز أن السيد رمينجتون كارا، الزعيم المؤثِّر للطائفة اليونانية، كان ضيف الشرف في عشاءٍ أقامته الجمعية اليونانية.

لم يلتقِ تي إكس بكارا إلا لوقت قصير بعد ذلك الصباح المأساوي، حين اكتشف أن صديقه المقرَّب لم يهرب فحسب من سجن دارتمور واختفى من العالم، إن جاز التعبير، في لحظةِ توقيع أمر العفو عنه، بل اكتشف أيضًا أن زوجة صديقه قد اختفت هي الأخرى من على وجه الأرض.

في الوقت ذاته، ربما كانت المصادفة الأوقع، مثلما أقرَّ تي إكس نفسه، هي اختفاء كارا من لندن، ليعود للظهور مجددًا بعد ستة أشهر. كان أي سؤال يوجه إليه بشأن مكان الزوجَيْن التعيسَيْن، يُقابَل من جانبه بتصريحٍ غير مبالٍ عن عدم معرفته بمكانهما.

كان جون لكسمان في مكانٍ ما في العالم، مختبئًا من العدالة كما كان يعتقد، وبرفقته زوجته. لم يكن تي إكس يراوده أدنى شكٍّ في قرارة نفسه في أن هذا هو حلُّ اللغز. وخطَّط لنشر قصة العفو والظروف التي جرى فيها الحصول على هذا العفو، وفوق ذلك رتَّب لنشر إعلان في الصحف الرئيسية في كل دول أوروبا.

كانت مسألةُ ما إذا كان جون لكسمان ليس مدانًا بجريمةٍ ذاتِ توصيفٍ قانوني وتستحق العقاب لهروبه من السجن مثارَ جدل بين المحامين الحكوميين، ولكن هذا

الاحتمال لم يكن يؤرِّق تي إكس. فقد أَجري تحقيقٌ دقيق في ملابسات الهروب. وفُصل الحارس المسئول من الخدمة، وبعدها مباشرةً اشترى لنفسه حانةً لبيع الخمور في فالموث، مقابل مبلغ كبير لم يترك في عقل المسئول الشرطي أدنى شك في أنه قد تلقى رشوة ضخمة.

مَن كانت الروح الملهمة التي قادت ذلك الهروب ... السيدة لكسمان، أم كارا؟

كان من المستحيل إيجادُ صلةٍ لكارا بتلك الواقعة. لقد تُتبِّع أثرُ السيارة إلى إكسيتر، حيث استأجرها رجل «ذو ملامح أجنبية»، لكن السائق، أيًّا كانت هويته، نجح في الهروب. وعند تفتيش مرأب طائرات كارا، الكائن في ويمبلي، تبيَّن أن طائرتيه الأحاديتَي السطح لم تتحركا، وفشل تي إكس فشلًا ذريعًا في تتبُّع مالك الطائرة التي شاهدها تطير فوق دارتمور في ذلك الصباح المشئوم.

كان تي إكس حائرًا إلى حدٍّ ما، وكان مستمتعًا قليلًا برفض السلطات تصديقَ أن عملية الهروب قد تمَّت على هذا النحو من الأساس. وتبادرت إلى ذهنه وقائعُ المحاكمة كاملة، وهو يشاهد المناظر الطبيعية تتحرك سريعًا أمامه.

أنزل الجريدةَ بتنهيدة خفيفة، ووضع قدميه على وسائد المقعد المقابل له واستسلم لأحلامِ اليقظة. بعد قليلٍ عاد إلى صُحُفه وأخذ يبحث فيها بفتور وكسل عن شيءٍ يثير اهتمامه، وذلك خلال المحطة الأخيرة من الرحلة بين نيوبري وبادينجتون.

بعد قليلٍ وجد مبتغاه في مقالٍ من عمودَيْن بعنوانٍ خلا من أي جاذبية، وهو «الثروة المعدنية في تييرا ديل فويجو». كان المقال مكتوبًا ببراعة وبأسلوب سهل وغني بالمعلومات في آنٍ واحد. كان يتحدَّث عن مغامراتٍ في المستنقعات الواقعة خلف خليج سان سبستيان، والرحلات عبر نهر جواريز سيلمان، وعن ليالٍ أُمضيت في الغابات البدائية، وانتهت بمسحٍ جيولوجي، حيث دُرست بدقة القيمةُ التجارية للسيانيت، والصخر السماقي، والتراكيت، والدياليت، كلٌّ على حدة.

كان المقال موقعًا باسم «جي جي». يُقال إن الفضول كان أعظمَ مناقب تي إكس. كان تحت يده أسماءُ جميع كبار المستكشفين والرحالة الكُتاب، ولسببٍ ما لم يستطِع وضع اسم «جي جي» على النحو الذي يرضيه؛ فقد كانت لديه رغبة غير منطقية لترجمة هذين الحرفين الأولين إلى «جورج جروسميث». كان عجزه عن التعرُّف على هوية الكاتب يؤرِّقه، وكان أول ما فعله فور وصوله إلى مكتبه الاتصال هاتفيًّا بأحد المحررين الأدبيين بجريدة «ذا تايمز» الذي كان على معرفة به.

كان الرد الفاتر الذي تلقَّاه من المحرِّر هو: «هذا ليس من اختصاص قسمي، كما أننا لا نفشي أسماء مساهمينا مطلقًا. أما بصفتي غير المهنية، فأستطيع القول إن «جي جي» هو «جورج جاذركول»، ذلك المستكشف الذي، كما تعلم، التهم ذراعه أسدٌ أو شيء من هذا القبيل.»

كرَّر تي إكس الاسم: «جورج جاذركول!» وأردف: «كم أنا أحمق!»

قال الصوت القادم من الطرف الآخر من الخط: «أجل»، ثم أغلق الهاتف قبل أن يتمكَّن تي إكس من التفكير في ردٍّ مناسب على ما قال.

بعد أن اتضح هذا الجانب الهامشي الصغير من اللغز، تلاشى الأمر من ذهن مفوَّض الشرطة الشاب. وتصادف أن كان من بين مهامه في صباح ذلك اليوم التصرُّف في ممتلكات لكسمان.

مع اختفاء الزوجين، أصبح هو المتصرِّف في متعلقاتهما. لم يشعر بالحرج حين اكتشف أنه مدرَج في وصية لكسمان بوصفه منفِّذًا للوصية؛ إذ كان بالفعل يتصرَّف كقيم على تركة الزوجة الشابة الصغيرة، وكان واحدًا من أطراف العقد الخاص بالتزامات ما قبل الزواج الذي أبرمه لكسمان قبل زواجه.

ازدادَت عوائدُ التركة على نحوٍ هائل. فقد كانت كتبُ المؤلف المختفي تُباع كما لم تُبع من قبل، وصارت مهمَّة منفِّذ الوصية أثقلَ وطأة جرَّاء حقيقة أن جريس

لكسمان كان لها عمَّة تُوفيت إثر حادث سيارة بسبب القيادة المتهورة، تاركةً ثروةً كبيرة «لابنة أخيها التعيسة».

قال للمحامي الذي جاء للتشاور معه في صباح ذلك اليوم: «سوف أحتفظ بالوصاية عامًا آخر.» وأضاف: «وفي نهاية تلك الفترة سوف أتخذ الإجراءات القانونية كي ألقي عن كاهلي هذا العبء.»

سأله المحامي، وكان رجلًا مسنًّا ضيِّق الأفق: «أتظن أنهما سيظهران من جديد؟»

قال تي إكس في نفادِ صبر: «بالطبع سيظهران! — كل أبطال كتُب لكسمان يظهرون إن آجلًا أو عاجلًا. سوف يظهر لنا في الوقت المناسب، وسوف نرتجف من الإثارة.»

كان تي إكس واثقًا من عودة لكسمان. وكانت تلك قناعةً لم يتزحزح عنها.

كان بداخله ثقةٌ بأن كارا العظيم، سوف يقع تحت يده يومًا ما.

كانت ثمَّة قصصٌ غريبة متداولة بشأن اليوناني، ولكنها في العموم كانت قصصًا وشائعات من الصعب فصلها عن النميمة الخبيثة التي دائمًا ما ترتبط بالأثرياء والناجحين.

كان من بين هذه القصص أن كارا كان يرغب فيما هو أكثر من زعامة الطائفة الألبانية، التي كان ينعم بها بلا شك. فكانت ثمَّة همساتٌ حول طموحاتٍ أوسعَ وأكبر. فعلى الرغم من أن والده كان يوناني المولد، فقد كان ينتمي انتماءً مباشرًا لا يشوبه أي شك إلى نسل واحد من أولئك الملوك الألبان القدامى الذين بسطوا سيطرتهم التي لم تدُم طويلًا على تلك الأرض المضطربة.

كان شغف الرجل موجهًا للسلطة والنفوذ. ولم يألُ جهدًا في سبيل بلوغ هذه الغاية. ودارت أقاويل عن استثماره لثروته الضخمة في هذا الأمر، ولا شيء سواه، وأنه بصرف النظر عن التجاوزات التي ربما يكون قد ارتكبها في شبابه — وكانت

هناك أمثلةّ مادية دامغة على ذلك — فقد كان يعمل نحو تحقيقِ غايةٍ ما بإصرار هائل، من الصعب ألا ينال الاستحسان والإعجاب.

كان تي إكس يحتفظ في مكتبه الموصد بمفكرة صغيرة حمراء، ذات سلك معدني وقفل ثلاثي، كان يُطلق عليها اسم «دفتر الفضائح». وكان يدوِّن في هذه المفكرة بخطه غير المنتظم المعلومات الصغيرة المثيرة التي ربما لم تُنشر، والتي غالبًا ما كانت تساعد أيَّ محقِّق في العثور على الخيوط المفقودة لقضيةٍ ما. في الواقع لم يكن يستنكف عن أي مصدر للمعلومات، وكان ضميره غائبًا في تجميع هذا السجل الذي تعمه الفوضى إلى حدٍّ ما.

أعادت قضية جون لكسمان كارا إلى ذهنه، وحفل الاستقبال الرائع الذي أقامه كارا. كان مانسوس قد أعد ترتيباته للحصول على تقريرٍ نصي بالخُطب التي أُلقيت، ومن المفترض أن تكون بين يديه بحلول الليل. لم يخبره مانسوس أن كارا كان يقدِّم دعمًا ماليًّا لبعض الشخصيات ذاتِ النفوذ الضخم، وأن هناك وكيلَ وزارة بعينه يحظى بعدد كبير من العلاقات المؤثرة للغاية أفلت من شبح الإفلاس بفضل القروض التي قدَّمها له كارا في الوقت المناسب. وقد حصل تي إكس على هذا من مصادرَ ربما يمكن التسرُّع في وصفها بأنها مصادر سيئة السمعة. كان مانسوس يعرف صالة القمار الكائنة في شارع البمارل، لكنه لم يكن يعرف أن زوجة أحد كبار رجالات الدولة، ربما يكون وزير العدل على أقل تقدير، وهي سيدة مصابة بالعصاب، دائمة التردُّد على تلك الصالة، وأنها خسرت في إحدى الليالي نحو ٦ آلاف جنيه. فكَّر تي إكس أن من الغريب في مثل هذه الظروف أن تتقدم ببلاغٍ إلى الشرطة بشأن واقعة سرقة تافهة للغاية من قِبل الخدم. غير أنها فعلت ذلك، وبينما كان ضباط سكوتلاند يارد الأقل رتبة عاكفين على استجواب مرابي الرهونات، كان المسئولون الكبار يساورهم قلق بالغ بشأن التصرفات المشينة للسيدة.

كان الأمر كله بذيئًا ومنحطًّا، ولكنه للأسف كان مألوفًا ومعتادًا؛ لأن أصحاب السلطة والنفوذ دائمًا ما يرتكبون أفعالًا مشينة، تتعلق بالمال أو النساء، وكان من

الضروري الاحتفاظُ بملفاتٍ لتلك الأخطاء التي ارتكبها أعاظم الأرض، مهما كانت منحطة ومهما كانت مألوفة، للرجوع إليها لاحقًا، اتباعًا للإجراءات والقواعد المعمول بها بالإدارة التي يديرها تي إكس.

كان شعار تي إكس في حياته هو «لا أحد يعلم ماذا سيحدث».

كان وزير العدل رجلًا غايةً في الأهمية؛ إذ كان صديقًا شخصيًّا لنصف ملوك أوروبا. كان رجلًا مسكينًا، لا يتقاضى سوى ألفين أو ثلاثة آلاف سنويًّا، وليس له آراء سياسية محدَّدة ولا يدعم السياسات العنيفة لأيٍّ من الحزبين الحاكمين، ونجح في إسداء خدمات لكليهما، مع تحقيق استفادة شخصية، ودون أن يتعرَّض لانتقادات من أيٍّ منهما. ومع أنه لم يتَّبع سياسةَ تغيير المبادئ والولاءات الوقحة، فإن الواقع الذي قد يكون مدعومًا بمعلومات القارئ ومعرفته، أنه قد عمل في أربع حكومات، وتقاضى راتبه ومكافآته من منصبه من كل حكومة منها، بالرغم من أن السياسات الأساسية لتلك الحكومات الأربع كانت مختلفة.

كانت الليدي بارثولوميو، زوجةُ هذا الوزير القادر على التكيُّف مع كل الظروف، قد غادرت مؤخرًا إلى سان ريمو. وقد أفصحت الصحف عن الحقيقةِ وتحدَّثت على نحوٍ غيرِ صريح عن معاناتها من انهيار عصبي حالَ دون وفاء السيدة بارتباطاتها الاجتماعية.

لم يتمكَّن تي إكس، الذي طالما كان نزَّاعًا للشك، من تتبُّع أثرِ أيِّ زيارة لطبيب أعصاب، ولا حتى طبيب العائلة، للمقر الرسمي للعائلة الواقع في شارع داونينج؛ ومن ثَم بدأ في استخلاص الاستنتاجات. كان تي إكس يدوِّن في سجل المشاهير الخاص به هوايات ضحاياه، التي بالمناسبة لم تكن دائمًا تتسق مع المناصب البريئة التي تُوضع أمام أسمائهم في سجل البيانات الأكثر تنميقًا. كما وجدت حماقاتُهم ونقاطُ ضعفهم مكانًا به، ودُوِّنت بإسهاب وتفصيل (مثلما قد يبدو لغير المطلع) يتجاوز حدود قواعد الرفق.

لم يظهر اسم الليدي بارثولوميو مرةً واحدة، بل مراتٍ عديدة في السجلات الغريبة الأطوار التي كان تي إكس يحتفظ بها. كانت توجد هناك معلوماتٌ عاديةٌ ومؤكدة على نحوٍ تامٍّ عن كونها وُلدت في عام ١٨٧٤، وأنها الابنة السابعة لإيرل بالموري، وأن لديها ابنة تنعم باسم بليندا ماري، الذي لا يدعو إلى التفاؤل، وغيرها من تلك المعلومات التي يمكن للمرء الحصول عليها دون الكثير من العناء.

تساءل تي إكس وهو ينعش ذاكرته من مفكرته الحمراء الصغيرة، عن المأساة غير المتوقَّعة التي دفعت الليدي بارثولوميو إلى مغادرةِ لندن في منتصف الموسم. كانت المعلومات التي لديه تشير إلى أن الليدي كانت على ما يُرام إلى حدٍّ كبير في هذا الوقت، ما جعل الأمور تبدو مربكةً للغاية ودفعته إلى الاعتقاد بأن القصة، في النهاية، حقيقيةٌ، وأن انهيارًا عصبيًّا كان حقًّا السبب وراء رحيلها المفاجئ. وأرسل في طلب مانسوس.

«أظنك قد ودَّعت الليدي بارثولوميو في محطة تشارينج كروس، أليس كذلك؟»

أومأ مانسوس إيجابًا.

«هل ذهبتْ بمفردها؟»

«أخذت خادمتَها، ولكن بخلاف ذلك كانت بمفردها. أظنها كانت تبدو مريضة.»

قال تي إكس دون أي تعبير ظاهر يوحي بالتعاطف: «كانت تبدو مريضة منذ شهور مضت.»

«هل اصطحبت معها بليندا ماري؟»

تملَّكت مانسوس الحيرة. وكرَّر الاسم ببطء: «بليندا ماري؟» وتابع: «أوه، أنت تقصد الابنة. كلا، إنها في مدرسةٍ بمكانٍ ما في فرنسا.»

أخذ تي إكس يُصفر بجزءٍ من أغنية شهيرة، وأغلق المفكرة الحمراء الصغيرة بقوة وأعادها إلى مكانها في مكتبه.

وقال متأملًا: «تُرى في أي مكان على سطح الأرض يستخدم الناس أسماءً مثل بليندا ماري؟» وأضاف: «لا بد أن بليندا ماري هو اسم حيوان صغير غريب، ليغفر لي الربُّ حديثي هكذا عن سادتي! فلو كان للوراثة أيُّ تأثير، لوجب أن تكون هذه الفتاة شيئًا ما بين رئيسة خدم ومجموعة من أوراق اللعب. هل ضاع منك شيء؟»

كان مانسوس يفتِّش في جيوبه.

«كتبت بعض الملاحظات؛ بعض الأسئلة التي أردتُ أن أوجهها إليك وكانت الليدي بارثولوميو موضوعَ أحدها. لقد وضعتها تحت المراقبة على مدى ستة أشهر، فهل ترغب في استمرار المراقبة؟»

فكَّر تي إكس وهلةً، ثم هزَّ رأسه بالرفض.

«إن اهتمامي بالليدي بارثولوميو يرجع لاهتمام كارا بها.» ثم أضاف بنبرةِ إعجاب: «لدي مجرم لك، يا صديقي!»

انهمك مانسوس في النظر إلى حُزَم الرسائل، وقصاصات الورق، والمفكرات الصغيرة التي أخرجها من جيبه، ثم تنشق بصوت مسموع.

تساءل تي إكس بتأدُّب: «هل أُصبتَ بالبرد؟»

كان الرد: «لا يا سيدي، أنا فقط لا أرى كارا مجرمًا. وفوق ذلك، ما الذي يدفعه إلى أن يكون مجرمًا؟ إن لديه كلَّ ما يحتاج إليه فيما يتعلق بالمال، وهو واحد من مشاهير لندن، ولا شكَّ أنه واحد من أوسم مَن رأيت من الرجال في حياتي. إنه لا يحتاج إلى شيء.»

رمقه تي إكس بنظرة ازدراء.

ثم قال وهو يهز رأسه: «أنت وغد مسكين أعمى؛ ألا تعرف أن أعتى المجرمين لا يتأثرون أبدًا بالرغبات المادية، أو فرص الحصول على مكاسب

مادية؟ إن الرجل الذي يسطو على خزينةِ ربِّ عمله كي يمنح معشوقته دبوسَ الزينة المطعم بحبات الياقوت واللؤلؤ الذي تصبو إليه روحها، لا يجني من وراء ذلك شيئًا سوى زهوة الرضا التي تنتاب الرجل الذي يحظى بإعجاب الآخرين. إن غالبية الجرائم التي تحدث في العالم يرتكبها أشخاصٌ للسبب نفسه؛ رغبةً في نيل الإعجاب والاستحسان. فها هو الدكتور «س» الذي قتل زوجته؛ لأنها كانت سكِّيرة وفاسقة، ولم يكن يجرؤ على تركها خوفًا من الشكوك التي ستساور الجيران حينها بشأن جدارته بالاحترام. وهذا رجلٌ آخر يغتال زوجاته في أحواض استحمامهن كي يحتفظ بمكانةٍ ما ويكسب احترام أصدقائه وزملائه. لا شيء جعله يستنفر من أجل إشباع نوبة شغف محمومة أسرعُ من الإيحاء بأنه لم يكن محترمًا. وها هو ذا رجل المال العظيم، الذي اختلس مليونًا وربع المليون، ليس لأنه بحاجة إلى المال، ولكن لأن الناس يحترمونه ويُجلُّونه. لذلك، لا بد أن يشيِّد قصورًا منيفة، وملاعب للرياضات المائية، ولا بد أن يصمِّم حدائق وضَيْعات ضخمة؛ لأنه يريد أن يكون محطَّ إعجاب.»

تنشَّق مانسوس ثانية.

ثم تساءل بمسحةٍ من السخرية في نبرته: «ماذا عن الرجل الذي يعتدي على زوجته، هل يفعل ذلك لكي يكون محطَّ إعجاب الآخرين أيضًا؟»

نظر إليه تي إكس بنظرةٍ ملؤُها الشفقة.

ثم قال: «إن ذلك التافه الذي يضرب زوجته، يا صديقي المسكين، إنما يفعل ذلك؛ لأنها لا تحترمه. ذاك هو شغفنا الذي يحكمنا، وسِمَتنا القومية، والسبب الأساسي وراء غالبية الجرائم، كبُرت أم صغُرت. هذا هو ما يجعل من كارا مجرمًا دنيئًا، وسوف ينهي حياته، كما أرى، نهايةً عنيفةً للغاية.»

وأخذ قبَّعته الحريرية اللامعة من فوق المشجب ودسَّها داخل معطفه.

ثم قال: «سوف أذهب لمقابلة صديقي كارا.» وأضاف: «لديَّ شعور بأنني أود التحدث معه. لعله يخبرني بشيء.»

كانت معرفته بمنزل كارا مجرَّد شائعة. فلم يقابل اليوناني سوى مرة واحدة بعد عودته، ولكن لمَّا كانت كل جهوده للحصول على معلومات بشأن مكان جون لكسمان وزوجته — وهو السبب الأساسي وراء زيارته — قد ذهبت سدًى، لم يكرِّر الزيارة.

كان المنزل الكائن في كادوجان سكوير كبيرًا؛ إذ كان يشغل ناصيةً كاملة. كان إنجليزي الشكل على نحوٍ مميز، بما يحويه من أصص النوافذ، وستائره الأنيقة البسيطة، ومدخله المصقول المصنوع من النحاس والمينا. كان فيما سبق المنزل الحضري لِلُّورد هنري جراثام، ذلك الخبير الضليع بالخمور ذو الأطوار الغريبة، الذي كان يسعى وراء الملذات الحمقاء. كان تشييده «قائمًا على زجاجة من الخمر المعتَّق» على حد تعبير أحد أصدقائه، قاصدًا بذلك أن الاعتبار الأول لديه كان لأقبية المنزل، وأنه حين بُنيت تلك الأقبية واتُّخذت الاحتياطات من أجل ضمانِ تخزينٍ آمنٍ لخموره التي لا تقدَّر بثَمن، شُيد المنزل دون كثير من المضايقات من قِبل سموِّه للمهندس المعماري القائم على بنائه. كانت الأقبية المزدوجة لمنزل جراثام، في زمانها، واحدةً من معالم لندن. وحين مات هنري جراثام ورقد على عمقِ ثماني أقدام أسفل تراب دولة الكونغو (إذ لقي مصرعه على يد فيل أثناء رحلة صيد)، كان الحظ حليفًا لمنفِّذي وصيته على نحوٍ كبير؛ إذ وجدوا مشتريًا في الحال. وسرت شائعةٌ مفادُها أن كارا، الذي لم يكن من محبي الخمور، قد أغلق الأقبية بالطوب، وتحوَّل وجودها إلى أسطورة محلية.

فتح البابَ خادمٌ وقورٌ أنيقُ الثياب واقتِيد تي إكس إلى الرَّدهة. كانت ثمَّة مدفأة برونزية متوهِّجة بنيرانٍ تبعث على البهجة، ولمح تي إكس لوحةً كبيرة بألوان الزيت لكارا فوق رف المدفأة الرخامي.

قال الخادم: «السيد كارا مشغول جدًّا، يا سيدي.»

قال تي إكس: «فقط أدخِل له بطاقتي.» وأضاف: «أعتقد أنه قد يهتم بمقابلتي.»

انحنى الخادم له، وأخرج من ركنٍ سريٍّ صينيةَ تقديم فضية وصعد إلى الطابق العلوي برشاقةٍ على طريقةِ الخدم المدربين جيدًا، التي تبدو أنها لا تستدعي أيَّ جهد بدني. ثم عاد في غضون دقيقة.

قال: «تفضَّل من هنا، يا سيدي»، واقتاده عَبْر سلَّم عريض.

في قمة السُّلم كان يوجد ممرٌّ يمتد إلى اليسار وإلى اليمين. وتشعَّب من هذا الممر أربعُ غرف. كانت إحداها تقع في أقصى الممر إلى اليمين، وأخرى إلى اليسار، واثنتان على مسافتين متساويتين إلى حدٍّ كبير في المنتصف.

حين وضع الرجل يده على أحد الأبواب، تساءل تي إكس في هدوء: «أظنني قد رأيتك من قبلُ في مكانٍ ما، يا صديقي.»

ابتسم الرجل.

«هذا أمرٌ وارد للغاية، يا سيدي. فقد عمِلتُ نادلًا فترةً في النادي الدستوري.»

فأومأ تي إكس.

ثم قال: «لا بد أن هذا هو المكان الذي رأيتك فيه.»

فتح الخادم البابَ وأعلن عن قدوم الضيف.

وجد تي إكس نفسه في غرفةٍ كبيرة، مؤثَّثة على نحوٍ غاية في الأناقة، لكنها فقط تفتقر إلى ذلك الشعور بالدفء والراحة الذي يميز بيوت الإنجليز.

نهض كارا من خلفِ طاولةِ كتابةٍ كبيرة، وأقبل يسرع الخطى نحو ضيفه مبتسمًا للترحيب به.

قال: «هذه مفاجأة سعيدة وغير متوقعة تمامًا»، وصافحه بحرارة.

لم يكن تي إكس قد رآه منذ عام ولم يجد أيَّ تغيُّر ملحوظ في ذلك الشاب الغريب. فلم يكن من الممكن أن يكون أكثرَ ثقةً في نفسه عما كان من قبل، أو أكثرَ خفةً ورشاقةً في مِشيته. فلم يفسده أيُّ نجاح اجتماعي حقَّقه، أيما كان؛ إذ كان أسلوبه ودودًا وعفويًّا كما كان دومًا.

قال ملتفتًا إلى الفتاة التي وقفت بجوار المكتب وبيدها دفتر: «أعتقد أن ذلك يكفي، يا آنسة هولاند.»

قال تي إكس في نفسه: «من الواضح أن صديقنا اليوناني لديه ذوقٌ رائعٌ في السكرتيرات.»

استطاع من خلال تلك النظرة الخاطفة أن يتفحَّصها كاملة، من شعرها البني المائل إلى البرونزي إلى قدميها الناعمتين الجميلتين.

لم يكن تي إكس ينجذب بسهولةٍ إلى الجنس الآخر. فقد كان يعترف علانيةً بأن العزوبية هي قدَره المحتوم؛ إذ كان يرى أن الحياة وحوادثها تستغرقه بشدةٍ حتى إنه لا يستطيع أن يكرِّس عقله بالكامل لمسألةٍ خطيرةٍ كالزواج، أو الالتزام بمسئولياتٍ واهتماماتٍ قد تصرف انتباهه عما يراه اللعبة الأكبر. لكن لا بد أنه كان رجلًا من حجرٍ كي يقاوم عذوبةَ وجمالَ وشبابَ هذه الفتاة الرشيقة ذاتِ القوام الممشوق، وبَشَرتها البيضاء الممزوجة باللون الوردي، وحضورها الذي يطغى عليه ذلك الإحساس الأخَّاذ بالحيوية.

تساءل كارا ضاحكًا: «ما أغرب اسم سمعته على الإطلاق؟» وأضاف: «إنني أسألك؛ لأنني والآنسة هولاند كنا نناقش معًا رسالة استجداء أرسلتها إلينا امرأةٌ تُدعى ماجي جومر.»

ابتسمت الفتاة قليلًا، ورأى تي إكس الجنَّة في تلك الابتسامة.

كرَّر تي إكس السؤال: «أغرب اسم؟ — أعتقد أن أغرب اسم سمعته على الإطلاق منذ فترة طويلة هو بليندا ماري.»

قال كارا: «ذاك اسم ذو رنين مألوف.»

كان تي إكس ينظر إلى الفتاة.

كانت تحدِّق فيه بتغطرس مشوب بالفتور جعله يتقوقع بداخله. ثم بنظرةٍ سريعةٍ إلى رئيسها خرجت من الغرفة.

قال كارا: «كان ينبغي أن أقدِّمك لها.» وتابع: «تلك سكرتيرتي، الآنسة هولاند. إنها فتاة جميلة نوعًا ما، أليس كذلك؟»

قال تي إكس وقد التقط أنفاسه: «إنها جميلة جدًّا.»

قال كارا: «أحب أن تكون هناك أشياءُ جميلة من حولي»، وانزعج المحقِّق بطريقةٍ ما من الغطرسة التي بدت في تلك الملاحظة أكثر من أيِّ شيء آخرَ قاله له كارا على الإطلاق.

اتَّجه اليوناني إلى رفِّ المدفأة وسحب علبة سجائر فضية، وفتحها وقدَّمها لضيفه. كان كارا يرتدي حُلَّة رمادية من قطعتين، ورغم أن اللون الرمادي لونٌ يصعُب على الأجنبي تحمُّل ارتدائه، كانت هذه الحُلَّة تناسب هيئته الرائعة وأضْفت عليه تلك الضخامة التي كان يحتاج إليها تمامًا.

ابتسم قائلًا: «أنت رجل شكَّاك للغاية، يا سيد ميرديث.»

تساءل تي إكس في براءة: «شكاك؟!»

أومأ كارا إيجابًا.

«أنا واثق من أنك ترغب في التحقيق في شخصيةِ كلِّ العاملين الحاليين لدي. ومقتنع تمامًا بأنك لن تهدأ أبدًا حتى تعلم سوابق الطباخ، والخادم، والسكرتيرة ...»

اعترف تي إكس بصحةِ ذلك ضاحكًا.

قال: «التمسْ لي العذر.» وأردف: «أعترف أنها واحدة من مثالبي، لكني لم أتوغَّل إلى هذا الحد في شئون أفراد منزلك بقدْر ما خُضتُ في سوابقِ سائقكَ المثيرِ للاهتمام جدًّا.»

اكفهرَّ وجه كارا قليلًا، ولكن ذلك لم يدُم إلا لحظات.

وقال بابتهاج ومرح: «أوه، براون»، ونطق الكلمتين بوقفةٍ ملحوظةٍ بين الاثنتين.

قال تي إكس: «كان يُدعى سميث، ولكن هذا لا يهم. فاسمه في الحقيقة هو بوروبولوس.»

قال كارا بجدية: «أوه، بوروبولوس.» وتابع: «لقد طردته منذ فترة طويلة.»

قال تي إكس: «أعرف أيضًا أنك تعطيه معاشًا.»

نظر إليه الآخرُ برهةً، ثم قال ببطء: «أنا في غاية الكرم والإحسان مع خدمي القدامى»، ثم قال مغيرًا مجرى الحديث: «أي فرصة سعيدة جعلتني أحظى بهذه الزيارة؟»

التقط تي إكس سيجارةً قبل أن يجيب.

ثم قال وقد بدا أنه يكرِّس كلَّ انتباهه للسيجارة: «فكرتُ أنك قد تسديني خدمة.»

قال كارا بشيء من اللهفة: «لا شيء يسعدني أكثر من ذلك.» وتابع مبتسمًا: «يؤسفني أنك لم تكن حريصًا للغاية على استكمال ما تمنيت أن يتحوَّل إلى صداقةٍ غالية، ولعلها كانت أغلى لدي منك.»

قال تي إكس بغير استحياء: «أنا رجل خجول جدًّا، وصعب المراس إلى أقصى الحدود، ولدي نزعةٌ نوعًا ما إلى التقليل من مزاياي الاجتماعية. لقد جئتك الآن لأنك تعرف الجميع ...» ثم سأل فجأة: «بالمناسبة، منذ متى التحقتْ سكرتيرتك بالعمل لديك؟»

نظر كارا إلى السقف ليستلهم الرد.

قال: «أربعة، لا بل ثلاثة أشهر؛ إنها شابة غاية في الكفاءة جاءتني من إحدى المؤسسات التدريبية. إنها متحفظة وكتومة إلى حدٍّ ما، وأفضل تعليمًا وثقافةً من معظم الفتيات ممن يعملن في نفس منصبها؛ فهي، على سبيل المثال، تجيد التحدُّث باللغة اليونانية الحديثة والكتابة بها إلى حدٍّ كبير.»

قال تي إكس: «إنها كنز!»

قال كارا: «إنها كذلك وعلى نحوٍ استثنائي.» وأضاف: «إنها تسكن في ٨٦ إيه طريق ماريليبون. إنها ليس لها أصدقاء، وتقضي معظم أمسياتها في غرفتها، وغاية في الاحترام والوقار، وفاترة قليلًا في أسلوب تعاملها مع رب عملها.»

سدَّد تي إكس نظرةً خاطفة إلى الآخر.

وتساءل: «لِمَ تخبرني بكل هذا؟»

أجاب الآخر ببرود: «كي أوفِّر عليك عناء التقصي والاستكشاف.» وأضاف: «أنا على يقين من أن ذلك الفضول الذي لا يُشبع، الذي هو أحد أدوات مهنتك، سوف يدفعك إلى إجراء تحريات على النحو الذي يرضيك.»

ضحك تي إكس.

ثم قال: «هل تسمح لي بالجلوس؟»

جرَّ الآخر كرسيًّا ذا ذراعين عبر الغرفة وهوى فيه تي إكس. اتكأ إلى الوراء ووضع ساقًا فوق الأخرى، وفي لحظةٍ صار في حالة من الراحة والاسترخاء التام.

قال: «أرى أنك رجل في غاية الذكاء يا سيد كارا.»

نظر إليه الآخر هذه المرة دون تفكير.

ثم قال بلطف شديد: «لست بالذكاء الذي يمكِّنني من اكتشاف المغزى من زيارتك.»

قال تي إكس: «هذا أمر يسهل توضيحه.» وتابع: «أنت تعرف جميع مَن في المدينة. وتعرف، من بين آخرين، الليدي بارثولوميو.»

قال كارا سريعًا: «بالفعل أعرف الليدي معرفة وثيقة»، وكان الرد أسرعَ مما ينبغي في الواقع؛ إذ أوحت السرعة التي أعقبت بها الإجابة السؤال إلى تي إكس بأن كارا قد توقَّع سبب الزيارة.

سأله تي إكس متحدثًا بتروٍّ: «هل لديك أي فكرة عن سبب مغادرة الليدي للمدينة في تلك اللحظة تحديدًا؟»

ضحك كارا.

وأجاب: «يا له من سؤال استثنائي لتسأله لي ... وكأن الليدي بارثولوميو قد أسرَّت بخططها إلى شخصٍ لا تربطه بها سوى معرفة عابرة!»

قال تي إكس متأملًا الطرَف المحترق من سيجارته: «ولكنك تعرفها جيدًا بما يكفي لتحوز دفتر كمبيالاتها.»

تساءل الآخر: «دفتر كمبيالاتها؟»

كانت نبرتُه تنمُّ عن دهشةٍ لا إرادية، وأخذ تي إكس يسبُّ في نفسه بصوتٍ خفيض؛ إذ رأى الارتياح وقد تلاشى من على وجه كارا في تلك اللحظة. وأدرك مفوَّض الشرطة أنه ارتكب خطأً؛ إذ كان واضحًا في كلامه إلى أقصى الحدود.

مضى في حديثه بهدوء، وكأنه لم يلحظ شيئًا: «حين أقول دفتر كمبيالات، أعني بالطبع سندات الديون التي دائمًا ما يمنحها المدين لشخصٍ اقترض منه مبالغَ مالية ضخمة.»

لم يُجِب كارا، ولكنه فتح أحد أدراج مكتبه وأخرج منه مفتاحًا وحمله إلى حيث كان تي إكس جالسًا.

قال بهدوء: «ها هو ذا مفتاح خزنتي.» وأردف: «لك مطلق الحرية في تفتيش محتوياتها بدقة بنفسك للعثور على أي دفتر كمبيالات أحوزه من الليدي بارثولوميو»، ثم أضاف بنبرة الجريح المظلوم: «أنت لا تتصور أنني مرابٍ، أليس كذلك؟»

قال تي إكس على غير الحقيقة: «أنا لم أتصوَّر ذلك على الإطلاق.»

لكن الآخر أصرَّ على إعطائه المفتاح.

وقال بنبرة جادة: «سأكون في غاية السرور لو بحثت بنفسك.» وتابع: «فأنا أشعر أنك بطريقةٍ ما تربط مرض الليدي بارثولوميو بفعلةٍ ربًا شنعاء من جانبي؛ هلا تُرضي نفسك ومن ثَم ترضيني؟»

في هذه اللحظة كان أيُّ شخص عادي، وربما أي محقِّق عادي، سيجيب الإجابة التقليدية. كان سيحتج بأنه لا يضمر أيَّ نيةٍ لفعلِ أيِّ شيء من هذا القبيل، وكان سيُدلي بالعبارة التقليدية، لو كان رجلًا في المنصب الذي كان يشغله تي إكس، بأنه لا يملك أي سلطة لتفتيش الأوراق الشخصية، وأنه بالطبع لم يكن ليستغل طيبةَ قلب الآخر لمصلحته الشخصية. ولكن تي إكس لم يكن شخصًا عاديًّا. فأخذ المفتاح وأرجحه برفقٍ في راحةِ يده.

قال ممازحًا إياه: «هل هذا مفتاح خزنة غرفة النوم الشهيرة؟»

كان كارا ينظر إليه بابتسامةٍ ساخرة. ثم قال: «إنها ليست الخزنة التي فتحتها في غيابي، في واقعةٍ لن تُنسى، يا سيد ميرديث.» وأردف: «لقد غيَّرت تلك الخزنة، كما قد تعلم، ولكن ربما أنت لا تشعر بأنك أهلٌ للمهمة؟»

قال تي إكس بهدوءٍ وهو ينهض من فوق الكرسي: «على العكس، سوف أختبر حسن نواياك.»

وردًّا على ذلك، اتَّجه كارا إلى الباب وفتحه.

قال بأسلوبٍ مهذَّب: «دعني أريك الطريق.»

اجتاز الممر ودخل الجناح القابع في نهايته. كانت الغرفة كبيرةً ومضاءة بنافذةٍ كبيرة مربَّعة الشكل، كانت محميةً بقضبانٍ فولاذية. وفي الموقد العريض المرتفع اشتعلت نيرانٌ ضخمة وكانت درجة حرارة الغرفة دافئةً على نحوٍ لا يَسُر على الرغم من برودة الجو في ذلك اليوم.

قال كارا: «هذه واحدة من الغرائب الشاذة التي لن تجد لي عذرًا فيها باعتبارك إنجليزيًّا.»

بالقرب من حافة السرير السفلى، كان هناك بابٌ أخضر كبير للخزنة، مدمج داخل الجدار ومحاذيًا له.

قال كارا: «تفضَّل يا سيد ميرديث.» وأضاف: «كلُّ أسرار رمينجتون كارا الثمينة مِلْك يديك للبحث فيها.»

قال تي إكس دون أي محاولة منه لاستخدام المفتاح: «أخشى أن أكون قد تكبدتُ هذا العناء بلا جدوى.»

قال كارا مبتسمًا: «ذاك رأيٌ أوافقك فيه.»

قال تي إكس: «من الغريب أنني أقصد ما تقصده أنت تمامًا.»

وناول المفتاح إلى كارا.

تساءل اليوناني: «ألن تفتحها؟»

هزَّ تي إكس رأسه بالنفي.

«الخزنة حسبما أرى من طراز ماجنوس، والمفتاح الذي تفضَّلت بإعطائه لي منقوشٌ على مقبضه بوضوح «تشاب». وخبرتي كضابط شرطة علَّمتني أن مفاتيح

تشاب نادرًا جدًّا ما تفتح خزنات ماجنوس.»

أطلق كارا صيحةَ ضيقٍ.

ثم قال: «يا لغبائي! — تذكَّرتُ الآن، لقد أرسلتُ المفتاح إلى موظفي البنك، قبل أن أغادر المدينة، وأنا، كما تعلم، لم أعد إلا هذا الصباح. سوف أرسل في طلبه في الحال.»

تمتم تي إكس بتهذيب قائلًا: «أرجوك لا تزعج نفسك.» وأخرج من جيبه عُلبةً جلديةً مسطحةً صغيرةً وفتحها. كانت تحوي عددًا من الأدوات المصنوعة من الصلب لها أشكال غريبة، مثبتة بواسطة حلقة جلدية في منتصف العلبة. استل من إحدى هذه الحلقات ذراعًا، وببراعة ثبَّت شيئًا بدا كمثقاب من الصلب بتجويف الذراع. وبينما كان كارا يراقب ما يحدث في دهشة، وقدْرٍ كبير من الخوف، رأى المثقاب وقد انثنى من عند الرأس.

تساءل بشيءٍ من الانزعاج: «ماذا ستفعل؟»

قال بمرح ولطف: «سأريك.»

وبحذرٍ شديدٍ وضع الأداةَ داخل ثقب المفتاح الصغير وأداره بحذرٍ في أحد الاتجاهين أولًا، ثم في الاتجاه الآخر. صدر صوتُ طقطقة تبعه صوت طقطقة آخر. فأدار الذراع وانفتح باب الخزنة.

تساءل في تهذيب: «أمر بسيط، أليس كذلك؟!»

في تلك اللحظة تحوَّل وجه كارا. كانت العينان اللتان كانتا في مواجهةِ عينَي ميرديث تشتعلان بغضب جنوني. وبخطوة سريعة وواسعة وقف كارا أمام الخزنة المفتوحة.

قال بفظاظة: «أعتقد أن الأمر قد جاوز المدى يا سيد ميرديث.» وأردف: «إذا أردت تفتيش خزنتي، فلا بد أن تحضر إذنًا بالتفتيش.»

هزَّ تي إكس كتفَيْه، وراح يَحُل الأداة التي استخدمها بحرص، وأعادها إلى العلبة، ثم أعاد العلبة إلى جيبه الداخلي.

قال بأسلوب لبق ولطيف: «كان هذا بناءً على دعوة منك، يا عزيزي السيد كارا.» وتابع: «كنت أعرف بالطبع أنك تضللني بالمفتاح وأنك ليس لديك أيُّ نية لتدعني أرى ما بداخل خزنتك مثلما لم تكن تنوي أن تخبرني بالضبط بما حدث لجون لكسمان.»

أصابته كلماته في مقتل.

تجعَّد وجه كارا الذي كان مواجهًا لوجه مفوَّض الشرطة، وبرزت أوردتُه من فرط الانفعال. كانت شفتاه مرتدتَين إلى الخلف، كاشفتين عن أسنانه البيضاء الكبيرة المتناسقة، وضاقت عيناه بشدة، وبرز فكاه، وتلاشى من وجهه كل مظهر من مظاهر الآدميين.

أخذ يردد بهمس عالٍ: «أنت ... أنت ...» بينما كانت يداه المِخْلبيتان تتحركان إلى الخلف على نحوٍ مريب.

قال تي إكس بنبرة حادة: «ارفع يدَيْك، وأسرِع في ذلك!»

وفي لمح البصر ارتفعت اليدان؛ إذ كان المسدس الذي كان تي إكس يحمله يضغط على الزر الثالث في صدرية اليوناني على نحوٍ مزعج.

قال تي إكس بلطف: «تلك ليست أول مرة تُطالَب فيها برفع يديك، حسبما أظن.»

استدارت يده اليسرى إلى جيب كارا الخلفي. فوجد به شيئًا يتخذ شكلًا أسطوانيًّا فجذبه من الجيب. لم يكن هذا الشيء، لدهشته، مسدسًا، ولا حتى سكينًا، كان يبدو كمصباح كهربائي صغير، ولكن كان يوجد بأحد طرفيه ثقوب أشبه بثقوب ملاحة الفلفل، بدلًا من المصباح والعدسة السحرية.

أمسك به بحرصٍ وكان على وشك الضغط على المقبض الصغير المصنوع من النيكل، حين انطلقت من كارا صيحةُ هلعٍ مكتومة.

قال وهو يلهث: «كن حذرًا لأجل الرب!» وتابع: «أنت تصوِّبه نحوي! لا تضغط على هذا الذراع، أتوسَّل إليك!»

تساءل تي إكس في فضول: «هل سينفجر؟»

«لا، لا!»

وجَّه تي إكس ذلك الشيء نحو السجادة إلى أسفل وضغط على المقبض بحذر. وحين فعل ذلك انطلق صوتُ هسيسٍ حاد وتلطخت الأرضية بالسائل الذي كانت تلك الأداة تحويه. لم تخرج سوى دفقة واحدة من السائل لا أكثر. فنظر تي إكس إلى أسفل. كان لون السجادة الزاهي قد تغيَّر بالفعل، وانبعث منها دخان. وامتلأت الغرفة برائحةٍ نفَّاذة وغير مستساغة. فتحوَّل تي إكس ببصره من السجادة إلى الرجل الشاحب الوجه.

قال وهو يهز رأسه في إعجاب: «أظنه زيت الزاج.» وتابع: «يا لك من صديق عزيز!»

كان الرجل، على ضخامته، على شفا الانهيار وراح يتمتم بشيء عن الدفاع عن النفس، وأنصت دون أن ينطق بكلمةٍ بينما مضى تي إكس، الذي كان يرزح تحت وطأة انفعالٍ له ما يبرِّره تمامًا، يصف كارا، وأسلافه، واحتمالات مستقبله.

استعاد اليوناني توازنه وهدوءه ببطء شديد.

قال مدافعًا ومتوسلًا: «لم أكن أنوي استخدامه لإيذائك، وأقسم على ذلك.» وأردف: «أنا محاطٌ بالأعداء، يا ميرديث. وعليَّ أن أحمل وسيلةً ما من أجل الحماية. إن أعدائي لا يحاولون مواجهتي لأنهم يعلمون أنني أحمل هذا الشيء. أقسم على أنني لم أكن أنتوي استخدامه لإيذائك. إنها فكرةٌ مستحيلة تمامًا. وأنا أعتذر عن خداعي لك بشأن الخزنة.»

قال تي إكس: «لا تقلق بشأن ذلك.» وتابع: «أخشى أنني أنا مَن قام بالخداع كله.» وأضاف حين مدَّ اليوناني يده ليأخذ الأداة الصغيرة اللعينة: «لا، لا أستطيع أن أدعك تستعيدها مجددًا.» وأردف: «لا بد أن آخذها إلى سكوتلاند يارد، مرَّ وقت طويل جدًّا منذ وقع في أيدينا أيُّ شيء جديد بهذا الشكل. أظنه هواءً مضغوطًا.»

أومأ كارا بجدية بالإيجاب.

قال تي إكس: «أنت مبدع جدًّا حقًّا.» وتابع: «لو كنت بمثل ذكائك ...» ثم توقَّف برهةً وأضاف وهو يغادر الغرفة: «لفعلت به شيئًا ... بواسطة مسدس.»

الفصل التاسع

عزيزي السيد ميرديث

لا يسعني أن أصف لك مدى ما أشعر به من بؤس وخزي من تلك النهاية المزعجة التي آلت إليها دُعابتي الصغيرة معك. كما تعلم، وكما أثبتُّ لك بالدليل، فإنني أكنُّ كلَّ الإعجاب لذلك الشخص الذي حظي عمله من أجل الإنسانية بمثلِ هذا التقدير والإعجاب الكبير.

أتمنى منك أن تنسى ذلك الصباحَ التَّعِس وأن تتيح لي فرصةً كي أقدِّم لك شخصيًّا الاعتذارات المستحقة لك. أشعر أن أيَّ شيءٍ أقلَّ من ذلك لن يعيد لي احترامك، ولن يكفل لي بقايا احترامي المحطَّم لنفسي.

أتمنى أن تتناول معي العشاء الأسبوع القادم، وتلتقي رجلًا مثيرًا للاهتمام للغاية، هو جورج جاذركول، العائد لتوه من باتاجونيا — لقد تلقيت خطابه هذا الصباح فقط — بعد أن قام باستكشافاتٍ استثنائيةٍ تتعلَّق بهذا البلد.

أنا واثق من أنك أكثرُ تفتحًا وخبرةً بشئون الحياة بحيث لا تسمح لنوبة غضبي الحمقاء تلك بأن تفسد صداقةً طالما تمنيت أن تكون صداقة لطيفة وطيبة لكلينا. إذا كنت ستسمح لجاذركول، الذي لن يكون على درايةٍ بالدور الذي يلعبه، بأن يكون حمامةَ السلام بينك وبيني، فسوف أشعر بأن رحلته، التي كلفتني مبلغًا طائلًا من المال، لم تذهب سدًى.

مرسل إلى السيد العزيز ميرديث
مع خالص احترامي،
رمينجتون كارا

طوى كارا الخطاب ووضعه داخل مظروفه. ثم قرع جرسًا على مكتبه وجاءت الفتاة التي ملأت نفس تي إكس بشعور من المهابة من غرفة مجاورة.

«تأكدي من تسليم هذا، يا آنسة هولاند.»

أمالت رأسها ووقفت منتظرة. ونهض كارا من خلف مكتبه وبدأ يذرع الغرفة جَيئة وذهابًا.

ثم سألها فجأة: «هل تعرفين تي إكس ميرديث؟»

قالت الفتاة: «سمعت عنه.»

قال كارا: «إنه رجل ذو عقلية فريدة؛ رجل سوف يخفق معه سلاحي المفضَّل.»

نظرت إليه وفي عينيها نظرةُ فضول واهتمام.

سألته: «وما سلاحك المفضَّل، يا سيد كارا؟»

قال: «الخوف.»

إن كان قد توقَّع منها أن تمنحه أيَّ دفعة تشجيع كي يتابع حديثه، فقد خاب أمله. على الأرجح أنه لم يكن بحاجةٍ إلى مثل هذا التشجيع؛ إذ كان يستأثر بالحديث إلى حدٍّ ما في وجود مَن هم أدنى منه اجتماعيًّا.

قال: «اقطعي لحم آدمي، وسوف يلتئم.» وتابع: «اجلدي رجلًا وسوف يتلاشى الأمر من ذاكرته، أخيفيه واملئي نفسه بشعور من التوجس والخوف ودعيه يعتقد أن شيئًا رهيبًا سوف يحدث إما له وإما لشخصٍ يحبه — ويفضل أن يكون ذلك

الأخير — وسوف تُلحقين به ألمًا لن يمحوَه النسيان. فالخوف طاغيةٌ متجبِّر، أبشعُ من المِخْلَعة، وأقوى من الخازوق. الخوف له عيونٌ كثيرة ويرى الفظائع حيث لا يرى البصر العادي سوى التفاهات.»

سألته بهدوء: «أهذه عقيدتك؟»

ابتسم قائلًا: «جزءٌ منها، يا آنسة هولاند.»

أخذت تعبث في فتورٍ بالخطاب الذي كانت تحمله في يدها، وتؤرجحه على حافة المكتب، وعيناها تنظران لأسفل.

تساءلت: «ما الذي من شأنه أن يبرِّر استخدام مثل هذا السلاح البشع؟»

قال بلا مبالاة: «ما يبرِّره هو إدراك غايةٍ ما، وهو مبرِّر كافٍ تمامًا. على سبيل المثال، أنا أريد شيئًا، ولا أستطيع الحصول على هذا الشيء عبر القناة العادية وباستخدام الوسائل العادية. ومن الضروري أن أمتلك هذا الشيء، من أجلي، أو من أجل سعادتي، أو راحتي، أو لتقديري لذاتي. إذا كان بوسعي شراؤه، فهذا جيد ورائع. وإذا كان بوسعي شراء أولئك الذين يستطيعون استخدام نفوذهم لجلب هذا الشيء لي، فهذا أفضل وأفضل. وإذا استطعتُ الحصول عليه من خلال أي صلاحية أمتلكها، فسأستغل هذه الصلاحية، ويشترط دومًا أن أستطيع الحصول على الشيء الذي أريده في الحال، وإلا …»

ثم هز كتفَيْه.

قالت مومِئة برأسها بحركة سريعة: «فهمت.» وتابعت: «أعتقد أن هذا هو ما يرتئيه المبتزُّون.»

قطَّب كارا جبينه.

ثم قال: «تلك كلمةٌ لا أستخدمها أبدًا، ولا أحب أن أسمعها تُستخدَم.» وأردف: «فكلمة الابتزاز توحي لي بمحاولةٍ مبتذلةٍ للحصول على المال.»

قالت الفتاة بابتسامةٍ واهية: «وهو ما يحتاجه بشدة الأشخاص الذين يستخدمونه عمومًا، وبحسب حُجَّتك، فهم أيضًا لديهم ما يبرِّر فِعلتهم.»

قال بأسلوب متعجرف: «إنها مسألة رؤًى.» وأضاف: «هم من وجهة نظري مجرمون منحطون، ذلك النوع من الأشخاص الذين يصادفهم تي إكس، حسبما أعتقد، في سياق عمله اليومي.» وأردف بنبرة غامضة بعض الشيء: «إن تي إكس رجل أُكنُّ له وافر الاحترام. سوف تقابلينه ثانية على الأرجح؛ لأنه سيبحث عن فرصةٍ كي يسألك بعض الأسئلة بشأني. لستُ بحاجةٍ لأن أخبركِ ...»

ورفع كتفَيْه بابتسامة استنكارية.

قالت الفتاة ببرود: «بالطبع لن أناقش أمور عملك مع أي شخص.»

قال: «أظن أنني أدفع لك ٣ جنيهات أسبوعيًّا.» وأضاف: «وأعتزم زيادتها إلى ٥ جنيهات؛ نظرًا لتوافقك الرائع معي.»

قالت الفتاة: «شكرًا لك، ولكن ما أتقاضاه كافٍ تمامًا.»

وتركته وقد أصابه القليل من الدهشة، والكثير من الانزعاج.

كان رفض عطايا رمينجتون كارا، بالنسبة إليه، شيئًا من قبيل الإهانة. فقد كان نصف نزاعه مع تي إكس بسبب عدم الاكتراث الغريب من قِبل الرجل بالأسلوب السخي الذي كان كارا ينتهجه دائمًا في تعاملاته مع المحقِّق.

قرع الجرس، ولكن هذه المرة لخادمه.

قال له: «فيشر، أنا في انتظار زيارةٍ من رجلٍ يُدعى جاذركول؛ إنه رجل ذو ذراع واحدة ولا بد أن تعتني به جيدًا حال مجيئه. حاول استبقاءه بذريعةٍ أو أخرى؛ لأنه رجلٌ من الصعب الإبقاء عليه إلى حدٍّ ما، وأنا أرغب في رؤيته. سوف أخرج الآن وسأعود في السادسة والنصف. افعل كلَّ ما بوسعك فعله لمنعه من الانصراف حتى أعود. سيكون مهتمًّا بالبقاء على الأرجح إذا أدخلته إلى المكتبة.»

قال الخادم الدَّمِث: «جيد جدًّا، يا سيدي، هل ستبدل ثيابك قبل أن تخرج؟»

هزَّ كارا رأسه نفيًا.

قال: «أعتقد أنني سأخرج كما أنا.» وتابع: «أحضِر لي معطفي الفرو. هذا البرد القارس يكاد يقتلني»، وارتجف وهو ينظر إلى الشارع الكئيب. وأضاف: «أبقِ نيران المدفأة مشتعلة، وضع كلَّ خطاباتي الخاصة في غرفة نومي، وتأكَّد من تناول الآنسة هولاند لغدائها.»

تَبِعه فيشر إلى سيارته، ولفَّ دثاره المصنوع من الفرو حول ساقيه، وأغلق الباب جيدًا وعاد إلى المنزل. ومن هذه اللحظة فصاعدًا صار سلوكه غيرَ مألوف إلى حدٍّ ما بالنسبة إلى خادم دمث الخلق. كانت عودته إلى مكتب كارا وترتيب أوراقه أمرًا طبيعيًّا وضروريًّا.

كان إجراؤه فحصًا سريعًا لجميع الأدراج في مكتب كارا أمرًا ربما يُعزى إلى الحذر والحيطة؛ إذ كان إلى حدٍّ ما محلَّ ثقة مخدومه.

كان كارا ينزع إلى مصادقة خادميه ... إلى حدٍّ معيَّن. وفي لحظاته الأكثر سخاء كان يخاطب حارسه الشخصي باسم «فريد»، وفي أكثر من مناسبة، ولسببٍ غيرِ واضح، كان يمنحه أموالًا فوق راتبه.

لم يجنِ السيد فريد فيشر الكثيرَ من وراء تفتيشه إلى أن عثر على دفتر شيكات كارا، الذي علِم منه أن اليوناني قد سحب في اليوم السابق ٦ آلاف جنيه نقدًا من البنك. أثار ذلك اهتمامه بشدة، وأعاد دفتر الشيكات بشفتَيْن مزمومتَيْن ونظرة ثابتة، ما يوحي بأنه كان يفكِّر سريعًا. توجَّه إلى المكتبة، حيث كانت السكرتيرة منهمكةً في صنْع نسخٍ من مراسلات كارا، والرد على الرسائل التي تحوي مطالبات بتبرعات خيرية، وبالكلمات الرديئة المعتاد استخدامُها دائمًا من قِبَل سكرتيرات علية القوم.

راح يذكي النيران، وسألها باحترام ووقار إن كان ثمَّة أي تعليمات، ثم عاد مجددًا إلى بحثه. وفي هذه المرة جعل غرفة النوم مسرحًا لتحقيقاته. لم يحاول أن يلمس الخزنة، ولكن كان ثمَّة مكتب صغير يضع فيه كارا رسائله الخاصة التي تصله صباحًا. غير أن هذا لم يسفر عن أي نتائج.

كان يوجد بجوار السرير هاتف على منضدة صغيرة، لم يكن منظره على ما يبدو يمنحه الكثير من التسلية. كان هذا هو الهاتف الخاص الذي لعب كارا دورًا فعالًا في توصيله بمقر سكوتلاند يارد، مثلما أوضح لخادميه.

قال فيشر: «محتال بارع.»

توقَّف لحظة أمام باب الغرفة المغلق، وبابتسامة راح يُعاين المزلاج الفولاذي الكبير الذي يغطي الباب وكان مدمجًا داخل تجويف مفصلي من الصلب مثبت بإحكام بهيكل الباب. رفع المزلاج بحذر، وكان هناك مقبض صغير لهذا الغرض، وجعله يهبط برفق داخل التجويف المفصلي الذي صُمِّم بحيث يكون المزلاج على الباب نفسه.

قال مرة أخرى: «محتال بارع»، وبعد أن رفع المزلاج إلى المشبك الذي يحمله، غادر الغرفة، مغلقًا الباب برفق وراءه. سار عبر الممر، بتقطيبة تأملية، وشرع يهبِط السُّلم المؤدي إلى الرَّدهة.

كان قد قطع أقلَّ من نصف الطريق إلى أسفل حين صعدت إحدى الخادمات بمنزل كارا لملاقاته.

قالت: «هناك رجل يرغب في مقابلة السيد كارا، وهذه بطاقته.»

أخذ فيشر البطاقة من الخادمة ووجد مكتوبًا فيها «السيد جورج جاذركول، نادي جونيور ترافيلرز.»

قال باهتمامٍ نشطٍ مفاجِئ: «سوف أقابل هذا السيد.»

وجد الضيف واقفًا في الرَّدهة.

كان رجلًا يجذب الأنظار، وإن كان ذلك فقط لطبيعة ثيابه الغريبة نوعًا ما، ومظهره الأشعث. كان يرتدي معطفًا مهترئًا ذا تربيعات واضحة، ويعتمر قبَّعة سوداء عالية لامعة وتبدو جديدة في مؤخرة رأسه، وكان الجزء السفلي من وجهه تكسوه لحية شعثاء غير مشذبة. كان ينتف شعيراتها بحركاتٍ متوتِّرة، ويحدِّث نفسه في تلك الأثناء، ويرمق صورة رمينجتون كارا الشخصية المعلَّقة فوق رف المدفأة الرخامي بنظرة ازدراء. استقرت نظارةٌ أنفية على أنفه باعوجاج، واكتملت الصورة بكتابين كبيرين تحت ذراعه. لاحظ فيشر، الذي كان مراقبًا حادَّ الذهن والبصيرة، أن المعطف يخفي أسفله حلَّةً زرقاء مجعَّدة، وحذاءً طويلًا أسودَ كبيرَ الحجم، وزوجًا من أزرار زينة من اللؤلؤ.

أخذ الوافد الجديد يحملق بقوة في الخادم.

ثم قال له بلهجة آمرة قاطعة: «خذ هذين!» وأشار إلى الكتابين القابعين تحت ذراعه.

سارع فيشر ليمتثل إلى الأمر ولاحظ بشيء من التعجب أن الضيف لم يحاول مساعدته، سواء بتحريك ذراعه عن الكتابين أو رفعها. ودون قصد ضغطت يدُ الخادم على كُمِّ الآخر وتلقى على أثر ذلك صدمة؛ إذ كان واضحًا أن الساعد كان اصطناعيًّا. فقد ارتطمت مفاصل أصابعه بسطح خشبي أسفل الكم، وتأكدتْ فكرةُ إصابة الغريب بعاهة حين لفَّ الآخرُ يده اليمنى وأمسك بيده اليسرى المكسوة بقفاز ودسَّها في جيب معطفه.

قال الغريب مزمجرًا: «أين كارا؟»

قال فيشر الدمث: «سوف يعود بعد قليل، يا سيدي.»

دوَّى صوت الضيف وهو يقول: «أهو بالخارج؟» وتابع: «إذن لن أنتظر. ماذا يقصد بالتواجد بالخارج بحق الجحيم؟ كان أمامه ثلاث سنوات ليخرج فيها!»

«السيد كارا ينتظر مجيئك، يا سيدي. لقد أخبرني أنه سيكون هنا في الساعة السادسة على أقصى تقدير.»

انفعل الرجل في نفاد صبر قائلًا: «السادسة، يا إلهي.» وأردف: «أأنا بهذه الضآلة كي أضطر للانتظار حتى السادسة؟»

وجذب لحيته جذبة عنيفة خفيفة.

«الساعة السادسة، أليس كذلك؟ أخبِر السيد كارا أنني حضرت. أعطني هذين الكتابين.»

قال فيشر متلعثمًا: «لكني أؤكد لك، يا سيدي ...»

قال الآخر بصوت هادر: «أعطني هذين الكتابين!»

وأخرج يده اليسرى من جيبه بحركةٍ رشيقة، وثنى المرفق بحركة سريعة، وأعاد الكتابين، اللذين أعطاهما له الخادم على مضض بالغ، إلى المكان الذي أخذهما منه مرة أخرى.

«أخبِر السيد كارا بأنني سأحضر وقتما أشاء، هل تفهم، وقتما أشاء. طاب صباحك.»

قال فيشر المضطرب في توسُّل: «فقط لو انتظرت، يا سيدي.»

قال الآخر في سخط: «تبًّا للانتظار.» وأردف: «أخبرتك أنني قد انتظرت ثلاث سنوات. أخبِر السيد كارا بأن ينتظرني في أي وقت!»

وخرج ودون أي داعٍ صفق الباب بقوة وراءه. عاد فيشر إلى المكتبة. كانت الفتاة تغلق بعض الخطابات عند دخوله فرفعت بصرها إليه.

«أخشى أنني قد أوقعت نفسي في مأزق خطير جدًّا يا آنسة هولاند.»

تساءلت الفتاة: «ما الأمر، يا فيشر؟»

«كان هناك سيدٌ جاء لمقابلة السيد كارا، وكان السيد كارا يرغب في مقابلته بشدة.»

قالت الفتاة بسرعة: «السيد جاذركول.»

أومأ فيشر إيجابًا.

«أجل يا آنسة، لكني لم أستطِع أن أستبقيه.»

زمَّت شفتيها في تأمل.

«سوف يغضب السيد كارا بشدة، ولكني لا أعرف كيف كان يمكنك التصرُّف. ليتك استدعيتني.»

قال فيشر بابتسامةٍ خفيفة: «لم يمنحني أي فرصة إطلاقًا، لكن إذا جاء ثانية، سوف أحضره إليكِ مباشرة.»

أومأت برأسها.

سألها وهو واقف عند الباب: «أتريدين أيَّ شيء، يا آنسة؟»

«في أيِّ وقتٍ قال السيد كارا إنه سيعود؟»

أجاب الرجل: «في السادسة، يا آنسة.»

«يوجد خطاب مهم إلى حدٍّ ما هنا يجب تسليمه.»

«هلا أتصل بمرسال؟»

«كلا، لا أظن ذلك مستحسنًا. من الأفضل أن تأخذه بنفسك.»

كان من عادة كارا الاستعانة بفيشر كمرسال خاص حين يتطلب الموقف الاستعانة به في مهمة كتلك.

قال: «سأذهب بكل سرور، يا آنسة.»

كانت فرصة أرسلتها السماء إلى فيشر، الذي كان يختلق أي عذر لمغادرة المنزل. ناولته الخطاب وقرأ العنوان دون أن يرمش له جفن:

حضرة المحترم تي إكس ميرديث، إدارة الخدمات الخاصة، سكوتلاند يارد، وايتهول.

وضعه بحرص في جيبه، وغادر الغرفة كي يبدِّل ثيابه. لم يستعِن كارا بطاقم اعتيادي من الخدم، على كبر حجم المنزل. فكان طاقم العاملين داخل المنزل يتألف برمَّته من خادمة وخادم خاص. أما طاهيه، والخدم الآخرون، اللازمون لإدارة منزل بذلك الحجم، فكانوا يُستأجرون باليوم.

عاد كارا من الريف مبكرًا عن المتوقَّع، وبخلاف فيشر، كان الشخص الآخر الوحيد في المنزل إلى جانب الفتاة هي الخادمة المتوسطة العمر التي كانت خادمةَ استقبال، وخادمةً للأعمال المنزلية، ومدبِّرة منزل في آنٍ واحد.

جلست الآنسة هولاند إلى مكتبها تراجع الخطابات التي نسختها في عصر ذلك اليوم، حسبما بدا، ولكن كان ذهنها شاردًا تمامًا عن الخطابات التي أمامها. سمعت صوت إغلاق الباب الأمامي الخافت، فنهضت من مكانها واجتازت الغرفة بخطًى سريعة ونظرت إلى الشارع من النافذة. ظلت تراقب فيشر حتى اختفى عن ناظريها، ثم نزلت إلى الرَّدهة ومنها إلى المطبخ.

لم تكن الزيارة الأولى لها للغرفة الكبيرة الكائنة تحت الأرض بسقفها المقبَّب، ومواقدها الكبيرة، التي قلما كانت تستخدم في تلك الأيام؛ إذ لم يكن كارا يقيم مآدب عشاء.

نهضت الخادمة، التي كانت تقوم بأعمال الطهي كذلك، فور دخول الفتاة.

ابتسمت الخادمة قائلة: «كم تسعدني رؤيتكِ في مطبخي، يا آنسة!»

قالت الفتاة بنبرةٍ تعاطف: «من المؤسف أنكِ بمفردكِ يا سيدة بيل.»

صاحت الخادمة قائلة: «بمفردي، يا آنسة!» وتابعت: «أشعر برعب شديد للجلوس هنا ساعة بعد ساعة. ذلك الباب هو مدخل الضيق والسخط لي.»

وأشارت إلى أقصى المطبخ نحو بابٍ ملطَّخ من خشب غير مطليٍّ.

«ذاك هو قبو النبيذ الخاص بالسيد كارا، لا أحد دخله قط سواه. أعلم أنه يدخله في بعض الأحيان؛ لأنني جربتُ حيلةً علَّمها لي أخي، الذي يعمل شرطيًّا. قمتُ ببسط قطعة من القطن الأبيض عبره ووجدتها متكسرة في صباح اليوم التالي.»

قالت الفتاة بهدوء: «السيد كارا يحتفظ ببعضٍ من أوراقه الخاصة هناك، لقد أخبرني بذلك بنفسه.» قالت السيدة بنبرة تشكك: «أتمنى لو كان قد أغلقه بالطوب، مثلما فعل مع القبو السفلي؛ فأنا أرى أهوالًا وأنا جالسة هنا ليلًا، متوقعة أن ينفتح الباب ويظهر شبح اللورد المجنون؛ ذلك اللورد الذي لقي مصرعه في أفريقيا.»

ضحكت الآنسة هولاند.

ثم قالت: «أريد منكِ أن تتسوقي الآن؛ فقد نفدت طوابع البريد من عندي.»

امتثلت السيدة بيل للأمر بسرور، وبينما كانت ترتدي قبعة؛ إذ كانت حريصة على الحفاظ على هيبتها في أعين سكان كادوجان سكوير، صعدت الفتاة إلى الطابق العلوي.

ومرة أخرى راحت تراقب الخادمة من النافذة حتى اختفت عن الأنظار.

وما إن غابت عن ناظريها حتى بدأت الآنسة هولاند العمل بتروٍّ وإتقان ملحوظَيْن. فأخرجت من حقيبتها كيس نقود صغيرًا وفتحته. كان في ذلك الكيس مفتاح صلب جديد. اجتازت الممر سريعًا إلى غرفة كارا واتجهت مباشرة إلى الخزنة.

وفي غضون ثانيتين كانت الخزنة قد فُتحت وجلست تفحص محتوياتها. كانت خزنةً ضخمةً من النوع المألوف. كان بها أربعة أدراج من الصلب في الخلف وأسفل الصندوق الفولاذي. كان اثنان من هذه الأدراج مفتوحَين ولم يحويا أيَّ شيء مثير للاهتمام، عدا بعض الحسابات الخاصة بممتلكات كارا في ألبانيا.

أما الدرجان العلويان، فكانا مغلقَين. كانت متأهبةً لهذا الطارئ، وكان بحوزتها مفتاح ثانٍ بنفس كفاءة الأول. لم يسفر تفتيشها للدرج الأول عن كلِّ ما توقعته. فأعادت الأوراق إلى الدرج، ودفعته إلى الداخل وأغلقته. تحوَّلت بانتباهها إلى الدرج الثاني. اهتزت يدها قليلًا وهي تجذبه لفتحه. فقد كانت تلك فرصتها الأخيرة، وآخر أمل لها.

كان الدرج شبه ممتلئ بعدد من صناديق مجوهرات صغيرة. فأخرجتها واحدًا تلو الآخر لتجد أسفلها ما كانت تبحث عنه، والذي كان يشغل بالها على مدار الأشهر الثلاثة الماضية.

كان عبارة عن صندوقٍ مربَّع الشكل مكسو بغلاف من جلد مغربي أحمر. أقحمت يدها المرتجفة وأخرجته بصيحة انتصار خافتة.

قالت بصوتٍ عالٍ: «أخيرًا»، وحينئذٍ قبضت يدٌ على رسغها فالتفتت في وجَلٍ لتجد أمامها وجه كارا المبتسم.

الفصل العاشر

شعرت بركبتيها ترتجفان تحتها، وظنت أنها سيُغشى عليها. مدَّت يدها الحرة كي توازن نفسها، وإذا كان وجهها الملتفت شاحبًا، فقد كان في عينيها الداكنتين إيحاءٌ بعزمٍ راسخ لم يتزعزع.

قال كارا بأرق نبرة لديه: «دعيني أريحك من ذلك، يا آنسة هولاند.»

وانتزع الصندوق من يديها بقوة نوعًا ما، وأعاده بحرص إلى الدرج، ودفع الدرج إلى الداخل وأغلقه، وراح يتفحص المفتاح وهو يسحبه من ثقبه. ثم أغلق الخزنة وأوصدها بالقفل.

بعد قليل قال: «من الواضح أنني لا بد أن أحصل على خزنة جديدة.»

لم يُرخِ قبضته عن معصمها ولم يتركها حتى اقتادها من الغرفة عائدًا بها إلى المكتبة. حينئذٍ أعتق الفتاة من قبضته، ووقف بينها وبين الباب، عاقدًا ذراعيه، وقد ارتسمت على وجهه الوسيم ابتسامته الهادئة التي تحمل أمارات السخرية والتهكم.

قال ببطء: «ثمَّة إجراءات عدة يمكنني اتخاذها.» وتابع: «بإمكاني أن أستدعي الشرطة ... حين يعود خادماي اللذان أبعدتِهما على نحوٍ مدروسٍ تمامًا، أو يمكنني أن أتولى عقابكِ بنفسي.»

قالت الفتاة ببرود: «عن نفسي، أرى أن من الأفضل أن تستدعي الشرطة.»

واتكأت على حافة المكتب، ممسكة إياها بيديها، ووقفت في مواجهته دون أن يخالجها أيُّ شعور بالارتعاش.

قال كارا متأملًا: «لا أحب الشرطة»، وفي تلك اللحظة جاء صوتُ طرْق على الباب.

استدار كارا وفتحه وبعد حديث خفيض متوتر، عاد وأغلق الباب ووضع على مكتب الفتاة فرخًا من طوابع البريد.

«كما كنت أقول، لستُ مهتمًّا باستدعاء الشرطة، وأفضِّل طريقتي. ففي هذا الموقف بالذات لن تنفعني الشرطة بأي نحو؛ لأنكِ لا تخشينهم وأغلب الظن أنكِ تعملين لصالحهم، هل أنا محقٌّ في افتراض أنكِ واحدةٌ من أعوان السيد تي إكس ميرديث؟!»

أجابت بهدوء: «لا أعرف السيد تي إكس ميرديث، ولست متواطئة مع الشرطة بأي نحو.»

قال في إصرار: «ولكن لا يبدو أنكِ تخافينهم، وهذا يزيل من داخلي أيَّ نزعة قد تُراودني لأضعكِ بين يدَي القانون. دعيني أرى»، وزمَّ شفتَيْه وهو يقلِّب المسألةَ في ذهنه.

كانت في وضعية ما بين الوقوف والجلوس، وأخذت تراقبه دون أدنى دليل ظاهر على شعورها بالخوف، ولكن كان قلبها قد بدأ يرتجف قليلًا. فقد ظلت على مدى ثلاثة أشهر تلعب دورها وكان التوتر أشدَّ مما اعترفت به لنفسها. وها قد حانت اللحظة الكبرى وكان الفشل حليفها. وكان ذلك هو الشيء المثير للاشمئزاز والسخط في الأمر كله. لم يكن الخوف من الاعتقال أو الإدانة هو ما أوقع الهلع في قلبها؛ بل يأس الفشل، إلى جانب شعورها بالعجز وقلة الحيلة أمام هذا الرجل.

قال بحدة وحسم: «إذا جعلت الشرطة تلقي القبض عليكِ، فسوف يظهر اسمكِ في كل الصحف، بالطبع»، وأضاف بأسلوبٍ مثير: «وربما ستزين صورتُكِ صحفَ الأحد.»

ضحكَت.

ثم قالت: «لا يروق لي ذلك.»

أجابها قائلًا: «يؤسفني أنه لا يروق لكِ»، وسار نحوها على مهلٍ وكأنه سيتجاوزها وهو في طريقه إلى النافذة. كان واقفًا بجانبها حين استدار فجأة وأمسك بها بين ذراعيه مقربًا إياها نحوه. وقبل أن تدرك ما ينتويه، انحنى سريعًا وطبع شفتيه على شفتيها مقبلًا إياها.

قال: «إذا صرختِ، فسوف أقبِّلك مرة أخرى؛ لأنني أرسلت الخادمة لتشتري المزيد من طوابع البريد … من مكتب البريد العام.»

قالت لاهثة: «دعني.»

في تلك اللحظة، ولأول مرة، أبصر الرعب في عينيها، وسرى في أوصاله ذلك الشعور الجنوني بالانتصار؛ نشوة القوة التي ارتبطت بالأيام المشهودة في حياته المعوجة.

مازحها شبه هامس قائلًا: «أنتِ خائفة! — أنتِ خائفة الآن، أليس كذلك؟ إذا صرخت، فسوف أقبِّلك مرة أخرى، هل تسمعين؟»

قالت في همس: «دعني أذهب، لأجل الرب.»

شعر بجسدها يرتعش بين ذراعيه، وفجأة تركها مُطلقًا ضحكةً خفيفة، وانهارت على الكرسي المجاور لمكتبها وهي ترتعش من رأسها إلى أخمص قدميها.

تابع حديثه بأسلوبٍ فظ: «الآن سوف تخبريني مَن أرسلكِ إلى هنا، وسببَ مجيئك. لم يساورني فيكِ أدنى شك. اعتقدت أنكِ واحدة من تلك المخلوقات الغريبة التي يقابلها المرء في إنجلترا، سيدة نبيلة تفضِّل العمل من أجل كسب قوتها على أن تتخذ الطريق الأسهل، وهو الزواج. وطوال الوقت أنت تتجسسين عليَّ … يا لبراعتكِ الشديدة!»

كانت الفتاة تفكِّر بسرعة. سوف يعود فيشر في غضون خمس دقائق. كان لديها ثقة، بطريقةٍ أو بأخرى، في قدرة فيشر واستعداده لإنقاذها من موقفٍ أدركَت أنه محفوفٌ بأشد المخاطر بالنسبة إليها. كانت خائفةً بشدة. فقد كانت تعرف هذا الرجل أكثر مما كان يظن، وتدرك ما يتصف به من الغدر وانعدام الضمير. كانت تعلم أنه لن يقف مكتوفَ الأيدي، وأنه بلا شرفٍ وليس به خَصلةٌ واحدة من خصال الخير والفضيلة.

ولا بد أنه قد قرأ أفكارها؛ إذ دنا منها أكثر ووقف يحوم حولها.

قال بضحكةٍ مكتومة: «لا داعيَ للخوف، يا صديقتي الصغيرة.» وتابع: «سوف تفعلين ما أريدكِ أن تفعليه، وأول شيءٍ ستفعلينه هو مرافقتي إلى أسفل. انهضي.»

رفعها جزئيًّا، ثم جذبها جزئيًّا لتقف على قدمَيْها، واقتادها إلى خارج الغرفة. نزلا معًا إلى الرَّدهة دون أن تنطق الفتاة بكلمة واحدة. ربما تمنَّت أن تحرِّر نفسها من قبضته وتهرب إلى الشارع، ولكن خاب أملها في ذلك. فقد كانت القبضة المحيطة بذراعها قبضةً من فولاذ، وكانت تعرف أن النجاة لا تكمن في ذلك الاتجاه. تراجعَت عند قمة السلم المؤدي إلى المطبخ.

تساءلَت: «إلى أين تأخذني؟»

قال: «سوف أضعكِ في معتقلٍ آمن.» وأضاف: «أعتقد في العموم أن من الأفضل أن تتولَّى الشرطة هذا الأمر وسوف أحتجزكِ في قبو النبيذ الخاص بي وأخرج للبحث عن شرطيٍّ.»

فُتح الباب الخشبي الكبير، كاشفًا عن بابٍ آخر، والذي فتحه كارا. لاحظت أن كلا البابين مصفَّح بالفولاذ، وكان الباب الخارجي مصفَّحًا من الداخل، والباب الداخلي مصفَّحًا من الخارج. لم يسمح لها الوقت بتسجيل أيِّ ملاحظات أخرى؛ إذ دفعها كارا في غياهب القبو المظلمة. ثم أشعل ضوءًا.

قال وهو يدفعها مرة أخرى حين أقدمت على محاولةٍ هوجاء للهرب: «لن أحرمكِ من ذلك.» ودفع الباب الخارجي حين رفعت صوتها مطلقةً صرخةً حادة، وبعد أن أطبق يده على فمِها، أمسك بها بقوةٍ لحظةً.

قال هامسًا: «لقد حذرتكِ.»

رأت ملامح وجهه مشوَّهة من فرط ثورته. رأت كارا وقد تبدَّل شكلُه بفعل غضب شيطاني، رأت ذلك الوجه الوسيم الأشبه بملامح الآلهة مغروزًا في وجهها، وقد احتقن وتغضَّن بالشر وبكراهيةٍ استعصى عليها فهمُها، وحينئذٍ خانتها حواسُّها، وخرَّت بين ذراعيه فاقدةً الوعي.

•••

حين استردت وعيها وجدت نفسها ممددة على محفة بسيطة. جلست منتصبة فجأة. كان كارا قد ذهب والباب مغلق. وكان القبو جافًّا ونظيفًا وكانت جدرانه مطليةً باللون الأبيض. كان مصدر الضوء في القبو مصباحَين كهربائيَّين في السقف. وكان يوجد طاولة وكرسي وحوض اغتسال صغير، وكان مصدر الهواء مروحتَي تهوية غيرَ ظاهرتين. كان سجنًا بحق، وفي لحظاتِ فزعها الأولى وجدت نفسها تتساءل إن كان كارا قد استخدم زنزانته تلك الكائنة تحت الأرض لغرضٍ مماثل من قبل.

تفحَّصت الغرفةَ بدقة. كان يوجد في أقصى أطرافها بابٌ آخر، دفعته برفقٍ في البداية، ثم دفعته بقوة ولكن دون أي نتيجة. كانت حقيبتها لا تزال بحوزتها، وهي حقيبة صغيرة من نسيجٍ مموَّجٍ أسود اللون، يتدلَّى من حزامها، ولم يكن بها أيُّ شيء ذي قيمة أكثر من مطواة، وزجاجة صغيرة من النشادر، ومقص. كانت تستخدم ذلك الأخير في قص تلك الفقرات التي تشير إلى تحركات كارا في الصحف اليومية.

كان المقص بمنزلة سلاح رائع، وبعد أن لفّت منديلها على مقبضه كي تتحكم فيه على نحوٍ أفضل، وضعته على الطاولة القريبة منها. كانت طوال الوقت تدرك، وإن كان إدراكًا خافتًا، أنها قد سمعت شيئًا عن قبو النبيذ هذا؛ شيئًا إذا استطاعت تذكُّره، فسيسديها نفعًا.

بعدها تذكَّرت فجأةً أنه كان ثمَّة قبو سفلي، لم يُستخدم وأُغلق بالطوب حسبما قالت السيدة بيل. كان الدخول إليه من الخارج، عبر سلَّم دائري. ربما كان هناك مخرج من ذلك الاتجاه ولا يوجد أي وصلة بين القبو العلوي والسفلي!

بدأت تعاين المكان بدقة.

كانت الأرضية من الخرسانة، ومغطاةً بحصير خفيف من السَّمَار. طوَت هذا الحصير بحرص، مبتدئة من عند الباب. فصار نصف الأرضية مكشوفًا دون أن يتبيَّن وجود أي باب سري. حاولت جذب الطاولة إلى منتصف الغرفة، حتى تستطيع طي الحصير على نحوٍ أفضل، ولكنها وجدتها مثبتة بالحائط، وحين جثت على ركبتيها، اكتشفت أنها قد ثُبتت بعد فرش الحصير.

كان واضحًا أنه لم يكن ثمَّة داعٍ للتثبيت، وأخذت تنقر على الأرضية بعقلة إصبعها الصغير. وبدأت نبضات قلبها تتسارع. فقد كان الصوت الذي صدر عن طرقها على الأرض صوتًا أجوفَ. فانتفضت وأخذت حقيبتها من فوق الطاولة، وفتحت المطواة الصغيرة وأخذت تقطع الحصير الرفيع بحرص. ربما كان عليها أن تعيد الحصير وكان لزامًا أن تؤدي عملها على نحوٍ دقيق ومنظم.

وسرعان ما تكشَّف البابُ السريُّ كاملًا. كانت هناك حلقة حديدية، مدمجة بالغطاء، فجذبتها. انفتح غطاء الباب السري، واندفع للخلف وكأنه كان هناك ثقلٌ موازن في الطرف الآخر، وهو ما كان موجودًا بالفعل. حدقت النظر بالأسفل. كان يوجد ضوء خافت بالأسفل، وهو انعكاس ضوء قادم من بعيد. كان هناك سلَّم يؤدي إلى الطابَق السفلي، وبعد برهةٍ من التردُّد أرجحت ساقيها فوق الفتحة وبدأت النزول.

كانت بداخل قبوٍ أصغرَ قليلًا من ذلك الذي كان فوقها. وكان الضوء الذي رأته قادمًا من غرفةٍ داخليةٍ يُفترض أنها أسفل مطبخ المنزل. شقَّت طريقها بحذر، سائرة على أطراف أصابعها. كانت أول غرفة وصلت إليها مؤثَّثة على نحوٍ جيد. كانت الأرض مفروشة بسجادة سميكة، ومقاعد وثيرة مريحة، وخزانة كتب ممتلئة، ومصباح قراءة. كانت هذه الغرفة، بالتأكيد، هي مكتب كارا السري، الذي يحتفظ فيه بأوراقه الثمينة.

كانت هذه الغرفة تؤدي إلى غرفةٍ أخرى بلا باب أيضًا. نظرت بالداخل وبعد أن اعتادت عيناها الظلام، أدركت أن هذه الغرفة هي حمَّام مجهَّز على نحوٍ أنيق.

كانت الغرفة التي وصلت إليها خاليةً من أي ضوء أيضًا، وكان الضوء قادمًا من أبعد غرفة. عندما خطتِ الفتاة برفقٍ إلى الغرفة المفروشة بالسجاد، وطِئَت بقدمها على شيء صلب. انحنت وتحسست الأرض فارتطمت أصابعها بسلسلة رفيعة من الصلب. كانت الفتاة في حيرةٍ من أمرها، وكاد الفزع يقتلها. تراجعت بعيدًا عن مدخل الغرفة الداخلية، مخافةَ ما ستراه. وحينئذٍ جاء صوت من الداخل ملأها رعبًا.

كان صوتَ تنهيدة طويلة ومرتعشة. عزمت أمرها وسارت عبر المدخل ووقفت لحظةً تحدِّق بعينين مشدوهتين وفاهٍ مُفغَرٍ فيما رأته.

صاحت لاهثة: «يا إلهي! لندن ... في القرن الثاني عشر ...!»

الفصل الحادي عشر

كان للمفتش مانسوس مكتبٌ صغيرٌ في مقرِّ سكوتلاند يارد، وكان يشكو من كونه ليس مكتبًا خاصًّا؛ إذ كان بمثابة غرفة انتظار يأوي إليها كل فرد من أفراد الخدمة الشرطية، يجد وقتًا يمر ببطء إلى حد الملل. في عصر يوم المغامرة المذهلة التي قامت بها الآنسة هولاند، أحضر شرطي بملابس مدنية من القسم «د» إلى غرفة مانسوس خادمة في حالة هلع شديد، كانت تثرثر والدموع تملأ عينيها، والندم يفطر قلبها. كانت حالةً مألوفة لشرطي ذي خبرة عشرين عامًا، ولم يتأثر السيد مانسوس بالمشهد تمامًا.

قال مازجًا دماثته الطبيعية باستخدامه للغة العامية الدارجة: «إذا تفضلتِ بالصمت، وإذا أجبتِ كذلك عن بضعة أسئلة، فسوف أجنبك الكثير من المتاعب. لقد كنتِ خادمة الليدي بارثولوميو، أليس كذلك؟»

قالت ماري آن بعينين حمراوين وهي تنتحب: «بلى، يا سيدي.»

«وجرى ضبطُكِ وأنت تحاولين رهن سوارٍ ذهبي مملوك لليدي بارثولوميو؟»

شهقت الخادمة وأومأت برأسها وبدأت دون توقُّف في سردِ ما اقترفته من أخطاء.

«نعم، يا سيدي، لكنها أعطته لي بالفعل، يا سيدي، وأنا لم أتقاضَ أجري منذ شهرين، ويمكنها أن تعطي ذلك الأجنبي الآلاف والآلاف من الجنيهات في المرة الواحدة، يا سيدي، أما خَدَمها المساكين، فلا يمكنها أن تدفع لهم شيئًا ... لا، لا يمكنها. ولو عرف السير ويليام شيئًا عن لعب السيدة للورق وعلبة السَّعُوط، أتساءل

ماذا سيظن، وسوف أحصل على حقوقي؛ لأنها إن كان بوسعها أن تدفع آلافًا لرجل ثري كالسيد كارا، فبوسعها أن تدفع لي و…»

هزَّ مانسوس رأسه.

ثم قال باقتضاب: «خذها إلى الزنزانة»، واقتادوا اللصةَ الهاويةَ البائسةَ وهي تنتحب خارج المكتب.

وفي غضون ثلاث دقائق كان مانسوس بصحبة تي إكس وقد حوَّل أقوال الفتاة المفككة إلى عبارات مرتبة.

قال تي إكس: «هذا مهم، أحضر الأمَة؟»

تساءل الضابط الحائر: «الـ… ماذا؟»

قال تي إكس في نفاد صبر: «الخادمة … الوصيفة … الأجيرة … تحرك.»

أحضروها إلى تي إكس وهي على شفا الانهيار.

قال القائد الحكيم: «أحضِر لها كوبًا من الشاي.» وتابع: «اجلسي يا ماري آن، وانسي كل متاعبك.»

ارتمت على الكرسي الذي أحضروه لها وبدأت الحديث قائلة: «أوه، يا سيدي، لم أُوضع في موقفٍ كهذا من قبل قط.»

قال تي إكس: «إذن فقد واجهتِ وقتًا عصيبًا للغاية.» وأضاف: «والآن، أصغي إليَّ …»

«لقد كنت محترمة …»

قال تي إكس في ضجر: «انسي الأمر.» وأردف: «اسمعي! إذا أخبرتني بالحقيقة كاملة بشأن الليدي بارثولوميو والمال الذي دفعته إلى السيد كارا …»

«ألفا جنيه، كلُّ ألفٍ على حدة، وحسب الأقاويل …»

«إذا أخبرتني بالحقيقة، فسوف أتغاضى عن الجناية وأَطلِق سراحك.»

مرَّ وقت طويل قبل أن يتمكَّن من إقناعها بأن تزيل من حديثها تلك الأنا التي كانت مصممة على فرض نفسها. كانت ثمَّة ثغرات في روايتها استطاع رأبَها. كانت قصة قابلة للتصديق في مجملها. كان مفادُها أن الليدي بارثولوميو خسرت أموالًا واقترضتها من كارا. وأعطته، على سبيل الضمان، علبة السَّعُوط التي أهداها أحد القياصرة إلى والد زوجها، الذي كان طبيبًا، نظيرَ خدماتٍ أسداها له، وكانت «مطلية بالكامل بالمينا الزرقاء والذهب وهناك كلمات أجنبية عليها من الماس.» وعند سؤالها عن المبلغ الذي اقترضته الليدي بارثولوميو، كانت إجابة الخادمة غامضةً للغاية. كان كلُّ ما تعرفه أن السيدة قد سدَّدت له ألفي جنيه، وأنها كانت مضطربة للغاية («دخلت في نوبة» على حسب قول الفتاة)؛ لأن كارا، على ما يبدو، رفض إعادة العلبة.

كان واضحًا أن منزل بارثولوميو قد شهد وقائع عصيبة، ونوبات هستيرية وما إلى ذلك، ووقع الانهيار الأكبر حين عادت بليندا ماري إلى المنزل قادمةً من مدرستها في فرنسا.

سألها تي إكس: «الآنسة بارثولوميو عادت إلى الوطن إذن. أين هي الآن؟»

هنا كانت الفتاة أكثر غموضًا من أي وقت مضى. كانت تظن أن الفتاة الشابة قد عادت ثانية، وكانت الآنسة بليندا في غاية الضيق والانزعاج على أي حال. وكانت الآنسة بليندا قد قابلت دكتور ويليامز ونصحها بضرورة سفر والدتها لتغيير الأجواء.

قال تي إكس: «يبدو أن الآنسة بليندا فتاة ناضجة على صغر سنها.» وتابع: «هل من المحتمل أن تكون قد قابلت السيد كارا؟»

قالت الفتاة موضحة: «أوه، كلا.» وأضافت: «فالآنسة بليندا أرقى من أن تعرف شخصًا كهذا. لقد كانت الآنسة بليندا سيدة أرستقراطية، لا شك في ذلك.»

تساءل تي إكس في فضول: «وكم تبلغ هذه الفتاة المثيرة للاهتمام من العمر؟»

قالت الفتاة: «إنها في التاسعة عشرة»، وارتبك مفوَّض الشرطة، الذي تخيَّل بليندا في ثوبٍ نسائي منقوش، وجدائل طويلة، كما تخيلها فتاة ضئيلة الجسد ذات وجه منمش وساقين رفيعتين وأنف أفطس.

ألقى على مسامع الفتاة محاضرة قصيرة عن حقوق الملكية المقدَّسة، ودفع لها أجرَ الثلاثة الأشهر المستحقَّ لها — إذ لم يكن لديه أي شك في مشروعية استحقاقها لهذه الأموال — وصرفها موجِّهًا لها تعليماتٍ بالعودة إلى المنزل، وحزم أمتعتها والرحيل.

جلس تي إكس، بعد أن انصرفت الفتاة، لدراسة الموقف. ربما يمكنه أن يقابل كارا وبما أن كارا قد عبَّر عن ندمه وربما كان في حالةٍ مزاجية أكثر تواضعًا، فربما يكون قد عمد لاستدراك الموقف وإصلاحه. وربما لم يفعل. كان مانسوس في الانتظار، وسار معه تي إكس عائدَين إلى مكتبه الصغير.

قال في قنوط: «لا أعرف كيف أتصرف.»

قال مانسوس: «إذا استطعت يا سيدي أن تقدِّم لي دافعَ كارا لذلك، أستطيع أن أقدِّم لك الحل.»

هزَّ تي إكس رأسه.

وقال: «هذا بالضبط ما لا أستطيع أن أقدِّمه لك.»

ثم جلس على حافة مكتب مانسوس وأشعل سيجارًا.

وبعد وهلةٍ قال: «إنني أعتزم الذهاب لمقابلته.»

سأله مانسوس: «لماذا لا تهاتفه؟» وأضاف: «ها هو ذا هاتفه الموصل مباشرة إلى مخدعه.»

وأشار إلى هاتفٍ صغير في أحد أركان الغرفة.

قال تي إكس في اهتمام: «أوه، لقد أقنع رئيس الشرطة بتمرير خط الهاتف، أليس كذلك؟» ثم اتجه إلى الهاتف.

وضع أصابعه على السماعة لوهلة، وكان على وشك رفعها، ولكنه غيَّر رأيه.

وقال: «لا أظن أن تلك فكرة جيدة، سوف أذهب لمقابلته غدًا. لا أتوقَّع النجاح في انتزاع السر منه فيما يتعلق بقضية الليدي بارثولوميو، في حين أنه قد أخفاه عني في قضية لكسمان المسكين.»

ابتسم مانسوس وهو منشغل بإعداد مجموعة جديدة من الورق النشاف، وقال: «أعتقد أنك لن تفقد الأمل أبدًا في رؤية السيد لكسمان.»

وقبل أن يتمكَّن تي إكس من الرد، جاء طرْق على الباب، ودخل شرطي في زيه الرسمي. وألقى التحية على تي إكس.

«لقد أرسلوا خطابًا عاجلًا للتو من مكتبك يا سيدي. فظننت أنك هنا.»

وناول الرسالة إلى مفوَّض الشرطة. أخذها تي إكس وألقى نظرة سريعة على العنوان المكتوب بالآلة الكاتبة. كان مكتوبًا عليه «عاجل»، و«يُسلَّم باليد.» التقط فتاحة الورق الصلبة الرفيعة من فوق المكتب وفتح المظروف. كان الخطاب مؤلفًا من ثلاث أو أربع صفحات، وكان مكتوبًا بخط اليد، على عكس المظروف.

بدأ الخطاب بكلمتي: «عزيزي تي إكس»، وكان الخط مألوفًا.

رأى مانسوس، الذي كان يراقب مفوَّض الشرطة، تقطيبة الحيرة تتكوَّن على جبهة رئيسه، ورأى حاجبيه متقوسين وفمه مُفْغرًا في دهشة، ورآه يتحوَّل في عجالةٍ إلى الصفحة الأخيرة ليقرأ التوقيع، وحينئذٍ قال تي إكس لاهثًا:

«يا للهول! إنه من جون لكسمان!»

ارتجفت يده وهو يقلِّب الصفحات المكتوبة بدقة. كان تاريخ الخطاب عصر ذلك اليوم. ولم يُدوَّن عليه أي عنوان سوى «لندن».

بدأ الخطاب كالتالي: عزيزي تي إكس، لا شكَّ لدي في أن هذا الخطاب سوف يصيبك بصدمةٍ بعض الشيء؛ لأن معظم أصدقائي يعتقدون أنني قد ذهبت بلا رجعة. ولكن الأمر، لحسن الحظ، أو لسوء الحظ، ليس كذلك. عن نفسي أتمنَّى أن أكون كذلك، لكني لن أتبنى نظرةً تشاؤمية للغاية؛ إذ إنني سعيد بحق للاعتقاد بأنني سوف ألقاك مجددًا. أرجو أن تلتمس لي العذر إن كان الخطاب مفككًا، لكني عُدت الآن فقط وأكتب إليك من فندق تشارينج كروس. إنني لستُ مقيمًا هنا، ولكني سأخطرك بعنواني لاحقًا. لقد كانت رحلة العودة قاسية جدًّا؛ لذا يجب أن تغفر لي إن بدا الخطابُ غيرَ مترابط قليلًا. سوف تأسف حين تعلم بوفاة زوجتي العزيزة. فقد تُوفيت في الخارج منذ نحو ستة أشهر. أنا لستُ راغبًا في الحديث كثيرًا عن هذا الأمر؛ لذا أرجو أن تستميحني عذرًا إن لم أخبرك بالمزيد بشأنه.

إن هدفي الأول من الكتابة إليك في تلك اللحظة هو هدف رسمي. أعتقد أنني ما زلتُ مُلزَمًا بأداء العقوبة وقرَّرت أن أسلِّم نفسي إلى السلطات الليلة. لقد كان لك في المفتش مانسوس خير مساعد، وإن كان ذلك ملائمًا لك، كما أتمنى، فسوف أمثُل أمامه في العاشرة والربع. على أي حال، لا أرغب، يا عزيزي تي إكس، في توريطك في أموري وإن كنت ستسمح لي بالقيام بهذا الأمر عن طريق مانسوس، فسأكون في غاية الامتنان لك.

أعلم أن العقوبة التي تنتظرني ليست كبيرة؛ لأن أمر العفو عني كان قد وُقِّع في الليلة السابقة لهروبي على ما يبدو. لن يكون لدي الكثير لأخبرك به؛ لأن العامين الماضيين لم يكن بهما ما قد أعبأ بتذكُّره. لقد تكبدنا الكثير من البؤس والتعاسة وكان الموت رحيمًا بنا كثيرًا حين أخذ مني حبيبتي.

هل قابلت كارا في هذه الفترة؟

أرجو أن تتفضل بإبلاغ مانسوس بأن ينتظرني ما بين العاشرة والعاشرة والنصف، وإن كان سيعطي تعليمات للضابط المناوب في صالة الانتظار، فسوف أتوجَّه مباشرة إلى مكتبه.

مع خالص تحياتي، لصديقي العزيز،
المخلص
جون لكسمان

قرأ تي إكس الخطاب مرتين، وبدت عيناه مضطربتين.

قال بصوت خفيض: «يا للفتاة المسكينة!»، وناول الخطاب إلى مانسوس. وأضاف: «من الواضح أنه يرغب في مقابلتك؛ لأنه يخشى من استغلال صداقتي به لمصلحته. ولكني سأتواجد هنا.»

تساءل مانسوس: «ما الإجراءات الرسمية التي ستُتبع؟»

قال الآخر سريعًا: «لن يكون هناك إجراءات.» وتابع: «سوف أحصل على العفو اللازم من وزارة الداخلية، والواقع أنني حصلت بالفعل على وعدٍ كتابيٍّ بإصداره.»

سار عائدًا إلى وايتهول، وقد انشغل عقله تمامًا بالأحداث الجسام التي وقعت اليوم. كان مساءً شديد البرودة من أيام شهر فبراير، وكان المطر المتجمد يتساقط في الشارع، وهبَّت رياح شرقية قارسة كانت تخترق كل شيء حتى معطفه الثقيل. في مدخل مكتبه الذي يُعَد أحد تلك المداخل التي توفِّر الحماية من عوامل الطقس القارس، يتجمع مشردو الإنسانية الملازمون للطرف الغربي من لندن، التماسًا للدفء، مثلما ترفرف العثَّة المسفوعة حول النار التي تدمرها.

وكان تي إكس رجلًا يحمل بداخله قدْرًا هائلًا من التعاطف الإنساني.

فشلت كل خبرته مع عالم المجرمين، وكل ما واجهه من إحباطات وخيبات أمل في استئصال مشاعر الشفقة والرحمة تجاه رفاقه البائسين من نفسه. فوضع لنفسه قاعدةً في مثل هذه الليالي، أنه إذا تصادف وعاد متأخرًا إلى مكتبه ووجد أحد هؤلاء المحطَّمين يرتعش من البرد ويتخذ من مدخل مكتبه مأوًى يحتمي به، فسوف يمنحه ثَمن سرير.

كان يستمد من هذه العادة متعةً أشبه بمتعة المضاربة بطريقته الغريبة. فإذا كان المدخل خاليًا، كان يعتبر نفسه فائزًا، وإذا وجد أحدهم واقفًا يحتمي بالمدخل العميق الذي يميز البيوت القديمة ذات الطراز الجورجي في هذا الشارع التاريخي، كان يخسر ما يقرب من شلن.

ظل يحدِّق إلى الأمام عَبْر المدخل شبه المظلم عندما اقترب من باب مقر إدارته.

قال: «لقد خسرت»، وخلع فردتي قفازه تأهبًا لتحسس جيبه بحثًا عن قطعة من النقود.

ثمَّة شخص كان واقفًا في المدخل، ولكن كان واضحًا أنه شخص في غاية الاحترام. كان في الواقع امرأةً قصيرة وبدينة، ذات ملامح تنمُّ عن طيبة وعطف، ترتدي معطفًا من جلد الفقمة وقلنسوة غريبة الشكل.

قال تي إكس في استغراب: «مرحبًا، هل تحاولين الدخول إلى هنا؟»

قالت الزائرة بتلك النبرة المتكلفة المختالة لشخصٍ يبرِّر سببَ رفاهته المبتذلة بادعاءات متكررة بأنه قد شهد أيامًا أفضل: «أريد مقابلة السيد ميرديث.»

قال تي إكس بجدية: «سوف تُلبَّى رغبتك.»

فتح الباب الثقيل، واجتاز الممر الذي خلا من أي سجاد — إذ كانت المكاتب الحكومية تخلو من أي مظاهر ترف — واقتادها عبر السلَّم إلى الجناح الكائن في الطابَق الأول الذي يشكِّل مكتبه.

أضاء كل الأنوار وأخذ يتفحص ضيفته، ووجدها امرأةً تبدو عليها مظاهر الرغد كذوات الأملاك.

قال تي إكس في نفسه: «إنها جذابة، ولكن النظارة ذات المقبض وجلد الفقمة الذي ترتديه يجعلانها تبدو بدينةً إلى حدٍّ ما.»

بدأت حديثها بنبرة استنكار: «سوف تغفر لي مجيئي لمقابلتك في تلك الساعة المتأخرة، ولكن كما كان أبي العزيز يقول: «عار على مَن يظنه شرًّا».»

قال تي إكس ممازحًا: «هل والدكِ العزيز ينتمي إلى فرسان الرباط؟» وأردف: «ألن تجلسي يا سيدة ...»

ابتسمت السيدة وهي تهمُّ بالجلوس: «السيدة كاسلي.» وأضافَت: «لقد كان يعمل في مجال لصق ورق الحائط. ولكن حين يقودك الشيطان، لا يكون أمامك اختيار؛ كما يقول المثل.»

تساءل تي إكس وقد عجز نوعًا ما عن فَهْم الهدف من زيارتها: «وأي شيطانٍ ذلك الذي يقودك، يا سيدة كاسلي؟»

قالت السيدة زامَّةً شفتَيْها: «ربما أرتكب خطأ، والخطأ لا يُبرَّر بمثله.»

قال تي إكس وقد تملَّكه الضجر بعض الشيء: «وليس كل ما يلمع ذهبًا.» وأضاف: «هلا تتفضلين بإخباري بمشكلتك، يا سيدة كاسلي؟ فأنا أتضوَّر جوعًا.»

قالت السيدة كاسلي وقد تخلَّت عن حذلقتها وتحوَّلت إلى اللغة البسيطة الدارجة: «حسنًا، الأمر كالتالي، يا سيدي. ثمَّة سيدة شابة تقيم لدي، وقد وجدتها فتاة في غاية الاحترام والتهذيب من واقع اضطراري للتعامل معها. وأستطيع القول إنني أعرف معنى الاحترام؛ فقد كنت أؤجر منزلي، وكنت أعمل مدبِّرة منزل لدى أحد الأطباء.»

قال تي إكس مبتسمًا: «أنتِ لبقةّ في الحديث.» وأردف: «وماذا عن هذه السيدة الشابة التي تتحدثين عنها؟! بالمناسبة، ما عنوانك؟»

قالت السيدة: «٨٦ إيه طريق ماريليبون.»

انتصب تي إكس في جلسته.

ثم قال سريعًا: «حقًّا؟» وأضاف: «ماذا عن السيدة الشابة؟»

قالت صاحبة المنزل الطليقة اللسان: «إنها تعمل، حسبما أفهم، مع رجلٍ يُدعى السيد كارا في مجال النسخ على الآلة الكاتبة. وقد جاءتني منذ أربعة أشهر.»

قال تي إكس في نفادِ صبر: «لا عليكِ بوقت مجيئها لكِ. هل لديكِ رسالة من السيدة؟»

قالت السيدة كاسلي، وهي تميل إلى الأمام تحريًا للسريَّة وتتحدث بالنبرة الجوفاء التي قرَّرت أنها ينبغي أن تصاحب أي مكاشفة لشرطي: «حسنًا، إن الأمر كالتالي يا سيدي، لقد قالت لي السيدة الشابة هذه: «إذا لم آتِ في أي ليلةٍ بحلول الساعة الثامنة، يجب أن تذهبي إلى تي إكس وتخبريه بأن …»»

ثم توقَّفت وقفة درامية مثيرة.

قال تي إكس بسرعة: «نعم، نعم، أكملي لأجل الرب، يا امرأة.»

قالت السيدة كاسلي: «أخبريه بأن بليندا ماري …»

فانتفض واقفًا على قدمَيْه.

قال لاهثًا: «بليندا ماري! بليندا ماري!» وفي لمح البصر فهم الأمر كله. إن هذه الفتاة، العارفة باليونانية الحديثة، التي كانت تعمل في منزل كارا، كانت موجودة هناك لغرضٍ ما. فقد كان لدى كارا شيءٌ يخص والدتها، شيء مهم ولم يكن ليتخلَّى عنه، وقد اتبعت هذه الطريقة من أجل الحصول على هذا الشيء. كانت

السيدة كاسلي مستمرةً في الثرثرة، ولكن صوتها لم يكن سوى صوتٍ ضبابي بالنسبة إليه. سرى في قلبه وهج غريب حين أدرك أن بليندا ماري قد فكَّرت فيه.

«فقط كشرطي، بالطبع»، هكذا قال الصوت الهادئ الصغير لذاته الرسمية الذي يتردَّد بداخله. ثم قال تي إكس الإنسان في تحدٍّ: «ربما!»

والتقط سماعة الهاتف واتصل بمانسوس وأعطاه بعض التعليمات.

ثم قال آمرًا السيدة كاسلي التي كانت في حالةٍ من الذهول: «ابقي هنا؛ سوف أجري بعض التحريات.»

كان كارا موجودًا بالمنزل، ولكنه كان في الفراش. فقد تذكَّر تي إكس أن هذا الرجل الاستثنائي دائمًا ما يذهب إلى فراشه مبكرًا وكان من عادته استقبال الزوار في غرفته المؤمنة هذه. أُدخِل في الحال ووجد كارا في منامته الحريرية يدخِّن وهو مستلقٍ في فراشه. كانت حرارة الغرفة لا تُطاق حتى في تلك الليلة القارسة البرودة من ليالي فبراير.

قال كارا وهو ينتصب في جِلسته: «هذه مفاجأة سارة، أتمنى ألا تنزعج من ثيابي المبتذلة.»

دخل تي إكس مباشرة في صميم الموضوع.

سأله قائلًا: «أين الآنسة هولاند؟»

تحرَّك حاجبا كارا معلنَين عما اعتراه من دهشة وقال: «الآنسة هولاند؟» وأردف: «يا له من سؤال غير عادي كي توجهه لي، يا عزيزي! إنها في منزلها، أو في المسرح، أو في إحدى دُور السينما، لا أعلم كيف يُمضي هؤلاء الناس أمسياتهم.»

قال تي إكس: «إنها ليست بالمنزل، ولدي دافع للاعتقاد بأنها لم تبرح هذا المنزل.»

«يا لك من شخص نزَّاع إلى الشك، يا سيد ميرديث!» وقرع كارا الجرس ودخل فيشر حاملًا فنجانًا من القهوة على صينية.

قال كارا بنبرة متشدقة: «فيشر.» وأضاف: «السيد ميرديث يرغب في معرفة مكان الآنسة هولاند. هلا تتفضل بإخباره، فأنت أدرى مني بتحركاتها؟»

قال فيشر في إذعان: «حسب علمي، يا سيدي، لقد غادرت المنزل في حوالي الخامسة والنصف، في موعدها المعتاد. كانت قد أرسلتني قبل الخامسة بقليل برسالة وحين عُدتُ لم أجد قبعتها ومعطفها، فافترضت أنها قد غادرت.»

سأله تي إكس: «هل رأيتها وهي تغادر؟»

هزَّ الرجل رأسه نفيًا.

وقال: «كلا يا سيدي، فقلما أرى السيدة وهي قادمة أو ذاهبة. فلم يكن ثمَّة قيود على السيدة الشابة، وكان لها مطلق الحرية في التحرُّك كما تشاء.» والتفت إلى كارا وأضاف: «أعتقد أنني محقٌّ في قولي هذا يا سيدي.»

أومأ كارا بالإيجاب.

«ستجدها على الأرجح في منزلها.»

وهزَّ إصبعه على نحوٍ هزلي في اتجاه تي إكس.

ثم قال ساخرًا: «يا لك من وغد! يجب أن أواريَ الأشياء الجميلة في منزلي، كما نفعل في الشرق، وخاصة حين يكون لديَّ شرطيٌّ نزَّاع للشك يتجوَّل فيه بحرِّية.»

رد تي إكس على الدعابة بدعابة مماثلة. فلم يكن ثمَّة شيءٌ ليجنيه من إثارة أي مشاكل هنا. وغادر المنزل بعد إبداء بضع ملاحظات عادية. وجد السيدة كاسلي في ضيافة مانسوس الذي راح يسرِّي عنها بوصفٍ خيالي بحتٍ لأشهر المجرمين ممن ألقى القبض عليهم.

قال تي إكس: «لا يسعني سوى أن أقترح عليكِ أن تعودي إلى المنزل.» وتابع: «سوف أرسل معكِ شرطيًّا كي يبلغني بالمستجدات، ولكن أغلب الظن أنكِ ستجدين السيدة قد عادَت. ربما واجهَت صعوبةً في استقلالِ حافلةٍ في ليلةٍ كهذه.»

استُدعي مخبرٌ من سكوتلاند يارد وعادت السيدة كاسلي برفقته إلى منزلها وقد انتابها شيءٌ من الخيلاء والزهو. نظر تي إكس إلى ساعته. كانت الساعة العاشرة إلا ربعًا.

قال: «لا بد أن أقابل لكسمان العزيز مهما حدث.» وتابع: «أبلِغ أفضلَ رجالنا في الإدارة بأن يستعدوا تحسُّبًا لأي طوارئ. سوف يكون هذا اليوم واحدًا من أكثر أيامي ازدحامًا.»

الفصل الثاني عشر

استلقى كارا على وسائده وعلى وجهه تعبيرٌ من السخرية والازدراء، وكان ذهنه منشغلًا تمامًا. لم يعرف منشأ الأفكار التي انطلقت تتسلسل في عقله، ولكن عقله في تلك اللحظة كان شاردًا للغاية. أعاده إلى اثنتي عشرة سنة مضت إلى كوخٍ صغير قذر لرجلٍ قروي على سفح التل على أطراف مدينة دوريس، وذلك الوجه الغاضب لزعيم ألباني شاب، خسر حياته ثمنًا لنزوةٍ من كارا، وإلى العينين المتَّقدتَين بالكراهية لوالد الفتاة، الذي وقف عاقدًا ذراعيه يحدق إلى الجسد المكبَّل بالقيود والأصفاد الممدد على الأرض، وإلى العوارض الخشبية الملطخة بآثار الدخان لكوخِ هذا القروي والظلال المتراقصة على السقف، وإلى ساعة الانتظار الرهيبة حين جلس مقيدًا إلى عمودٍ وبجواره شمعة ترتعش وتومض ويخفت ضوءُها أكثر وأكثر وهي تشعل كومة البارود الصغيرة التي تبدأ المسير نحو الآلة الخرقاء اللعينة القابعة تحت كرسيه. كان يتذكَّر اليوم جيدًا؛ إذ كان يوافق عيد دخول المسيح إلى الهيكل، وكان هذا هو العيد السنوي. تذكَّر أشياءَ أخرى أكثرَ بهجة. صوت سنابك الخيل على الطريق الصخري، وصوت ارتطام الباب وهو يهوي حين ظلَّت قوات الدَّرك التركية تضرب بقوة لإنقاذه. تذكَّر بفرحةٍ ضارية منظر قاتليه المزعومين وهم يرتجفون وينازعون على المقصلة في بيزارا وهنا سمع الرنين الخافت لجرس الباب الأمامي.

هل عاد تي إكس؟ نهض منزلقًا من فوق السرير وتوجَّه إلى الباب، وفتحه قليلًا وأنصت لما يدور. ربما كان حضورُ تي إكس وبحوزته أمرٌ بالتفتيش مصدرًا

للذعر، لا سيما إن كان ... وهزَّ كتفَيْه. لقد أقنع تي إكس وبدَّد شكوكه. وسوف يزيح فيشر من الطريق الليلة ليتأكد.

كان الصوت القادم من الرَّدهة بالأسفل عاليًا وأجشَّ. مَن عساه يكون؟! بعدها سمع صوت قدمي فيشر على السلَّم ودخل الخادم.

«هل ستقابل السيد جاذركول الآن؟»

«السيد جاذركول!»

تنفس كارا الصعداء وكللت الابتسامات وجهه.

«بالطبع. أخبره بأن يصعد. اسأله إن كان يمانع مقابلتي في غرفتي.»

قال فيشر: «لقد أخبرته بأنك في الفراش، يا سيدي، وتلفَّظ بكلمات مخجلة حين أخبرته.»

ضحك كارا.

ثم قال له: «دعه يصعد»، وبينما كان فيشر يهم بالخروج من الغرفة، إذا بكارا يستدعيه مجددًا.

«بالمناسبة، يا فيشر، بعد أن ينصرف السيد جاذركول، يمكنك أن تقضي الليلة بالخارج. أعتقد أن لديك مكانًا ما لتذهب إليه، ولا داعيَ لأن تعود حتى الصباح.»

قال الخادم: «أمرك يا سيدي.»

بعث هذا الأمر في نفس فيشر السرور بشدة. فقد كان لديه أمورٌ كثيرة عليه القيام بها، وهذه الحرية التي سينعم بها الليلة سوف تساعده إلى حدٍّ كبير.

قال كارا في تردُّد: «ربما، ربما كان من الأفضل أن تنتظر حتى الحادية عشرة. أحضِر لي بعض الشطائر وكوبًا كبيرًا من الحليب. أو من الأفضل أن تضعها على طبق في الرَّدهة.»

قال الرجل: «حسنًا يا سيدي»، ثم خرج من الغرفة.

في الطابَق السفلي، كان ذلك الرجلُ ذو الهيئة الغريبة بقبعته اللامعة ولحيته الشعثاء يذرع الرواق المرصَّع بالفسيفساء جَيئة وذهابًا ويغمغم بكلماتٍ لنفسه ويحملق في الأشياء المتنوعة في الرَّدهة بحقد مضحك.

قال فيشر: «السيد كارا سوف يقابلك، يا سيدي.»

قال الآخر وهو يحدق في فيشر المسالم: «أوه! — هذا فضلٌ كبير منه. فضلٌ كبير جدًّا من هذا الشخص أن يقابل عالمًا ورجلًا ظل عاكفًا على عمله القذر ثلاث سنوات. لقد شاب شَعري في خدمته! هل تفهم ذلك يا صديقي؟»

قال فيشر: «أجل يا سيدي.»

«انظر هنا!»

وثبَّت الرجل وجهه في وجه فيشر.

«أترى تلك الشعرات الرمادية المتناثرة في لحيتي؟»

ابتسم فيشر في ارتباك.

قال الزائر في تحدٍّ وهو يقهقه: «أهي رمادية؟»

قال الخادم بسرعة: «نعم، يا سيدي.»

قال الزائر في إصرار: «أهي رمادية حقًّا؟» وتابع: «انتفْ واحدة وانظر!»

تراجع فيشر المذهول إلى الوراء بابتسامةِ اعتذار.

«لا أستطيع التفكير في القيام بشيء كهذا، يا سيدي.»

قال الزائر متهكمًا: «أوه، لا تستطيع؛ إذن فلنمضِ!»

اقتاده فيشر إلى أعلى. لم يكن الرحَّالة يحمل كتبًا هذه المرة. كانت ذراعه اليسرى متدلية بجواره بارتخاء واستشف فيشر بينه وبين نفسه أن اليد قد انفصلت عن تجويفها دون وعي من صاحبها. فتح الباب وصاح معلنًا: «السيد جاذركول»، وتقدَّم كارا بابتسامةٍ على وجهه لمقابلة مندوبه، الذي شكَّل صورةً غريبة لافتة للأنظار بقبعته التي كانت لا تزال مستقرةً فوق رأسه، ومعطفه المتدلي حتى عقبيه.

أغلق فيشر الباب عليهما وعاد إلى مهام عمله في الرَّدهة بالطابق السفلي. وبعد عشْر دقائق سمع الباب يُفتَح وتناهى صوت الغريب المدوي إلى مسامعه. صعد فيشر السلَّم لملاقاته ووجده يخاطب قاطنَ الغرفة بطريقته الغريبة.

صاح بصوتٍ هادر: «لا باتاجونيا بعد اليوم، لا تييرا ديل فويجو!»، ثم سكت.

أجاب عن سؤالٍ ما بقوله: «بالتأكيد! ولكن ليس باتاجونيا»، ثم سكت مجددًا، وتساءل فيشر الذي كان واقفًا بالأسفل عند قاعدة الدرج عما حدث وجعل الضيف ودودًا ومستأنسًا هكذا.

تساءل الضيف متهكمًا: «أعتقد أن الشيك سوف يُصرف دون مشاكل، أليس كذلك؟» ثم انفجر في ضحكةٍ مكتومة خافتة وهو يغلق الباب بحرص.

سار عَبْر الرواق محدِّثًا نفسه، وحيَّا فيشر.

قال بمرحٍ وبشاشة: «تبًّا لكل اليونانيين!»، ولم يستطِع فيشر أن يفعل شيئًا سوى رسم ابتسامةِ توبيخٍ على وجهه، الابتسامة من عنده، والتوبيخ نيابة عن سيده الذي يدفع له أجره.

لمس الرحَّالة صدرَ الآخر بيده اليمنى.

ثم قال: «لا تثقْ بيوناني، وخُذ أموالك مقدمًا دائمًا. أهذا واضح لك؟»

قال فيشر: «أجل، يا سيدي، ولكن أظن أنك دائمًا ما تجد السيد كارا في غاية السخاء فيما يتعلق بالمال.»

قال الآخر: «لا تصدِّق ذلك، لا تصدِّق ذلك، يا صديقي المسكين، أنت ...»

وفي تلك اللحظة جاء صوت «جلجلة» خافت من غرفة كارا.

تساءل الضيف مجفلًا بعض الشيء: «ما هذا الصوت؟»

قال فيشر مبتسمًا: «إنه السيد كارا يغلق مزلاجه الفولاذي، ما يعني أنه لا يجب أن يزعجه أحد حتى ...» ونظر إلى ساعته ثم أضاف: «حتى الحادية عشرة مهما كانت الظروف.»

قال الآخر غاضبًا: «إنه جبان! جبان همجي!»

وأخذ يضرب درجات السلَّم بقدميه بقوة وكأنه يختبر ثقلَ كل خطوة، وفتح الباب الأمامي دون عون، وصفقه خلفه واختفى في ظلمة الليل.

راح فيشر ينظر إلى الغريب المغادر، واضعًا يديه في جيبيه، ومومئًا برأسه باستنكار.

وقال: «أنت شيطان عجوز غريب الأطوار»، ثم تفقَّد الساعة مجددًا.

كانت العاشرة إلا خمس دقائق.

الفصل الثالث عشر

قال تي إكس: «إذا كنت مهتمًّا بالحضور يا سيدي، فأنا واثق من أن لكسمان سيسعد برؤيتك؛ إنه لعطفٌ كبير منك أن تولي اهتمامًا بالأمر.»

دمدم رئيس الشرطة بشيءٍ عن أنه يتقاضى راتبه من أجل الاهتمام بالجميع وسار مع تي إكس عَبْر أحد أروقة سكوتلاند يارد التي تبدو بلا نهاية.

قال: «لن تواجه أي مشكلة بشأن العفو.» وتابع: «لقد كنتُ أتناول العشاء الليلة مع بارثولوميو العزيز وسيتولى ترتيب هذا الأمر في الصباح.»

تساءل تي إكس: «هل من ضرورةٍ لوضع لكسمان رهنَ الاحتجاز؟»

هزَّ رئيس الشرطة رأسه نفيًا.

ثم قال: «إطلاقًا.»

وساد صمتٌ، ثم قال تي إكس:

«بالمناسبة، هل ذكر بارثولوميو شيئًا عن بليندا ماري؟»

التفت رئيس الشرطة ذو الشعر الأشيب حوله في دهشة.

سأله: «ومَن هي بليندا ماري بحق الجحيم؟»

احمرَّ وجه تي إكس.

ثم قال بسرعة بعض الشيء: «بليندا ماري هي ابنة بارثولوميو.»

قال رئيس الشرطة: «يا إلهي! تذكرتُ، لقد ذكرها؛ إنها لا تزال في فرنسا.»

قال تي إكس ببراءة: «أوه، حقًّا؟»، وكان في أعماق قلبه يتمنَّى بشدة أن تكون ما زالت هناك. وصلا إلى غرفة مانسوس، ووجدا ذلك الرجل الرائع في الانتظار.

أينما يلتقي رجال الشرطة، ينحرف حديثهم تلقائيًّا إلى العمل، وفي غضون دقيقتين كان الثلاثة يتناقشون ببعض الحماس والكثير من اختلاف الرأي، من ناحية تي إكس، في سلسلةٍ من جرائم الاحتيال التي ارتُكبت في وسط البلاد، والتي لا تمتُّ بصلةٍ إلى هذه القصة.

قال رئيس الشرطة: «لقد تأخَّر صديقك.»

صاح تي إكس منتفضًا: «ها هو ذا.» سمع صوت خطوات مألوفًا على الممر المرصوف، فقفز خارجًا من الحجرة لمقابلة الوافد الجديد.

وقف لحظةً يشدُّ على يد هذا الرجل المتجهِّم، وقلبه يفيض بالمشاعر إلى حدٍّ أعجزه عن النطق بأي كلمات.

وأخيرًا قال: «صديقي العزيز! لا تعرف كم أنا سعيد برؤيتك.»

لم يقل جون لكسمان شيئًا، ثم قال بهدوء:

«أعتذر لإدخالك في هذا الأمر، يا تي إكس.»

قال الآخر: «كفَّ عن هذا الهراء، ادخل لتقابل رئيس الشرطة.»

وأخذ جون من ذراعه وقاده إلى حجرة المفتش.

ثمَّة تغيير طرأ على جون لكسمان. أصابه تغيُّر غيرُ ملحوظ في الاتزان لم يكن من السهل اكتشافه. صارت ملامح وجهه أكبر سنًّا، وصار الفم ذو التعبيرات المتباينة جامدًا جمودًا كئيبًا بعض الشيء، وصارت العينان محاطتين بتجاعيدَ

أعمقَ. كان يرتدي بِذلةَ سهرة، وبدا كما تراءى لتي إكس سيدًا إنجليزيًّا تقليديًّا مهندمًا، كذلك الذي يفخر أيُّ خادمٍ معتدٍّ بنفسه أن يعلن عن «حضوره».

كان تي إكس ينظر إليه بدقة ولم يستطِع أن يرى أي تغيير مؤثِّر، عدا ندبة امتدت عَبْر جانب إحدى وجنتَيْه الحليقة الملساء نتيجة جرح قديم، لم يكن واردًا أن يكون سوى جرح سطحي.

قال جون وهو يخلع عنه معطفه ويضعه على ظهر أحد المقاعد: «لا بد أن أعتذر عن هذه الثياب، ولكني في الحقيقة كنت أشعر بملل شديد هذا المساء، جعلني أضطر إلى القيام بأيِّ شيءٍ كي أجعل الوقت يمر؛ لذا ارتديت ثيابي وذهبتُ إلى المسرح، وشعرت بمللٍ أشدَّ من ذي قبل.»

لاحظ تي إكس أنه لم يكن مبتسمًا وأنه حين تحدَّث، كان يتحدَّث ببطء وحذر، وكأنه يزن قيمة كل كلمة.

تابع قائلًا: «والآن لقد جئت كي أضع نفسي بين أيديكم.»

قال تي إكس: «أعتقد أنك لم تقابل كارا، أليس كذلك؟»

أجاب باقتضاب: «لا رغبةَ لديَّ في مقابلة كارا.»

تدخَّل رئيس الشرطة قائلًا: «حسنًا، يا سيد لكسمان، لا أظن أنك ستواجه أيَّ مشكلة بشأن مسألة هروبك. بالمناسبة، أعتقد أنه قد نُفِّذ بواسطة طائرة، أليس كذلك؟»

أومأ لكسمان بالإيجاب.

«وهل كان لديك مَن ساعدك؟»

أومأ لكسمان بالإيجاب مجددًا.

ثم قال: «أفضِّل ألا أناقش ذلك الأمر بعض الوقت يا سير جورج، إلا إذا ضغطتَ عليَّ، ثمَّة أمور كثيرة سوف تحدُث قبل أن تُعرف القصةُ الكاملة لهروبي.»

أومأ السير جورج.

وقال مبتهجًا: «سوف نترك هذا الأمر عند هذا الحد، والآن أتمنى أن تكون قد عُدتَ لتسعدنا جميعًا بواحدة من قصصك الرائعة.»

قال جون لكسمان بتلك النبرة المتأنية الهادئة المعهودة: «لقد طويت صفحة القصص الرائعة في الوقت الحالي.» وتابع: «أتمنى أن أغادر لندن الأسبوع القادم إلى نيويورك وأعيش هناك ما تبقَّى من الحياة. فقد ولَّى الجزء الأكبر منها.»

فهِم رئيس الشرطة.

كسر رنينُ جرسِ الهاتف العالي والمصرُّ الصمتَ الذي تلا ذلك.

قال مانسوس وهو يهمُّ سريعًا بالنهوض: «مرحى، إنه جرس هاتف كارا.»

وبخطوتَيْن سريعتَيْن توجَّه إلى الهاتف ورفع السماعة.

صاح قائلًا: «مرحبًا.» ثم صاح مرة أخرى: «مرحبًا.» لم يجد ردًّا سوى الطنين المتواصل، وحين أغلق السماعة مجددًا، استمر الجرس في الرنين.

نظر الشرطيون الثلاثة بعضهم إلى بعض.

قال مانسوس: «ثمَّة مشكلة هناك.»

قال تي إكس: «ارفع السماعة وأعِد المحاولة.»

امتثل مانسوس، ولكن لم يتلقَّ إجابة.

قال جون لكسمان وهو يلملم معطفه: «أخشى أن الأمر لا يخصني.» وأضاف: «ماذا تريدني أن أفعل، يا سير جورج؟»

قال السير جورج مادًّا يده له: «فلتَحضُر صباح الغد لمقابلتنا يا لكسمان.»

سأله تي إكس: «أين تقيم؟»

أجاب الآخر: «في فندق ذا جريت ميدلاند، على الأقل أُرسلت حقائبي إلى هناك.»

قال تي إكس وهو يمسك بكتف الآخر برفق ومودة: «سوف آتي لرؤيتك صباح الغد. من الغريب أن يحدث هذا في ليلة عودتك.»

لم ينطق جون لكسمان بشيء حينها.

ثم قال بنبرة متثاقلة: «إذا أصاب كارا خطبٌ ما، أو إذا وقع له أسوأ ما يمكن أن يحدث، فصدقني لن أذرف دمعةً واحدة أسفًا عليه.»

نظر تي إكس في عينَي الآخر في تعاطُفٍ.

وقال بلطف: «أظنه قد آلمك بشدة، يا عزيزي.»

أومأ جون لكسمان إيجابًا.

قال مهمهمًا: «لقد فعل، عليه اللعنة.»

كانت سيارة رئيس الشرطة تنتظره بالخارج ودلف إليها تي إكس، ومانسوس، وضابط تحرٍّ وانطلقوا جميعًا إلى كادوجان سكوير. كان فيشر في الرَّدهة حين قرعوا الجرس وفُتح الباب في الحال.

بدت عليه الدهشة جليةً حين رأى الزوار. أوضح لهم في امتعاض، وكأن تي إكس كان يجب أن يعلم بذلك دون أن يبلغه به أحد، أن السيد كارا في غرفته. لم يسمع رنين الجرس، ولم يُستدعَ إلى الغرفة فعليًّا.

قال: «يفترض أن أذهب إليه في الحادية عشرة، وقد تلقيتُ تعليماتٍ واضحة بألا أذهب له ما لم يرسل في طلبي.»

صعد تي إكس إلى الطابَق العلوي، متوجهًا مباشرة إلى غرفة كارا. طرق الباب، ولكن لم يتلقَّ إجابة. فطرقه ثانية، ولما لم يتلقَّ إجابة، أخذ يركل الباب بقوة.

تساءل قائلًا: «هل لديكم هاتف بالأسفل؟»

أجاب فيشر: «أجل، يا سيدي.»

التفت تي إكس إلى ضابط التحري.

وقال له: «اتصل بمقر سكوتلاند يارد وأحضِر رجلًا بحقيبة أدوات. يجب أن نكسر هذا القفل ولم أُحضِر عُلبة أدواتي معي.»

قال فيشر، الذي كان يشاهد ما يدور باهتمام: «كسْر القفل لن يجدي؛ فالسيد كارا أغلق المزلاج.»

قال تي إكس: «لقد نسيت ذلك.» وأردف: «أخبِره بأن يُحضِر منشاره، فسوف نضطر إلى قطع الخشب هنا.»

وبينما كانوا ينتظرون وصول الضابط، حاول تي إكس جاهدًا جذب انتباه ساكن الغرفة، ولكن دون جدوى.

سأل مانسوس: «هل يتناول الأفيون أو أيَّ شيءٍ من هذا القبيل؟»

هزَّ فيشر رأسه نافيًا.

ثم قال: «لم أعرف عنه أنه يعاقر أيَّ شيءٍ من هذا القبيل.»

أجرى تي إكس معاينةً سريعةً للغرف الأخرى الواقعة في هذا الطابق. كانت الغرفةُ المجاورة لغرفة كارا هي المكتبة، ثم تأتي بعدها غرفة الملابس، التي كانت الآنسة هولاند تستخدمها، حسبما قال فيشر، وفي أقصى الممر كانت توجد غرفة المائدة.

كان أمام غرفة المائدة مصعد خدمات صغير وبجواره مخزن به عدد من الصناديق، كان من بينها صندوق ضخم للغاية عليه تعليمات مكتوبة بثلاث لغات بضرورة «حمله بحرص.» لم يكن في هذا الطابَق أيُّ شيءٍ آخر ذي بال، وكان على الموجودين بالطابق العلوي والسفلي أن ينتظروا النجار. وفي خلال ربع ساعة كان النجار قد وصل من سكوتلاند يارد، وصنع فتحةً في باب غرفة كارا المصنوع من خشب الورد، وانكب على تشغيل منشاره النحيل.

عَبْر الفتحةِ التي جرى عملها، لم يستطِع تي إكس أن يرى شيئًا إلا أن الغرفةَ غارقةٌ في ظلامٍ حالك، وخلت من أي ضوء عدا وهج النار المستعرة. أدخل يده وراح يتحسس بيده بحثًا عن مقبض المزلاج الفولاذي، الذي كان قد لاحظه في زيارته السابقة إلى الغرفة، فرفعه وفُتح الباب.

ثم قال آمرًا: «فليبقَ الجميع بالخارج.»

تحسَّس بيده بحثًا عن مفتاح الكهرباء، ووجده، وفي الحال غمر الضوء الغرفة. كان الباب المفتوح يخفي السرير عن الأنظار. دلف تي إكس إلى الغرفة ورأى ما فيه الكفاية. كان كارا مستلقيًا، نصفه على السرير ونصفه الآخر خارجه. كان ميتًا وكانت بقعة الدماء التي استقرت فوق قلبه تروي ما حدث له.

وقف تي إكس ينظر إليه، ورأى الهلع المتجمِّد على قسمات وجه المتوفى، ثم أشاح ببصره بعيدًا وأخذ يعاين الغرفة على مهل. وجد دليلًا في منتصف السجادة؛ وهو شمعة صغيرة ملتوية ومنبعجة كتلك التي توجد في أشجار عيد الميلاد الخاصة بالأطفال.

الفصل الرابع عشر

كان مانسوس هو مَن وجد الشمعة الثانية، وكانت أكثرَ تماسكًا وسُمكًا. كانت قابعةً أسفل السرير. وكان الهاتف الذي كان موضوعًا على منضدةٍ كبيرةِ الحجم إلى حدٍّ ما بجوار السرير؛ مقلوبًا وكانت السماعة ملقاةً على الأرض. وكان بجوارها كتابان، أحدهما بعنوان «مسألة البلقان» لفيلاري، والآخر بعنوان «الأسفار والسياسة في الشرق الأدنى» لميلر. وكان معهما فتاحة ورق طويلة من العاج.

لم يكن يوجد أيُّ شيءٍ آخر على المنضدة المجاورة للسرير عدا علبة سجائر فضية. ارتدى تي إكس زوجًا من القفازات وفحص السطح اللامع بحثًا عن بصمات، ولكن نظرة سطحية لم توضح وجود دلائل كهذه.

قال تي إكس: «افتح النافذة؛ فالسخونة هنا لا تُطاق. التزمِ الحذرَ التام، يا مانسوس. بالمناسبة، هل النافذة محكمة الغلق؟»

قال المفتِّش بعد فحصٍ دقيق: «محكمة تمامًا.»

فتح المرابط، ورفع النافذة، وفي تلك الأثناء، صدرَ رنينُ جرسٍ حادٌّ في القبو.

قال تي إكس: «ذاك هو جرس جهاز إنذار السرقات، على ما أظن، انزل وأوقف ذلك الجرس.»

كان يخاطب فيشر، الذي كان واقفًا عند الباب بوجهٍ مضطرب. وحين ذهب، رمق تي إكس أحد الضباط المنتظرين بنظرةٍ خاطفة ذات مغزًى، وسار الرجل في أعقاب الخادم على مهل.

أوقف فيشر الجرس ثم عاد إلى الرَّدهة ووقف أمام مدفأة الرَّدهة، وكان في غاية التوتر والاضطراب. وبالقرب من نيران المدفأة كانت هناك طاولة كتابة كبيرة من خشب البلوط، عليها مظروف صغير لم يتذكَّر أنه قد رآه من قبل، رغم أنه ربما كان هناك منذ فترة؛ إذ إنه أمضى فترةً أكبرَ من المساء في المطبخ مع الطاهية.

التقط المظروف، وأدرك في دهشةٍ أنه موجَّه إليه. فتحه وأخرج منه بطاقة. لم يكن عليها سوى بضع كلمات لا أكثر، لكنها كانت كفيلة بأن تحيل لونَه إلى الشحوب وتسري في يديه رِعشة. أخذ المظروف والبطاقة وألقى بهما في النار.

تصادف في تلك اللحظة أن نادى مانسوس من الطابَق العلوي، وهُرع الضابط الذي كُلِّف بوضع الخادم تحت المراقبة إلى أعلى استجابةً للنداء. تردَّد فيشر لحظة، ثم تسلَّل إلى الباب دون قبَّعته ومعطفه، وفتحه، وتركه مواربًا وراءه ثم انطلق يهبِط درجات السلَّم، وخرج من المنزل يركض كأرنب بري.

كان الطبيب، الذي جاء بعد ذلك بقليل، متحفظًا فيما يتعلَّق بتحديد ساعة الوفاة.

قال: «إذا كنتم قد تلقيتم إشارتكم الهاتفية في العاشرة وخمس وعشرين دقيقة، كما تقولون، فعلى الأرجح أن هذه هي الساعة التي قُتل فيها.» وتابع: «لا أستطيع الجزم بذلك في نصف ساعة. من الواضح أن الرجل الذي قتله أحكم قبضته على حنجرته بيده اليسرى — إذ توجد كدمات على العنق — وطعنه بيده اليمنى.»

في هذا التوقيت لوحظ اختفاء فيشر، ولكن استجواب السيدة بيل التي كانت مرتعبة أزال أيَّ شك لدى تي إكس في تورط الرجل في الجريمة.

قال تي إكس: «من الأفضل أن نرسل إشارة إلى «جميع الأقسام» ونلقي القبض عليه.» وأضاف: «لقد كان مع الطاهية منذ لحظة انصراف الضيف وحتى بضع دقائق قبل حضورنا. وفوق ذلك، يبدو واضحًا استحالةُ دخول أي شخص إلى هذه الغرفة والخروج منها ثانيةً. هل فتَّشت القتيل؟»

أبرز مانسوس صينيةً وُضِعت عليها متعلقات كارا. استطاعت السيدة بيل التعرُّف على المفاتيح التقليدية. وكان يوجد أكثر من مفتاح تعذَّر عليها التعرُّف عليها. تعرَّف تي إكس على أحدها بوصفه مفتاح الخزينة، ولكنَّ ثمَّة مفتاحين صغيرين وضعاه في حيرةٍ شديدة، ولم تستطِع السيدة بيل مساعدته في البداية.

قالت: «الشيء الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه، يا سيدي، هو قبو النبيذ.»

قال تي إكس ببطء: «قبو النبيذ؟» وأضاف: «لا بد أنه ...» ثم توقَّف.

لم تستطِع المأساة الكبرى التي وقعت في ذلك المساء، بكلِّ جوانبها الملغزة، أن تمحو من ذهنه التفكير في الفتاة ... بليندا ماري، التي استنجدت به حين حاق بها خطرٌ كما خمَّن. نزل إلى المطبخ ووقف وجهًا لوجه أمام الباب غير المطلي.

قال: «إنه يبدو أقرب إلى سجنٍ منه إلى قبو نبيذ.»

قالت السيدة بيل: «ذاك ما كنت أعتقده دائمًا يا سيدي، وأحيانًا ما كان ينتابني إحساس رهيب بالخوف.»

أوقف ثرثرتها بوضع أحد المفتاحين في القفل، فلم يَدُر، ولكن حالفه النجاح مع الآخر. فُتح القفل بسهولة ودفع الباب إلى الخلف. وجد الباب الداخلي موصدًا من أعلى وأسفل. دفع الترباسين فارتدا في فتحتيها المشحَّمتين جيدًا دون أدنى جهد. فقال في نفسه إنه من المؤكد أن كارا كان يستخدم هذا المكان كثيرًا.

دفع الباب ليفتحه ثم توقَّف مطلقًا صيحةَ اندهاش. كان القبو مضاءً بأضواء مبهرة، ولكن لم يكن أحدٌ موجودًا به.

قال تي إكس: «لقد تجاوز هذا كل شيء.»

رأى شيئًا على الطاولة ورفعه. كان مقصًّا ذا نصلين طويلين وكان مقبضه ملفوفًا بمنديل. لم يكن هذا هو ما أدهشه، بل حقيقة أن نصلَي المقص كانا ملطخين

بالدماء، كما كانت هناك دماء أيضًا على المنديل. حلّ قطعة القماش القطنية الرقيقة وحدَّق إلى وسمٍ كُتِب بالأحرف الأولى «بي إم بي».

نظر حوله. لا أحدَ رأى السلاح ما دعاه إلى دسِّه في جيب معطفه، وسار من القبو إلى المطبخ حيث كانت السيدة بيل ومانسوس في انتظاره.

تساءل في صوتٍ متوتر: «يوجد قبو سفلي، أليس كذلك؟»

قالت المرأة موضحة: «لقد أُغلق بالطوب حين أخذ السيد كارا المنزل.»

قال: «لا يوجد شيء آخر يمكن تفتيشه هنا.»

صعد السلَّم ببطء متجهًا إلى المكتبة، وقد تملَّكت عقله حيرةٌ شديدة. لم يكن مفهومًا كيف له وهو ضابط شرطة مفوَّض، أقسم على كشف المجرمين، أن يحاول التستُّر على فتاةٍ من المحتمل أن تكون مجرمة. ولكن إن كانت الفتاة قد ارتكبت هذه الجريمة، فكيف وصلت إلى غرفة كارا، ولماذا عادت إلى القبو المغلق!

أرسل في طلب السيدة بيل لاستجوابها. فأوضحت أنها لم تسمع شيئًا، وكانت في المطبخ طَوال فترة المساء. غير أنها أفصحت عن حقيقةٍ واحدة، مفادُها أن فيشر قد خرج من المطبخ وغاب ربع ساعة وعاد مضطربًا قليلًا.

قال تي إكس: «ابقي هنا»، ونزل إلى القبو مجددًا لإجراء مزيد من البحث والتفتيش.

فكَّر في نفسه قائلًا: «ربما يوجد مخرجٌ ما من هذا السجن السري»، وسرعان ما أدَّى بحثٌ دءوب إلى الكشف عن هذا المخرج.

وجد الباب السري الحديدي، وفتحه، وانسل عَبْر السلَّم. وذُهل هو الآخر من فخامة القبو. راح يتنقل من غرفةٍ إلى غرفة، إلى أن وصل في النهاية إلى غرفةٍ داخلية كان بها ضوء مشتعل.

كان الضوء، كما اكتشف، منبعثًا من مصباح قراءة صغير يوجد بجوار هيكل سرير نحاسي صغير. كان واضحًا أن ثمَّة مَن نام في السرير حديثًا، ولكن لم يكن يوجد أثر لأي شخص. أجرى تي إكس بحثًا دقيقًا للغاية ولم يواجه أي صعوبة في العثور على الباب المغلق بالطوب. ولم يكن ثمَّة أي مخارج أخرى.

كانت الأرضُ كتلةً خشبية مرتكزة على خرسانة، وكانت التهوية ممتازة، وفي مكانٍ معزول كان واضحًا أنه كان يحوي في وقتٍ ما صندوقًا كبيرًا لتخزين النبيذ، كان يوجد موقد طهي كهربائي رائع. وفي حجرة مؤن صغيرة، كان يوجد عدد من السلال، تحمل اسم متعهد توريد أغذية معروف، كانت إحداها تحوي تشكيلةً ممتازة من اللحوم الباردة والمعلبة، والأطعمة المحفوظة، وما إلى ذلك.

عاد تي إكس إلى غرفة النوم وأخذ المصباح الصغير من فوق الطاولة المجاورة إلى السرير وبدأ معاينةً أكثرَ دقة. بعد قليل وجد آثار دماء، واتبع أثرًا غيرَ منتظم قاده إلى الغرفة الخارجية. ولكنه فقده فجأةً عند قاعدة السلَّم المؤدي إلى أسفلَ من القبو العلوي. ثم استعادَه مرةً أخرى. وكان السلك الكهربائي الخاص بالمصباح الذي كان يحمله قد وصل الآن إلى آخر ما يمكن أن يصل إليه؛ لذا أخرج من جيبه مصباح جيب ليستخدمه.

كانت ثمَّة دلالات على أن شيئًا ثقيلًا كان يجرجر عبر الغرفة ورأى أن هذا الأثر يقوده إلى حمَّام صغير. كان قد قام بمعاينةٍ سريعة لهذا الحمَّام المجهَّز جيدًا، وفي هذه اللحظة شرع في إجراء معاينة دقيقة وجاءت بنتائج مثمرة للغاية.

كان الحمَّام هو المكان الوحيد الذي يحوي أيَّ شيء يشبه الباب، وكان حاجزًا مزدوجًا، وعندما دفعه للخلف، شعر بشيء يحول دون أن يتخذ امتداده الأوسع. انسل إلى داخل الغرفة وسلَّط ضوء مصباحه على المساحة الكائنة خلف الحاجز. وهناك وجد كلبًا كبيرًا أعجفَ يرقد نافقًا وقد تَيبَّست جثته وكانت عيناه شاحبتين ولسانه متدليًا، مكشرًا للمرة الأخيرة عن أنيابه الصفراء كاشفًا إياها.

كان عنقه محاطَا بطوقٍ وكان معلقًا به بضع حلقات من سلسلة مكسورة. ارتقى تي إكس درجات السلَّم وهو مستغرق في التفكير واتجه إلى المطبخ.

هل طعنت بليندا ماري كارا، أم قتلت الكلب؟ من المؤكد أنها قد قتلت أحد الكلبين. أما أن تكون قد قتلت كليهما، فهذا احتمال وارد.

الفصل الخامس عشر

بعد ليلةٍ بلا نوم حافلةٍ بالأحداث، ذهب تي إكس في صباح اليوم التالي ليقدِّم تقريره إلى رئيس الشرطة. كانت الصحف المسائية تعج بأخبار «حادث تشيلسي المثير»، ولكن المعلومات المتضمنة كانت شحيحة.

مع اختفاء فيشر، كان الكثير من التفاصيل التي كان من الممكن الحصول عليها بواسطة الصحفيين المغامرين غيرَ متاح. لم يكن ثمَّة أي إشارة إلى زيارة السيد جاذركول، ودفاعًا عن نفسها، لجأت الصحافة إلى تصريح، تسرَّب في وقتٍ سابق إلى الصحف في واحدة من تلك الفقرات الحافلة بالثرثرة التي تبدأ بـ «لقد رأيت صديقي كارا في جيروس» وتنتهي بملخَّص موجز ولكنه يفتقر إلى الدقة لهواياته. كانت الفقرة تشير في مضمونها إلى أن السيد كارا كان يخشى على حياته فترةً؛ نتيجةً لثأرٍ كان بينه وبين عائلةٍ ألبانية أخرى. لذا لم يكن مستغربًا أن تُوصف الجريمة في كل مكان بـ «جريمة القرن السياسية».

قال تي إكس لرئيسه: «حتى الآن لم أتمكَّن من العثور على جاذركول أو الخادم. الشيء الوحيد الذي نعرفه عن جاذركول أنه أرسل مقاله إلى جريدة «ذا تايمز» مرفقًا به بطاقته. لم يُدلِ الخَدَم العاملون في ناديه بأي معلوماتٍ ذاتِ قيمة عن مكانه. إنه رجل غريب الأطوار للغاية، لا يأتي إلا بين حين وآخر، والخادم الذي استجوبته يقول إنه كثيرًا ما يتصادف أن يصل جاذركول ويغادر دون أن يلاحظ أحد ذلك. ذهبنا إلى مسكنه القديم المستأجَر في لينكولنز إن، ولكن يبدو أنه قد باع ممتلكاته هناك قبل أن يرحل إلى براري باتاجونيا، وتنازل عن حيازته.

الدليل الوحيد الذي بين يدَيَّ هو أن رجلًا يطابق أوصافه إلى حدٍّ ما قد غادر إلى باريس على متن قطار الحادية عشرة الليلة الماضية.»

قال رئيس الشرطة: «بالطبع قابلت السكرتيرة.»

كان تي إكس يخشى هذا السؤال.

فأجاب باقتضاب: «رحلت هي الأخرى؛ بل إنها لم تُشاهد منذ الخامسة والنصف من مساء أمس.»

أسند السير جورج ظهره في مقعده وأخذ يجعِّد خصلات شعره الرمادي الكثيف.

ثم قال بسخرية لاذعة: «يبدو أن الشخص الوحيد الباقي هو كارا نفسه. هل تودُّ أن أكلِّف شخصًا آخر بهذه القضية — فهي ليست من اختصاصك بالمعنى الدقيق — أم ستواصل التحقيق فيها؟»

قال تي إكس بنبرةٍ جادة صارمة: «أفضِّل أن أواصل العمل بها يا سيدي.»

«هل اكتشفت أي شيء آخر بشأن كارا؟»

أومأ تي إكس إيجابًا.

ثم قال: «كل ما اكتشفته عنه مخزٍ وشائن إلى حدٍّ كبير.» وتابع: «يبدو أنه كان يتطلع لشغل منصب مهم للغاية في ألبانيا. وفي سبيل ذلك قدَّم رشاوى وتمويلات إلى مسئولين أتراك وألبان، وكان لديه قاعدة كبيرة إلى حدٍّ ما من الأنصار في ذلك البلد. لقد أخبرني بارثولوميو أن كارا قد جسَّ نبضه بشأن إمكانية اعتراف الحكومة البريطانية بالأمر الواقع في ألبانيا، وكان يحثُّه على استخدام نفوذه مع مجلس الوزراء للاعتراف بنتائج أي ثورة تندلع. لا شكَّ إطلاقًا في أن كارا كان العقل المدبِّر لكل الاغتيالات السياسية التي كانت سمةً مميزة في الأخبار القادمة من ألبانيا

خلال العام الفائت. وجدنا أيضًا في المنزل مبالغَ ضخمة جدًّا من المال، ووثائق قمنا بتسليمها إلى وزارة الخارجية لحل شفرتها.»

فكَّر السير جورج فترةً طويلة.

ثم قال: «أنا واثق من أنك إذا عثرت على السكرتيرة، فستقطع نصف الطريق نحو حل اللغز.»

خرج تي إكس من المكتب في حالةٍ أبعدَ ما تكون عن الابتهاج. كان في طريقه لتناول الغداء حين تذكَّر وعدَه بزيارة جون لكسمان.

هل يمكن أن يقدِّم مفتاحًا من شأنه حل هذا الموقف المأساوي العسير؟ انحنى من مقعده بالخلف في السيارة الأجرة التي يستقلها وأعاد توجيه السائق. وتصادف أن توقَّف السائق أمام باب فندق جريت ميدلاند وقت خروج لكسمان منه.

قال تي إكس: «تعالَ وتناول معي الغداء.» وأضاف: «أظنك قد سمعت كل الأخبار.»

قال الآخر: «قرأت عن مقتل كارا، إن كان هذا ما تقصده.» ثم قال في اضطراب: «كانت مصادفة أن كنتُ أناقش الأمر الليلةَ الماضية في اللحظة نفسها التي رنَّ فيها جرس هاتفه، كنت أتمنى من الرب ألا تتورَّط في هذا الأمر.»

تساءل مفوَّض الشرطة المساعد في دهشة: «لماذا؟ وماذا تقصد بـ «أتورط في هذا الأمر»؟»

قال الآخر في كآبة: «في الواقع تمنيت ألا تكون موجودًا حين عُدت، لقد أردت أن أنتهي من هذا الأمر الحقير برمَّته دون أن أورِّط أصدقائي بأي صورة.»

ضحك الآخر وربَّت على كتفه قائلًا: «أعتقد أنك حساس أكثر مما ينبغي.» وأردف: «أريدك أن تفضي لي بهمومك، يا صديقي العزيز، وتخبرني بأي شيء يمكنك أن تخبرني به ومن شأنه أن يساعدني في استجلاء هذا اللغز.»

نظر جون لكسمان أمامه مباشرةً وعلى وجهه تقطيبة قلق.

ثم قال في هدوء: «أنا على استعداد لفعل أي شيء من أجلك، يا تي إكس، خاصة أنني أعرف ما أبديته من شهامةٍ تجاه جريس، ولكن لا أستطيع مساعدتك في هذا الأمر»، ثم صاح قائلًا: «لقد كرهت كارا حيًّا، وأكرهه وهو ميت»، وكان في صوته غضبٌ لا يخطئه أحد، ثم أضاف: «لقد كان أقذرَ مخلوق على وجه الأرض. ما من خسة بشعة ولا وحشية شنيعة إلا وتباهى بأن له يدًا فيها. إن كان للشيطان تجسيدٌ على الأرض، فقد اتخذ شكل رمينجتون كارا وهيئته. لقد مات مِيتةً أرحمَ مما يستحق بكل المقاييس. ولكن إذا كان هناك عدل، فسيعاني هذا الرجل في الجحيم بسبب جرائمه إلى الأبد.»

نظر تي إكس إليه في دهشة. وحبست الكراهيةُ البادية على وجه الرجل أنفاسه. فلم يرَ أو يختبر من قبل قط مثل هذه الكراهية العارمة المحتدمة.

سأله قائلًا: «ماذا فعل لك كارا؟»

نظر الآخر من النافذة.

ثم قال في نبرةٍ أقلَّ حدة: «آسف، فهذه نقطة ضعفي. يومًا ما سوف أخبرك بالقصة كاملة، ولكن في الوقت الحالي من الأفضل ألا تُروى. سوف أخبرك بشيء»، ثم التفت وواجه المحقِّق مباشرة وقال: «لقد قام كارا بتعذيب زوجتي وقتلها.»

لم يقل تي إكس أي شيء آخر.

في منتصف الغداء عاد بطريقٍ غيرِ مباشر إلى الموضوع.

سأله قائلًا: «هل تعرف جاذركول؟»

أومأ تي إكس إيجابًا.

«أظنك قد سألتني هذا السؤال من قبل، أو ربما كان شخصًا آخر. نعم، أعرفه، إنه رجل غريب الأطوار نوعًا ما ذو ذراع اصطناعية.»

قال تي إكس بتنهيدة خفيفة: «ذاك هو مَن أقصده، إنه واحد من القلائل ممن أرغب في مقابلتهم في التو واللحظة.»

«لماذا؟»

«لأنه يبدو أنه آخر شخص رأى كارا وهو لا يزال حيًّا.»

نظر جون لكسمان إلى الآخر بهزةٍ من كتفَيْه تنم عن نفاد صبره.

سأله قائلًا: «أنت لا تشكُّ في جاذركول، أليس كذلك؟»

قال الآخر بجفاء: «مطلقًا؛ فالرجل الذي ارتكب هذه الجريمة كان له يدان، وكان بحاجةٍ إلى كليهما. كلا، أنا فقط أريد أن أسأل ذلك السيد عن موضوعِ حديثِهِ معه. وأريد أيضًا أن أعرف مَن كان بالغرفة مع كارا حين دخل جاذركول.»

قال جون لكسمان: «إمممم.»

«حتى لو عرفتُ مَن يكون هذا الشخص الثالث، فما زلتُ في حيرةٍ بشأن الكيفية التي خرج بها وأحكم إغلاق المزلاجِ الثقيل خلفه.» ثم قال مداعبًا: «في الأيام الخوالي يا لكسمان، كنتَ ستُبدع قصةً بوليسيةً رائعةً من هذه الجريمة. كيف كنتَ ستجعل بطل قصتك يهرب؟»

فكَّر لكسمان وهلةً.

ثم سأله: «هل عاينت الخزنة؟»

قال الآخر: «نعم.»

«هل كان بها الكثير؟»

نظر إليه تي إكس في دهشة.

«لم يكن بها سوى الدفاتر والأشياء العادية المتعارف عليها. لماذا تسأل؟»

«لنفترض أن لتلك الخزنة بابَين؛ أحدهما خارج الغرفة والآخر في الداخل، هل سيكون من الممكن أن تمر عَبْر الخزنة وتهبِط من الحائط؟»

قال تي إكس: «فكَّرت في ذلك.»

قال لكسمان وهو يتكئ إلى الخلف ويعبث بملعقةٍ مخصصة للملح: «بالطبع عند كتابة قصة، حيث لا يتعامل المرء مع احتمالاتٍ قاطعة، بإمكان الكاتب دائمًا أن يجعل لكارا خزينةً بهذا الوصف كي يستطيع الهرب حال تعرُّضه لخطر. يمكنه أن يخزِّن بداخلها سلَّمًا من الحبل، ويفتح الباب الخلفي، ويلقي بسلَّمه هذا إلى صديقٍ وبتدبيرٍ ماكر يمكنه أن يفصل السلَّم ويسمح للباب بأن يغلق مجددًا.»

قال تي إكس: «فكرةٌ بارعة للغاية، ولكنها للأسف لا تجدي في هذه القضية. لقد رأيتُ تصميم هذه الخزنة ولا يوجد بها أي شيء غريب عدا أنها تُستخدم كما هي. هل يمكنك تقديم اقتراح آخر؟»

فكَّر جون لكسمان مجددًا.

ثم قال: «لن أقترح أبوابًا خفية، أو ألواحًا سرية، أو أي شيء سخيف من هذا القبيل، ولا نوابض خفية في الحائط تكشف عن سلالم سرية عند لمسها.»

وابتسم ابتسامةً خفيفة.

«لا بد أن أعترف أنني في بداياتي كنت حريصًا إلى حدٍّ ما على هذا النوع من الأشياء، ولكن الزمن جلب معه الخبرة، واكتشفت استحالة جلب مهندس معماري حسب هوى المرء حتى في مسألةٍ عادية كموقع حجرة لغسل الصحون. سيكون من الأصعب كثيرًا أن تقنعه بإنشاء منزل بجدران مزدوجة وغرف سرية.»

انتظر تي إكس في صبر.

قال لكسمان ببطء: «بالطبع يوجد احتمال أن يكون المزلاج الصلب قد رُفع بواسطة شخص من الخارج بأداة ممغنطة بارعة، وأُنزِل بطريقة مماثلة.»

قال تي إكس منتشيًا: «فكَّرت في ذلك، وأجريت أعقد الاختبارات هذا الصباح فقط. من المستحيل تمامًا رفع المزلاج الفولاذي؛ لأنه بمجرد أن يهبِط لا يمكن رفعه مرة أخرى إلا بواسطة المقبض؛ إذ يؤدي جذبه إلى تحرير السقاطة التي تحكم القبض على المتراس في مكانه. اقترح واحدًا آخر، يا جون.»

رمى جون لكسمان رأسه إلى الخلف وهو يضحك ضحكةً هادئة.

ثم قال: «لستُ أفهم لماذا يجب أن أساعدك في كشف قاتل كارا، ولكن سأقدِّم لك نظريةً أخرى، وفي الوقت نفسه أحذِّرك من أنني قد أجعلك تحيد عن المسار الصحيح. فالرب يعلم أن لديَّ دوافعَ أكثرَ من أي شخص في العالم لقتل كارا.»

فكَّر بعض الوقت.

ثم قال: «بالطبع كانت المدخنة مستحيلة؟»

قال تي إكس موضحًا: «كان هناك نيران كبيرة مشتعلة في المدفأة، وكانت ضخمة للغاية في الواقع لدرجةِ أن جوَّ الغرفة كان خانقًا.»

أومأ جون لكسمان.

ثم قال: «تلك كانت عادة كارا، وفي الواقع أعرف أن اقتراح المغنطة في المتراس الفولاذي كان مستحيلًا؛ لأنني كنت على علاقة طيبة بكارا عند تركيب ذلك المتراس وأعرف جيدًا آليته، مع أنني لا أتذكرها في الوقت الحالي. ما نظريتك، بالمناسبة؟»

زمَّ تي إكس شفتيه.

ثم قال بحذر: «نظريتي لم تتشكَّل بوضوحٍ بعد، ولكن بحسب ما توصلتُ إليه حتى الآن، أتخيَّل أن كارا كان مستلقيًا على السرير، وعلى الأرجح كان يقرأ واحدًا

من الكتب التي عُثر عليها بجوار السرير حين انقض عليه قاتله فجأة. أمسك كارا بالهاتف لطلب النجدة، وقُتل في الحال.»

ساد الصمت بينهما مجددًا.

قال جون لكسمان بتروِّيه الغريبِ في الحديث: «هذه نظرية، ولكنني أرفض القطع بشيء، كما قلت، هل عثرتَ على سلاح الجريمة؟»

هزَّ تي إكس رأسه نافيًا.

«هل كان في الغرفة أيُّ ملامحَ غريبةٍ أثارت دهشتك ولم تخبرني بها؟»

تردَّد تي إكس.

ثم قال: «كانت توجد شمعتان، واحدة في منتصف الغرفة والأخرى تحت السرير. الشمعة التي كانت في المنتصف كانت شمعةَ عيد ميلاد صغيرة، والأخرى التي كانت تحت السرير كانت شمعةً تجاريةً عادية، من الواضح أنها قد قُطعت بلا إتقان والأرجح أنها قد قُطعت في الغرفة. فقد وجدنا آثارًا لقِطع شمع على الأرض ويبدو لي أن القطعة التي جُزَّت أُلقيت في النار؛ إذ وجدنا فيها أثرًا لشحم.»

أومأ لكسمان.

سأله: «هل يوجد شيء آخر؟»

«كانت الشمعة الأصغر حجمًا ملتويةً وتتخذ شكلَ متقابٍ إلى حدٍّ ما.»

فكَّر جون لكسمان ثم قال: ««دليل الشمعة الملتوية»، ذاك عنوان رائع؛ لقد كان كارا يكره الشموع.»

«لماذا؟»

أسند لكسمان ظهره في مقعده، والتقط سيجارةً من علبة فضية.

ثم قال: «خلال جولاتي ذهبت إلى أماكنَ غريبةٍ عديدة. وقد ذهبت إلى البلد الذي ربما لا تعرفه، والذي نادرًا ما يزوره الرحَّالة الذي يؤلِّف كتبًا عن البلاد. توجد قرًى صغيرة غريبة تقع على النتوءات الصخرية لأكثر التلال التي رأيتها على الإطلاق كآبة ووحشة. عشت مع مجتمعات لا تعترف بملِك ولا بحكومة. فلهذه المجتمعات قوانينُها المتوارثة من الأب إلى الابن، وهي أمَّة بلا لغةٍ مكتوبة. ولكنهم يطبِّقون قوانينهم بكل حسم وصرامة. والعقوبات التي يطبقونها قاسية ... بل غير آدمية. لقد رأيت المرأة التي تمارس الفجور تُرجم حتى الموت كما في أفضل التعاليم الإنجيلية، ورأيت السارق يُعمى.»

ارتجفت أوصال تي إكس.

«ورأيت شاهد الزور يقف في سوقٍ بربرية بينما لسانه يُقطَع منه. وفي بعض الأحيان كان الأتراك أو حكومات البلاد المختلطة يرسلون بعض رجال الدَّرك ويجرِّبون نوعًا من الإدارة المشتتة للبلاد. وغالبًا ما كان ينتهي الأمر بسقوط الممثل القانوني للحكومة في بئرِ البربرية، أو الاختفاء من على وجه الأرض، مع وجود جمْع كامل من القَتَلة على أتم الاستعداد للشهادة، بإجماعٍ فريدٍ من نوعه، بأنه إما انتحر، وإما هرب مع زوجة أحد رجال البلاد.

في بعض هذه المجتمعات تلعب الشمعة دورًا كبيرًا. إنها ليست الشمعة التجارية كما تعرفها؛ بل شمعة مصنوعة من دهن الشاه. إنهم يقومون بربط ثلاث شموع بين أصابع يدك مع تثبيت اليد بإحكام بواسطة قطعتين مسطحتين من الخشب، ثم تُشعل الشموع وتتضاءل وتتضاءل ... هل تتخيَّل ذلك؟ أو تُوضع شمعةٌ في خيطٍ من البارود ثم يُمد هذا الخيط إلى كومةٍ من البرادة الممزوجة جيدًا بالزيت المكدسة بعنايةٍ وتروٍّ حول قدميك الحافيتين. أو تُثبَّت شمعةٌ برأس رجل حليق ... توجد مئات الطُّرق تلعب الشمعةُ دورًا فيها جميعًا. لا أعرف أيها أكثر بغضًا لدى كارا، ولكن أعرف أنه قد استخدم طريقة أو اثنتين.»

تساءل تي إكس: «أكان بهذه البشاعة؟»

ضحك جون لكسمان.

ثم قال: «أنت لا تعلم كم كان بشعًا.»

قُرْب انتهاء الغداء أحضر النادل رسالةً إلى تي إكس أُرسلت من مكتبه.

> ## عزيزي السيد ميرديث
>
> ردًّا على سؤالك، أعتقد أن ابنتي في لندن، ولكني حقًّا لم أعرف بهذا حتى هذا الصباح. أبلغني مدير البنك الخاص بي أن ابنتي جاءت إلى البنك هذا الصباح وسحبت مبلغًا كبيرًا من المال من حسابها الخاص ولكن لا أعرف أين ذهبت وماذا ستفعل بالمال. لستُ بحاجة لأن أخبرك بأنني في غاية القلق بشأن هذا الأمر وسأكون سعيدًا إذا استطعت أن توضِّح لي الأمر برمَّته.
>
> ويليام بارثولوميو

تأوَّه تي إكس.

ثم قال: «فقط لو كنت قد تنبَّهت للذهاب إلى البنك هذا الصباح، لكنت رأيتها.» وتابع: «سوف أفقد عملي بسبب هذا الأمر.»

بدا الآخر مضطربًا.

«أنت لا تعني ذلك حقًّا.»

ابتسم تي إكس قائلًا: «ليس بالضبط، ولكن لا أعتقد أن الرئيس سعيدٌ بي بشدة الآن. أنت تعرف أنني قد تدخلت عَنوةً في هذا الأمر دون أي سلطة تخوِّل لي ذلك؛ فهو ليس من اختصاص إدارتي. ولكنك لم تُدلِ لي بنظريتك بشأن الشموع.»

قال الآخر وهو يطوي منديل المائدة الخاص به: «ليس لديَّ نظرية لأعرضها؛ فالشموع تشير إلى جريمةٍ من الطراز الألباني التقليدي. لا أقول إنها كانت كذلك، فقط أقول إن وجودها يوحي بجريمةٍ من هذا النوع.»

اضطُرَّ تي إكس للاكتفاء بذلك.

إذ لم يكن من شأنه أن يشغل نفسه بجريمةٍ عادية — وإن كان مثل هذا الوصف لا يلائم هذه الجريمة — فقد كان جزءًا من المهام الخاصة المنوطة بها إدارته أن تعيد إلى الليدي بارثولوميو علبة سعوط متقنة الصنع للغاية كان قد وجدها في الخزنة.

كان قد عُثِر على خطاباتٍ ضمن أوراق كارا أوضحت الدور الذي لعبه. وعلى الرغم من أنه لم يكن مبتزًّا عاديًّا، فقد احتفظ تحت يده بتلك العلبة المملوكة لليدي بارثولوميو، وبأغراضٍ أخرى كذلك عُثر عليها، ولم يكن هدفه من ذلك، حسبما بدا، سوى إرغام أشخاص بأعينهم من المحتمل أن يكونوا عونًا له في خططه لاستغلال نفوذهم لصالحه.

لم تُسفِر جلسةُ التحقيق في أسباب وفاة القتيل والتي حضرها مفوَّض الشرطة المساعد عن أي شيء يرقى إلى مستوى الأدلة، ولم يكن متوقَّعًا أن يُصدِر قاضي التحقيق قرارًا سوى «قيد الجريمة ضد شخص أو أشخاص مجهولين.»

أمضى تي إكس أسبوعًا حافلًا ومرهقًا للغاية في تعقُّب أدلةٍ محيرة لم تَقُده إلى أي شيء. وتلقَّى من جون لكسمان خطابًا يخبره فيه بأنه قد عزم على الرحيل إلى الولايات المتحدة. فقد تلقَّى عرضًا جيدًا جدًّا من شركةٍ لنشر المجلات في نيويورك وسوف يذهب من أجل قبول العرض.

كانت خطط ميرديث في هذا الوقت قد اتخذت شكلًا معقولًا. فاستقر على المسار الذي سيتحرك فيه وفي سبيل هذا التقى برئيس الشرطة ووزير العدل.

قال ذلك الرجل العظيم في اضطراب: «أجل، لقد راسلتني ابنتي، وقد وضعتني حقًّا في موقفٍ حرجٍ إلى أقصى الحدود. لا يمكنني أن أخبرك بالضبط يا سيد ميرديث كيف فعلت هذا، ولكن يمكنني أن أؤكد لك أنها قد فعلته.»

سأله تي إكس: «هل بوسعي الاطلاع على الرسالة أو البرقية التي أرسلتها؟»

قال الآخر بجدية: «أخشى أن ذلك مستحيل؛ لقد توسَّلت إليَّ أن أحيط رسالتها بالسرية التامة. لقد أرسلتُ إلى زوجتي وطلبت منها أن تعود. أشعر أن التوتر المستمر الذي أتعرض له أكبرُ مما يستطيع بشرٌ أن يتحمله.»

قال تي إكس في صبر: «أظن أن من المستحيل أن تخبرني بالعنوان الذي أرسلت عليه الرد، أليس كذلك؟»

أجاب الآخر: «لم أرسل إلى أي عنوان»، ثم صحَّح كلامه سريعًا وقال: «أعني أنني تلقيت البرقية ... أقصد الرسالة هذا الصباح ولم يكن بها عنوان ... كي أرسل الرد عليه.»

قال تي إكس: «فهمت.»

في عصر ذلك اليوم أصدر تعليمات إلى سكرتيرته.

وقال: «أريد نسخة من كل الإعلانات الشخصية المنشورة في صحف الغد وفي الطبعات الأخيرة من الصحف المسائية، وأريدها جاهزة لي غدًا عند وصولي صباحًا.»

كانت الإعلانات في انتظاره حين وصل إلى المكتب في التاسعة صباحًا من اليوم التالي، وأخذ يتصفَّحها بعناية. وبعد قليل وجد الرسالة التي كان يبحث عنها.

«بي إم. إنك تضعينني في موقف حرج. منتهى الطيش والرعونة. تلقيت طردًا أُرسل على عنوان والدتك وضعته في حجرةِ جلوسها. لا أفهم لماذا تريدين مني

الرحيل في عطلة نهاية الأسبوع وإعطاء الخَدَم إجازة ولكني فعلتُ. أنا بحاجةٍ إلى توضيحٍ كاملٍ ووافٍ. لقد جاوز الأمر المدى. والدك.»

قال تي إكس مبتهجًا، وهو يقرأ الإعلان: «هذه هي البداية التي ينبغي أن أنطلق منها.»

الفصل السادس عشر

عادة ما يكون فبراير شهرًا بلا ضباب، ولكنه شهر الرياح العاصفة، والصقيع، وتساقط الثلوج، ولكن ليلة السابع عشر من فبراير كانت من الليالي الهادئة ذات الضباب الخفيف. لم يكن ذلك الضباب المعتاد في لندن الذي يخافه الأجانب أشدَّ الخوف، ولكن ثمَّة واحدة من تلك الرُّقَع الضبابية التي تنشر دخانها عبر الشوارع، حاجبةً أقرب الأشياء جاعلةً إياها غيرَ مرئية، كانت في تلك اللحظة تنقشع متحولة إلى خيوطٍ شفافة من أجمل ما يكون، تتخذ لونًا رماديًّا باهتًا.

كان السير ويليام بارثولوميو يملك منزلًا في بورتمان بليس، وهو شارع رحيب يعجُّ ببناياتٍ ذاتِ واجهات كئيبة من الخارج، ولكنها مريحة للغاية من الداخل. قبل الساعة الحادية عشرة بقليل، في ليلة السابع عشر من فبراير، توقَّفت سيارة أجرة عند تقاطع شارع ساسيكس مع شارع بورتمان بليس، وترجَّلت منها فتاة. كان الضباب في تلك اللحظة أكثر كثافة من المعتاد وتردَّدت لحظةً قبل أن تغادر الملاذ الآمن داخل السيارة الأجرة.

أعطت السائق بعض التعليمات وواصلت السير بخطًى ثابتة، لتنعطف فجأة وترتقي سلَّم البناية رقم ١٧٣. وبسرعة شديدة وضعت مفتاحها في القفل وفتحت الباب وأغلقته وراءها. أضاءت نور الردهة. بدا المنزل فارغًا ومهجورًا، وهو ما منحها قدْرًا كبيرًا من الارتياح. أضاءت النور، وشقَّت طريقها إلى أعلى عَبْر السلَّم العريض متجهةً إلى الطابَق الأول، ثم توقَّفت لحظةً لتضيء نورًا آخرَ كانت تعلم أنه لن يكون ملحوظًا من الشارع بالخارج، وارتقت المجموعةَ الثانية من درجات السلَّم.

هنأت الآنسة بليندا ماري بارثولوميو نفسها على نجاح خطّتِها، وكان الشكّ الوحيد الذي يساور عقلها الآن هو ما إذا كانت غرفة الجلوس قد أُوصدت، ولكنَّ أباها كان يهمل مثل هذه الأمور، وكان جاكس كبيرُ الخَدَم واحدًا من أولئك العُجُز السخفاء الذين لا يُغلقون أيَّ شيء؛ ومن ثَم كانت تواجه كل مراجعة لمحتويات المنزل بوجهٍ مكفهرٍّ وسردٍ طويل لسرقات الخَدَم المؤقتين.

انتابها شعورٌ بالغ بالارتياح حين دار المقبض وانفتح الباب بلمسةٍ منها. وكان لدى أحدهم من الحصافة ما جعله يجذب الستائر المعدنية الحاجبة ويُسدِل الستائر القماشية. أضاءت النور بتنهيدةِ ارتياح. كانت منضدةُ الكتابة الخاصة بأمها مغطاةً بخطاباتٍ لم تُفتح، ولكنها أزاحتها جانبًا في خضم بحثِها عن الطرد الصغير. لم يكن موجودًا ما جعل الخوفَ يدبُّ في قلبها. ربما وضعته في أحد الأدراج. ففتحتها جميعًا دون جدوى.

وقفت إلى جانب المنضدة في حالةٍ من الارتباك الشديد، وهي تعَضُّ على أحد أصابعها في تأمل.

ثم وثبت قائلة: «حمدًا للرب!»؛ إذ رأت الطردَ على رف المدفأة فاجتازت الغرفة وأنزلته.

وبيدَيْن متلهفتَيْن مزَّقت الغلاف فبدت العلبة الجلدية المألوفة لديها. وانطلقت منها تنهيدةُ ارتياح طويلة حين فتحت الغطاء المبطَّن ورأت علبة السَّعُوط راقدةً في طبقةٍ من القطن الطبي.

فقالت بصوتٍ عالٍ: «شكرًا للرب على ذلك.»

قال صوتٌ ما: «ولي أيضًا.»

قفزت من مكانها والتفتَت حولها وفي عينَيْها نظرةُ هلع.

قالت متلعثمة: «السيد … السيد ميرديث.»

وقف تي إكس بجوار ستائر النافذة التي دخل منها دخلته الدرامية المثيرة إلى المشهد.

وبعد قليل قال: «أظن أن عليكِ أن تشكريني أنا أيضًا، يا آنسة بارثولوميو.»

تساءلت ببعض الفضول: «كيف عرفت اسمي؟»

أجابها قائلًا: «أعرف كل شيء في العالم»، فابتسمت. وفجأة غشيت الجديةُ قسماتِ وجهها وسألته في حدة:

«مَن أرسلك في إثري ... السيد كارا؟»

كرَّر الاسم في استغراب قائلًا: «السيد كارا؟»

تابعت بسرعةٍ قائلة: «توعَّدني بأن يرسل في طلب الشرطة، وأخبرته أن بإمكانه أن يفعل ذلك. فلست عابئةً بالشرطة؛ بل كارا هو مَن كنت أخشاه. أنت تعرف لِمَ فعلت هذا؛ إنه من أجل شيء مِلك أمي.»

وأمسكت بعلبة السَّعُوط في يدها المبسوطة.

«لقد اتهمني بالسرقة، وكان يشعُّ حقدًا وكراهية، ثم أنزلني إلى ذلك القبو السفلي البشع ثم ...»

قال تي إكس: «ثم ماذا؟»

أجابَت بشفتَيْن مشدودتَيْن: «هذا كل ما حدث، ماذا أنت فاعل الآن؟»

قال: «سوف أسألكِ بضعة أسئلة إذا سمحت لي بذلك.» وأضاف: «قبل كل شيء، ألم تسمعي أيَّ شيءٍ عن كارا منذ رحيلك؟»

هزَّت رأسها نافية.

ثم قالت بتجهُّم: «لقد ابتعدتُ عن طريقه.»

سألها: «هل اطلعتِ على الصحف؟»

أومأت برأسها.

«طالعتُ عمود الإعلانات الشخصية، كنت قد أرسلتُ برقيةً طالبت فيها أبي بالرد على برقيتي.»

ابتسم قائلًا: «أعرف ... لقد رأيتها، وهذا ما جاء بي إلى هنا.»

قالت في حزن: «كنت أخشى ذلك، إن أبي شديد الإسهاب في الكتابة ... فهو يُلقي خُطَبًا كما تعرف. كل ما أردته منه أن يقول نعم أو لا. ماذا تقصد بشأن الصحف؟ هل وقع لأمي مكروه؟»

هزَّ رأسه نافيًا.

«الليدي بارثولوميو، حسب علمي، في أحسن صحة وفي طريق عودتها إلى الوطن.»

سألته قائلة: «إذن ماذا تعني بسؤالك لي عن الصحف؟ لمَ يجب أن أطالع الصحف ... ماذا بها يخصني لأراه؟»

قال: «أمر كارا؟»

هزَّت رأسها في حيرة.

«لا أعرف شيئًا عن كارا ولا أريد أن أعرف عنه شيئًا. لماذا تقول لي ذلك؟»

قال تي إكس ببطء: «لأن رمينجتون كارا قُتل في الليلة التي اختفيتِ فيها من كادوجان سكوير.»

قالت لاهثة: «قُتِل.»

أومأ برأسه.

«تلقّى طعنةَ في قلبه من مجهول أو مجهولين.»

وأخرج تي إكس يده من جيبه وأمسك بها شيئًا ملفوفًا في منديل ورقي. أزال المنديل بحرصٍ وراحت الفتاة تراقب بنظرة اندهاش، وشعور رهيب بالخوف. وبعد قليل ظهر الشيء الملفوف داخل المنديل. كان مقصًّا لُفَّ مقبضُه بمنديلٍ ملطَّخ ببقع بُنيَّة. اتخذت خطوة إلى الخلف، رافعةً يديها إلى وجنتيها.

ثم قالت بصوتٍ مبحوح: «إنه مقصي، أنت لن تظن أن ...»

رفعت بصرها محدقة إليه، وبداخلها صراعٌ من أجل السيطرة بين مشاعر الخوف والسخط.

ابتسم قائلًا: «لا أظنكِ قد ارتكبت الجريمة، إن كان ذلك هو ما تقصدين سؤالي عنه، ولكن لو أن شخصًا آخرَ قد عثر على ذلك المقص وتعرَّف على هذا المنديل، لوقعتِ في ورطةٍ يا صديقتي الصغيرة.»

نظرت إلى المقص وارتعدت.

وقالت بصوتٍ خفيض: «لقد قتلتُ شيئًا بالفعل، قتلت كلبًا بشِعًا ... لا أعرف كيف فعلتها، ولكن ذلك الشيء المتوحِّش قفز نحوي فطعنته وأرديته قتيلًا، وأنا سعيدة بذلك»، وأومأت برأسها عدة مرات وكرَّرت: «أنا سعيدة.»

«هكذا استشفَفْتُ؛ لقد عثرتُ على الكلب، والآن لعلكِ ستشرحين لي لماذا لم أجدْك؟»

تردَّدَت مرةً أخرى وشعر أنها تُخفي شيئًا عنه.

قالت: «لا أعرف لماذا لم تجدني، لقد كنتُ هناك.»

«كيف خرجتِ؟»

قالت متحديةً إياه في جرأة: «كيف خرجتَ أنت؟»

اعترف قائلًا: «خرجتُ من الباب، تبدو طريقةَ عادية إلى حد السذاجة للمغادرة، ولكنها الطريقة الوحيدة التي استطعتُ رؤيتها.»

أجابت بابتسامةٍ واهية: «وهكذا خرجتُ أيضًا.»

«ولكنه كان موصدًا.»

ضحكت.

ثم قالت: «فهمت الآن، لقد كنتُ في القبو. لقد سمعتُ صوتَ مفتاحك في القفل، فأغلقتُ الباب السري، تاركةً ذلك المقص الشنيع ورائي. ظننتك كارا ومعه بعض أصدقائه، ثم تلاشت الأصوات، وغامرتُ بالصعود ووجدتك قد تركت الباب مفتوحًا. لذا ... لذا ...»

تحيَّر تي إكس من هذه الوقفات البسيطة الغريبة. كان ثمَّة شيء لم تخبره به. كان لا يزال هناك شيء لم تُفصِح عنه بعد.

تابعتْ قائلة: «لذا هربتُ كما تعلم.» وأضافت: «خرجتُ إلى المطبخ، ولم يكن ثمَّة أحد هناك، ثم عبرتُ من الباب وصعدتُ الدرج وعلى مقربةٍ شديدة وجدتُ سيارةَ أجرة، هذا كل ما حدث.»

وفردت يداها في إشارةٍ تمثيلية بسيطة.

قال تي إكس: «أهذا كل ما حدث حقًّا؟»

قالت مرددة: «هذا كل ما حدث، والآن ماذا أنت فاعل؟»

نظر تي إكس إلى السقف وراح يداعب ذقنه.

«أظن أنه ينبغي أن ألقي القبضَ عليكِ. أشعر بأن هذا واجبٌ عليَّ القيام به. هل لي أن أسألكِ إن كنتِ قد نِمتِ في السرير بالأسفل؟»

تساءلت قائلة: «تقصد في القبو السفلي؟» وتوقّفت برهةَ ثم قالت: «نعم، كنتُ نائمةً في القبو الواقع بالأسفل.»

كان ذلك الفاصل من التردُّد يكاد يفصل بين كل كلمة والأخرى.

تساءلت ثانية: «ماذا أنت فاعل؟»

كانت أكثرَ ثقةً في نفسها وخَمَد بداخلها ذلك الذعرُ الذي انتابها جرَّاء ظهوره المفاجئ. كان يُجعِّد خصلات شعره، في تقليدٍ صارخ، لو كانت تدري، لأحدِ أساليب مرءوسه المتكلفة، ولاحظت أن شعره كثيفٌ جدًّا ويميل للتموُّج. كذلك رأت أنه وسيم الطلعة إلى حدٍّ مقبول، له عينان رماديتان جميلتان، وأنف مستقيم، وذقن انسيابي للغاية.

قالت بصوت ناعم خفيض: «أظن أن من الأفضل أن تقبض عليَّ.»

قال في استجداء: «لا تكوني سخيفة.»

قالت في غضب: «ماذا قلت؟»

كرَّر الشاب الهادئ: «قلت: «لا تكوني سخيفة».»

سألَتْه قائلة: «أتعرف أنك في غاية الوقاحة؟»

بدا مهتمًّا بهذا الرأي الجديد بشأن سلوكه ومندهشًا له.

تابعت وهي تسوِّي رداءها متجنبةً نظرات عينه: «أعرف بالطبع أنك تظن أنني سخيفة وأن لي اسمًا مضحكًا للغاية.»

رد ببرود: «لم أقُل قطُّ إن اسمكِ مضحك، لم أكن لأصلَ إلى هذا الحد من الوقاحة.»

قالت محتجةً: «قلت إنه «غريب»، وهذا أسوأ.»

قال معترفًا: «ربما قلت إنه «غريب»، لكنه وصفٌ مختلف عن القول إنه «مضحك.» فالأشياء الغريبة تنطوي على شيء من الهيبة. فالكوابيس مثلًا ليست مضحكة، ولكنها غريبة.»

قالت في حدة واضحة: «أشكرك.»

رد: «لا أقصد تمامًا أن اسمكِ أقرب إلى الكابوس.» وقدَّم هذا الاعتراف بإيماءةٍ مهيبة بيده وكأنه مَلِك يتفضَّل بمنحها حقَّها في البقاء بغطاء رأسها في حضرته. وأضاف: «أعتقد أنه بليندا آن ...»

صحَّحت له الاسم قائلة: «بليندا ماري.»

«بليندا ماري، هكذا كنت سأقول»، ثم أضاف في اضطرابٍ وتخبُّط: «أو في الواقع كنت سأقول بليندا وماري.»

صحَّحت له قائلة: «لم تكن ستقول أي شيء من هذا القبيل.»

«على أي حال، أعتقد أن بليندا ماري اسمٌ جميل جدًّا.»

«أنتَ لا تعتقد أيَّ شيء من ذلك.»

ورأت في عينيه ضحكةً واستشعرت رغبةً غيرَ منطقية في الضحك أيضًا.

«قلتَ إنه اسمٌ غريب وتعتقد أنه اسمٌ غريب بالفعل، ولكني حقًّا لا أستطيع أن أعبأ بالتفكير في آراء كل شخص. أنا أيضًا أراه اسمًا غريبًا.» ثم أضافت مدافعةً عن نفسها: «لقد سُميتُ بهذا الاسم نسبةً إلى إحدى عمَّاتي.»

فأمال رأسه بتأدُّب وقال: «إذن فأنتِ أوفرُ حظًّا مني. لقد سُمِّيتُ على اسم كلب أبي المفضَّل.»

تساءلت في فضول: «إلامَ يرمز تي إكس؟»

قال: «توماس زافير Thomas Xavier»، وأسندت ظهرها في مقعدها الكبير الذي كانت قبل دقائق معدودة قابعةً على حافته في هلع وفزع، ودخلت في نوبةٍ من الضحك الهستيري.

تساءل قائلًا: «اسمٌ مضحك، أليس كذلك؟»

قالت بأنفاسٍ متقطعة: «أوه، آسفة لوقاحتي الشديدة.» وأردفت: «تخيَّل أن يكون اسمك تومي زافير ... أقصد توماس زافير.»

«يمكنكِ أن تدعوني تومي إذا شئتِ؛ فهكذا يدعوني معظم أصدقائي.»

قالت وهي لا تزال مبتسمةً وتمسح الدموعَ من عينيها: «لسوء الحظ أني لستُ من أصدقائك؛ لذا سأظل أدعوك السيد ميرديث إذا كنت لا تمانع.»

ونظرت إلى ساعة يدها.

«إذا كنتَ لن تلقيَ القبضَ عليَّ، فسوف أرحل.»

قال: «بالتأكيد ليس لديَّ أيُّ نيةٍ للقبض عليك، ولكني سأوصلكِ إلى المنزل!»

هبَّت منتفضةً من مقعدها بسرعة.

وقالت بلهجةٍ آمرة: «لن تفعل.»

كانت في غايةِ الحسم في ذلك إلى حدٍّ أدهشه.

قال محتجًّا: «يا طفلتي العزيزة.»

قالت في جدية: «من فضلك لا داعيَ لمشاعر العطف الأبوي تلك، سوف تكون لطيفًا وتدعني أعود إلى المنزل بمفردي.»

ومدَّت يدها إليه مباشرة وكان إغراء الضحك في عينيها لا يُقاوَم.

قال في إصرار: «حسنًا، سأوصلكِ إلى سيارة أجرة.»

«وتتنصت بينما أوجِّه السائقَ إلى المكان الذي سيصطحبني إليه؟»

وهزَّت رأسها في استنكار.

«لا بد أن كونَ الشخص ضابطَ شرطة أمرٌ في غاية البشاعة.»

وتراجع إلى الخلف عاقدًا ذراعَيْه، وعلى وجهه تقطيبةٌ صارمة.

ثم تساءل قائلًا: «ألا تثقين بي؟»

أجابت: «نعم.»

قال موافقًا إياها: «لكِ كل الحق، على أي حالٍ سأوصلكِ إلى السيارة الأجرة، ويمكنكِ أن تطلبي من السائق أن يتوجَّه إلى محطة تشارينج كروس، وفي الطريق يمكنكِ تغيير الاتجاه.»

سألته: «وهل تَعدُني بأنك لن تتبعَني؟»

أقسم قائلًا: «أعِدُك بشرفي، ولكن بشرط واحد.»

ردت باستعلاء: «لن أقبل بأي شروط.»

قال متوسلًا: «أرجوكِ، انزلي من برجكِ العاجي وأنصتي لصوت العقل. الشرط الذي أشترطه هو أن يكون بإمكاني دومًا استدعاؤكِ إلى موعدٍ محدَّد كلما احتجت إليك. هذا أمرٌ ضروريٌّ حقًّا، يا بليندا ماري.»

صحَّحت له في برود: «آنسة بارثولوميو.»

أردف قائلًا: «هذا ضروري كما ستفهمين. عديني بأنني إذا نشرتُ إعلانًا في أعمدة الإعلانات الشخصية، سواء في صحيفةٍ مسائية سوف أحدِّد اسمها، أو في «ذا مورنينج بوست»، فسوف تلتزمين بالموعد الذي أحدِّده، إذا كان بالإمكان الالتزام به.»

تردَّدت لحظة، ثم مدت يدها نحوه.

ثم قالت: «أعدك.»

قال: «رائعٌ جدًّا يا بليندا ماري»، ووضع ذراعها في ذراعه وخرج بها من الغرفة مطفئًا النورَ ومسرعًا بها عبر السلَّم.

إذا كان لا يزال متبقيًا الكثيرُ من روح التلميذة لدى بليندا ماري بارثولوميو، فلم يكن المتبقي من روح التلميذ لدى مفوَّض الشرطة بأقلَّ منها. كان يمكن أن يجري بها عبر الضباب، ضاربًا بالأصول والتقاليد عُرضَ الحائط، لكنه لم يكن متلهفًا قط لتوصيلها إلى السيارة وغيابها عن ناظريه.

قال ممسكًا يدَها في يده: «طابت ليلتك.»

قالت معترضةً إياه: «هذه ثالث مرة تصافحني فيها الليلة.»

قال في استعطاف: «لا تدعي أيَّ شيء يعكِّر صفو ليلتنا في نهايتها، وتذكري وعدك.»

ردت قائلة: «لقد وعدتُك.»

تابع قائلًا: «ويومًا ما سوف تخبريني بكلِّ ما حدث في ذلك القبو.»

قالت بصوت خفيض: «لقد أخبرتك به.»

«لم تخبريني بكل شيء، يا طفلتي.»

وأدخلها إلى سيارة الأجرة. وأغلق الباب خلفَها وانحنى عَبْر النافذة المفتوحة.

وسألها في تهذيب: «فيكتوريا أم ماربل آرتش؟»

أجابت بضحكةٍ خفيفة: «تشارينج كروس.»

شاهد سيارة الأجرة وهي تبتعد، ثم توقَّفت فجأة وخرج جسدٌ من النافذة يشير إليه في لهفةٍ شديدة. فهُرع إليها.

تساءلت قائلة: «افترض أني احتجتُ إليك.»

قال على الفور: «انشري إعلانًا، مستهلةً إياه بـ «عزيزي تومي».»

قالت في سخط: «سوف أضع «تي إكس».»

رد قائلًا: «إذن لن ألقيَ بالًا لإعلانك»، ووقف في وسط الشارع، ممسكًا قبَّعته في يده، ما أثار ضيقَ أحدِ سائقي سيارات الأجرة بشدة، وكاد أن يصطدم به، وظل يذمُّه حتى صار تي إكس بعيدًا عن مرمى السمع.

الفصل السابع عشر

كان توماس زافير ميرديث شابًّا حاذقًا ماكرًا. فقد قال عنه السيد باولو كوسيلي، الخبير البارز في علم الجريمة، إن لديه مَلَكةَ حَدْس غيرَ عادية. ربما كان قد حلَّ لغز الشمعة الملتوية قبل أن يخطُر لأي شخص في العالم أدنى اعتقاد بإمكانية حله بفترة طويلة.

كان المنزل الكائن في كادوجان سكوير لا يزال في أيدي الشرطة. وكان تي إكس من آنٍ لآخر يقصد هذا المنزل، ويتردَّد بصفةٍ خاصة على غرفة نوم كارا، ويستنسخ، قدْر الإمكان، الظروف التي وُجدت ليلة الجريمة. أوجد نفس النيران الخانقة، ونفس الباب الموصَد. كان المزلاج مستقرًّا في موضعه، بينما أجرى تي إكس حساباتٍ معقدة، وفي يده ساعة إيقاف، وحاكى مواقفَ بعينها لم يَبُح بها لأي مخلوق.

ثلاث مرات توجَّه فيها إلى المنزل، بصحبة مانسوس، وثلاث مرات توجَّه إلى غرفة الموت التي شهدت الجريمة، وكان بمفرده في إحدى المرات مدةَ ساعة ونصف الساعة بينما كان مانسوس ينتظر بالخارج في صبر. ثلاث مرات بدا بعدها في كلٍّ منها أكثر تجهمًا وكآبة، وبعد الزيارة الثالثة استدعى جون لكسمان للتشاور معه.

كان لكسمان يُمضي بعض الوقت في الريف، بعد أن أرجأ رحلته إلى الولايات المتحدة.

قال تي إكس وقد خرج عن شخصيته الصاخبة المعتادة: «هذه القضية تزيدني حيرةً يا جون، وأشكر الربَّ أنها تُقلِق آخرين معي. فقد جاءني ديماينو من فرنسا منذ بضعة أيام وأحضر معه أفضلَ مخبريه جميعًا، بينما جاء أوجرادي من شرطة نيويورك المركزية في زيارةٍ خاطفة فقط للوقوف على وقائع القضية. لم يقدِّم لي أحدٌ منهم الحل الحقيقي، مع أنهم جميعًا كانوا بارعين نوعًا ما. لقد اختفى جاذركول وعلى الأرجح أنه في طريقه إلى منطقةٍ لا يمكن اكتشافها، ولم يستطِع رجالنا بعدُ العثورَ على الخادم.»

قال جون لكسمان متأملًا: «من المفترض أن يكون الأسهل في تتبُّعه بالنسبة إليك.»

تابع تي إكس حديثه قائلًا: «لا أفهم لماذا غادر جاذركول.» وأضاف: «وفقًا للقصة التي سردها لي فيشر، كانت آخرُ كلماته لكارا عن انتظاره شيكًا، أو تلقيه شيكًا. ولم يُقدَّم أو يُسحب أيُّ شيكات، ويبدو أن جاذركول قد غادر دون انتظار تلقي أيِّ مبالغ. ومِن فحص حسابات كارا، لا يوجد أيُّ تعاملات بينه وبين حساب جاذركول عدا مبلغ ٦٠٠ جنيه كان قد دفعه له مقدمًا، والآن يأتي هذا ليفسد كلَّ حساباتي، انظر.»

وأخرج من محفظةِ جيبه قصاصةً من جريدةٍ ودفعها إليه عبر الطاولة؛ إذ كانا يتناولان العشاء معًا في كارلتون. التقط جون لكسمان القصاصةَ وقرأها. كان واضحًا أنها من جريدة نيويورك:

> وردت أخبار جديدة من الباخرة سايبرس، التابعة لشركة «أنتاركتيك تريديج»، بخصوص تحطُّم الباخرة «ذا سيتي أوف أرجنتين». يُعتقد أن تلك السفينة المنكوبة، التي كانت متوقفةً في موانئ أمريكا الجنوبية، قد فقدت رفَّاصها وانحرفت جنوبًا بعيدًا عن مسارها الملاحي. وقد تأكدتْ هذه النظرية الآن. يبدو أن السفينة قد اصطدمت بجبلٍ جليدي في الثالث والعشرين من

ديسمبر وغرقت بكلِّ ركّابها عدا بضعة أشخاص استطاعوا إنزال قارب إلى البحر والتقطتهم السفينة سايبرس. وفيما يلي قائمة بأسماء الركَّاب.

راجع جون لكسمان القائمة سريعًا حتى وجد الاسم الذي من الواضح أن تي إكس قد وضع تحته خطًّا بالقلم الحبر. كان ذلك الاسم هو جورج جاذركول ووُضِع بعده بين قوسين كلمة «مستكشف».

«إن كان ذلك صحيحًا، فإذن لا يمكن أن يكون جاذركول قد جاء إلى لندن.»

قال تي إكس: «ربما أخذ قاربًا آخر، وقد أبرقت إلى شركة البواخر دون تحقيق أي نجاح يُذكر. يبدو أن جاذركول كان شخصًا غريب الأطوار وكان يعيش في ذعرٍ من الازدحام. فكان من عادته أن يقوم بأكثر من حجزٍ احتياطيًّا على متن كل سفينةٍ متاحة. كل ما استطاعت الشركة أن تخبرني به أنه قد حجز مكانًا له، ولكنهم لا يعرفون إن كان استقل الباخرة ذا سيتي أوف أرجنتين أم لا.»

قال جون لكسمان ببطء وتروٍّ: «بإمكاني القول إن جاذركول ليس بالرجل الذي يستطيع أن يؤذي ذبابة. ولم يكن يستطيع أن يقتل أيَّ إنسان؛ إذ كان بطبيعته معارضًا لفكرة القتل بأي شكل. ولهذا السبب لم يكوِّن أيَّ مجموعات من الفراشات أو النحل، وأعتقد أنه لم يصطَد حيوانًا واحدًا قطُّ طَوال حياته. وقد كان متمسكًا بمبادئه إلى حدٍّ أنه كان نباتيًّا»، ثم أردف مبتسمًا، وكانت أول ابتسامة يراها تي إكس على وجهه منذ عودته: «مسكين جاذركول العجوز!»

قال تي إكس في تجهُّم: «إن أردت أن تتعاطف مع أحد، فلتتعاطف معي.»

في اليوم التالي، استُدعي تي إكس إلى وزارة الداخلية وذهب متأهبًا تمامًا لتلقي توبيخٍ مروع. استقبله وزير الداخلية، الذي كان رجلًا ضخمَ البنية مهيبَ الهيئة، مولعًا بإلقاء الخُطَب في كل مناسبة، ولكنه استقبله بلطفٍ غيرِ مألوف.

قال: «لقد أرسلت إليك يا سيد ميرديث بخصوص هذا اليوناني التَّعِس الحظ. لقد أمرتُ بفحص كل أوراقه الخاصة وترجمتِها، وحلِّ شفرتها في بعض الحالات؛ لأن يومياته والكثير من مراسلاته، كما قد تعلَم، كانت مكتوبة بشفرة استرعت انتباه الخبراء.»

لم يشغل تي إكس نفسه كثيرًا بأوراق كارا الخاصة، ولكنه سلَّمها، حسبما تقضي التعليمات، إلى السلطات المختصة.

تابع وزير الداخلية مبتسمًا إليه عبر طاولته الكبيرة قائلًا: «نتوقَّع منك بالطبع يا سيد ميرديث أن تواصل بحثك عن القاتل، وإن كان لا بد أن أعترف بأن سجينك سيكون لديه حجَّةٌ ممتازة جدًّا ليقدِّمها أمام أي هيئة محلفين، عندما تعتقله.»

قال تي إكس: «أنا واثق من ذلك تمامًا، يا سيدي.»

استهل وزير الداخلية حديثه بأسلوبه البلاغي الرائع: «خلال مسيرتي المهنية الطويلة قلما فحصت سجلًّا شائنًا ومخزيًا إلى هذا الحد السافر كسجل ذلك القتيل.»

وقدَّم له بضعة أمثلة كانت كفيلة بأن تدهش حتى تي إكس.

تابع وزير الداخلية قائلًا: «لقد كان رجلًا معتوهًا، وفاسدًا وشريرًا، يحب القسوة لأجل القسوة. لدينا في دفتر اليوميات هذا وحده أدلةٌ كفيلة بإدانته بثلاث جرائم قتل مختلِفة، ارتُكبت إحداها في هذا البلد.»

بدا تي إكس مشدوهًا.

«ستتذكر، يا سيد ميرديث، كما رأيت في أحد تقاريرك، أنه كان لديه سائق خاص، يوناني الجنسية يُدعى بروبولوس.»

أومأ تي إكس بالإيجاب.

وقال: «لقد توجَّه إلى اليونان في اليوم التالي لحادث إطلاق النار على فاسالارو.»

هزَّ وزير الداخلية رأسه.

ثم قال: «لقد قُتل في الليلة نفسها، ولن تواجه أيَّ صعوبة في العثور على رُفاتِه في المنزل المهجور الذي استأجره كارا لهذا الغرض. ربما يمكنك أن تفترض أنه قد قتل عددًا كبيرًا من الأشخاص في ألبانيا. قرًى كاملة أُبيدت كي توفِّيه نزْرًا يسيرًا من المتعة. لقد كان الرجل أقرب إلى نيرون ولكن دون مثالبه الرقيقة. كان مهووسًا بفكرة أنه هو نفسه معرَّض للاغتيال، ويرى حتى في خادمه الأمين عدوًّا. لا شك أن السائق بروبولوس كان على اتصال بالعديد من الدوائر الحكومية الأوروبية.» ثم اختتم الوزير حديثه قائلًا: «أنت تفهم بالطبع أنني أخبرك بهذا، لا لأنني أتوقَّع منك التراخي في جهودك للعثور على القاتل وحلِّ لغزِ الجريمة، ولكن لكي تعرف شيئًا عن الدافع المحتمل وراء قتل هذا الرجل.»

أمضى تي إكس ساعةً يتفحَّص دفتر اليوميات والوثائق المترجَمة وغادر مقرَّ وزارة الداخلية وهو يرتعد قليلًا. كان الأمرُ غيرَ معقول، ولا يُصدَّق. لقد كان كارا معتوهًا، ولكن العبقري الذي واجهه كان شيطانًا.

كان لدى تي إكس شقَّةٌ في وايتهول جاردنز فتوجَّه إليها لتبديل ثيابه استعدادًا للعشاء. كان قد ارتدى نصف ثيابه حين وصلت الجريدة المسائية وألقى نظرةً سريعة عليها؛ إذ كانت عادته أن يطالع أولًا صفحةَ الأخبار ثم عمود الإعلانات. نظر إلى العمود المعنون بكلمة «إعلانات شخصية» دون أيِّ توقُّعٍ منه أن يجد أيَّ شيءٍ ذي أهمية خاصة له، ولكنه رأى ما جعله يلقي الجريدة أرضًا ويطير عبر الغرفة في اهتياج ليكمل ارتداءه لملابسه.

كان نصُّ الإعلان المقتضب: «تومي إكس، عاجل للغاية، ٨ ماربل آرتش.»

كان أمامه خمس دقائق ليصل إلى هناك، ولكنها بدت خمس ساعات. كان يَعلَق في كل معبَر مشاة، ومع أنه كان يستطيع استخدام سلطته للحصول على حق المرور المباشر، فقد منعه حسُّ النزاهة الغريب لديه من الإقدام على هذه الخطوة. قفز من السيارة الأجرة قبل أن تتوقَّف، ودسَّ الأجرة في يدَي السائق وأخذ ينظر

حوله بحثًا عن الفتاة. وأخيرًا رآها واتجه سريعًا نحوها. وبينما كان يدنو منها، تلفتت حولها وانصرفت بعيدًا ملوِّحة بيدها بإشارةٍ غيرِ ملحوظة. تتبَّعها عبر طريق بايسووتر وبالتدريج تساوت خطاهما.

قالت بصوتٍ خفيض: «أخشى أن أكون تحت المراقبة.» وتابعت: «هلا تستوقف سيارة أجرة؟»

أشار إلى سيارة أجرة، وساعدها على الدُّلُوف بداخلها وطلب من سائقها التوجُّه إلى أول مكان يخطُر بباله، وكان متنزه فينسبيري.

قالت: «أنا في شدة القلق، ولا أعرف أيَّ شخص يمكنه مساعدتي سواك.»

سألها قائلًا: «هل الأمر يتعلق بالمال؟»

قالت في امتعاض: «مال، بالطبع لا صلة للأمر بالمال.» ثم قالت بعد وهلة: «أريد أن أطلعك على خطاب.»

أخرجَتِ الخطاب من حقيبتها وأعطته له، وأشعل عود ثقاب وقرأه بصعوبة.

كان مكتوبًا بخط شخصٍ غير متعلمٍ يثابر من أجل كتابته.

الآنسة العزيزة

أعلم مَن أنتِ. أنت مطلوبة من قِبل الشرطة ولكني لن أشيَ بك. الآنسة العزيزة. أنا في عسرة شديدة و٢٠ جنيهًا سوف تنفعني كثيرًا ولن أزعجكِ مرةً أخرى. الآنسة العزيزة. ضعي المال على عتبة نافذة غرفتك. أعلم أنكِ تُقيمين في الطابَق الأرضي وسوف أدخل وآخذه. وإذا لم تفعلي … حسنًا، لا أريد أن أسبِّب لكِ أيَّ أذًى.

المخلص،

صديق

تساءل: «متى وصلك هذا الخطاب؟»

أجابته: «صباح اليوم.» وتابعت: «لقد أرسلت الإعلان إلى الجريدة عبر الإبراق، وعرفتُ أنك ستأتي.»

قال: «أوه، حقًّا، حقًّا كنتِ تعرفين؟»

كان تأكيدها مبعثَ سرورٍ شديدٍ له. ومنحته الثقةُ التي لاحت من بين كلماتها شعورًا طفيفًا غريبًا بالراحة والسعادة.

ثم أضاف قائلًا: «أستطيع بسهولة أن أخرجكِ من هذا؛ أعطيني عنوانكِ وحين يأتي هذا الرجل ...»

ردَّت سريعًا: «هذا مستحيل.» وأضافَت: «أرجو ألا تظن بي الجحودَ ولا تظن أنني سخيفة ... أنت تعتقد أنني سخيفة، أليس كذلك؟»

قال بنبرة صادقة: «لم أضمر في نفسي قط مثل هذه الفكرة السخيفة.»

قالت في إصرار: «بل فعلت، ولكني حقًّا لا أستطيع أن أخبرك بمحل سكني. ولدي سبب خاص جدًّا لذلك. لا أفكِّر في نفسي، ولكن الأمر يتعلق بحياة شخص.»

كانت عبارةً مؤثِّرة نوعًا ما، ما جعلها تشعر بأنها بالغت أكثر مما ينبغي.

قالت: «ربما لا أقصد ذلك»، ثم خفضت صوتها وأضافت: «ولكن يوجد شخص أهتم لأمره ...»

قال تي إكس في دهشة: «أوه، حقًّا!»

كان كمن سقط من مرتفعاتٍ وردية مزهرة إلى ظِل وظلامِ وادٍ معتمٍ كئيب.

قال بعد وهلة مرددًا ما قالته: «شخص تهتمين لأمره.»

«أجل.»

ساد صمت طويل آخر، وبعدها قال تي إكس:

«أوه، حقًّا.»

ومرة أخرى ساد فاصل من الصمت لم يقطعه شيء، وبعد بعض الوقت قالت بصوت خفيض: «ليس كما فهمت.»

تساءل تي إكس بصوت مبحوح: «ليس كما فهمت؟!» وارتفعت معنوياته قليلًا.

قالت: «أعني الطريقة التي تقصدها.»

قال تي إكس: «أوه.»

وعاد مجددًا وسط ثلوج الفجر الوردية، وكان يتسلق دَرجًا شاهقًا على أعلى قمم الأمل حين جذبت السلَّم من تحته.

فقد قالت بحسمٍ متزمت: «بالطبع لن أتزوج مطلقًا.»

سقط تي إكس برطمة ثقيلة خامدة، ليكتشف أن ثلوجه الوردية لم تكن تختلف عن الجليد الصلب البارد في افتقاده لليونة والمرونة.

تساءل بنبرة واهنة، ولكنها لم تخلُ من الدفاع عن نفسه: «ومَن قال إنك ستفعلين؟»

قالت: «أنتَ»، وشعر بأنفاسه تحتبس من جرأتها.

سألها بعد وهلة: «حسنًا، كيف لي أن أساعدك؟»

قالت: «بأن تسدي لي نصيحة، هل تعتقد أن عليَّ أن أضع النقود هناك؟»

قال تي إكس مستعيدًا بعضًا من تسلُّطه الفطري: «في الواقع لا أعتقد ذلك؛ فضلًا عن أنك بذلك تتسترين على جريمة، فإنكِ ستضعين نفسكِ في مأزقٍ في

المستقبل. فإذا استطاع أن يحصل منكِ على ٢٠ جنيهًا بهذه السهولة، فسوف يأتي ليحصل على ٤٠ جنيهًا. ولكن لماذا لا تبقين بعيدًا، لماذا لا تعودين إلى المنزل؟ فلا يوجد ضدكِ أيُّ تهمة أو ذرة شك.»

قالت بنبرةِ عزمٍ وتصميمٍ في صوتها: «لأن لدي شيئًا عقدت العزم على أن أفعله.»

قال مشجعًا إياها: «يمكنكِ بالتأكيد أن تأتمنيني على عنوانكِ بعد كلِّ ما دار بيننا، يا بليندا ماري، بعد كل تلك الفترة الطويلة التي عرف بعضُنا بعضًا خلالها.»

قالت في ثبات وهدوء: «سوف أخرج وأتركك.»

قال معترضًا: «ولكن كيف سأساعدكِ بحق الجحيم؟»

ربما كانت حادة للغاية حقًّا إذ قالت: «لا تسبَّ؛ الطريقة الوحيدة التي يمكنكَ مساعدتي بها هو أن تكون رءوفًا ومتعاطفًا.»

تساءل في سخرية: «أتريدينني أن أنفجر في البكاء؟»

قالت: «لا أطلب منك شيئًا أكثر إيلامًا أو بغضًا لمشاعرك الطبيعية من أن تكون دمثًا مهذبًا.»

قال تي إكس: «أشكركِ من كل قلبي»، وأسند ظهره في السيارة وقد بدا في استكانةٍ شديدة.

قالت بنبرةِ اتهام: «أعتقد أنك تقوم بتعبيرات ساخرة بوجهك في الخفاء.»

بادر بالرد سريعًا قائلًا: «حاشا للرب أن أقوم بأيِّ تصرُّفٍ بهذه الوضاعة، ما الذي جعلكِ تظنين ذلك؟»

اعترفت قائلة: «لأنني كنت أُخرِج لك لساني»، وسمع سائق السيارة الضحكات الصاخبة في السيارة من خلفه تغطي على أزيز محرك سيارته المنهك.

في الثانية عشرة من تلك الليلة وفي إحدى ضواحي لندن كان رجل يرتدي معطفًا يتحرك خلسة عبر إحدى الحدائق. كان يتحسَّس طريقه بحذرٍ عَبْر سور المنزل، ويتلمَّس الطريق عَبْر عتبة النافذة مسلحًا بالأمل، ولكن دون قدْر كبير من اليقين. وجد مظروفًا أخبرته أصابعه، التي كانت تتمتع بقدْر من الحساسية من طول استخدامها في أفعال شائنة، أنه لا يحوي أيَّ شيء ذي قيمة سوى خطاب.

عاد عَبْر الحديقة وانضم إلى رفيقه، الذي كان ينتظره أسفل عمود إنارة مجاور.

تساءل الآخر في لهفة: «هل وَضَعَتِ النقود؟»

زمجر الرجل الذي جاء عَبْر الحديقة: «لا أعرف بعد.»

فتح المظروف وقرأ السطور القليلة.

وقال: «لم تحضر المال، ولكنها ستحضره. لا بد أن أقابلها عصر الغد عند تقاطع شارعي أكسفورد وريجينت.»

تساءل الآخر: «متى؟»

قال الرجل الأول: «في السادسة.» وأضاف: «ولا بد أن يكون الرجل الذي سيأخذ النقود حاملًا نسخةً من جريدة «ذا ويستمينستر جازيت» في يده.»

قال الآخر بيقين: «أوه، إذن فهو فخ.»

ضحك الآخر.

«لن تنصب أيَّ فخاخ. أراهن أنها مرعوبة.»

أخذ الرجل الثاني يقضم أظافره وينظر إلى الشارع يَمنة ويَسرة في خوف.

ثم قال في استياء: «نحن في موقف عصيب، خرجنا كي نجني آلافًا ووصل بنا الحال أن نتوسل من أجل ٢٠ جنيهًا.»

قال الآخر بأسلوب متفلسف: «إنه الحظ، كما أنني لم أنتهِ منها بأي حال. علاوة على ذلك، لا تزال لدينا فرصة لاصطياد الغنيمة الكبرى يا هاري. أحسب أنها تستطيع دفع مائة أو مائتين، على أي حال.»

في الساعة السادسة عصر اليوم التالي، وقف رجلٌ بغير مبالاة يرتدي معطفًا داكنًا، ويعتمر قبعة من اللباد المرن تغطي عينيه، بجوار حافة الرصيف القريب من نقطة توقُّف الحافلات في شارع ريجينت، وكان يخبِط على يده برفق بنسخة مطوية من جريدة «ذا ويستمينستر جازيت».

وقف في أقربِ موضعٍ ممكن من أحد أعمدة الإنارة حتى لا يخطئ أحدٌ الجريدةَ الليبرالية التي يقرؤها؛ ومن ثَم هيَّأ نفسه ووضعيته بحيث يسقط القدْرُ الأقل من الضوء على وجهه والقدْرُ الأكبر على تلك الجريدة التي تحظى بمكانةٍ كبيرةٍ في أوساط الرأي العام. بعد السادسة بقليل رأى بطرف عينه الفتاة تقترب، فسار نحوها لمقابلتها. واندهش حين تجاوزته وكان يستدير ليتبعها حين أمسكت بذراعه يدٌ خشنة.

قال صوت لطيف: «السيد فيشر، على ما أظن.»

قال الرجل وهو يغالبه ويرتد للخلف: «ماذا تعني؟»

تساءل المفتش مانسوس اللطيف: «هل ستسير معي في هدوء؟ أم أسلط عليك عصاي؟»

فكَّر السيد فيشر بعض الوقت.

حدَّث نفسه معترفًا: «إنه شرطي»، وترك نفسه يُقتاد إلى داخل سيارة الشرطة الواقفة بالانتظار.

وصل إلى مكتب تي إكس وحيَّاه ذلك الرجل المهذَّب وكأنه صديق.

سأله: «وكيف حال السيد فيشر! — أظن أنك ما زلت السيد فيشر، وليس السيد هاري جيلكوت أو السيد جورج بورتن.»

ابتسم فيشر ابتسامتَه القديمة المطيعة الاستنكارية.

«دائمًا ما سيكون لك حِيَلك، يا سيدي. أعتقد أن الآنسة الشابة قد أوشت بي.»

قال تي إكس: «أنت مَن أوشيت بنفسك، أيها المسكين فيشر»، ووضع أمامه قطعةً من الورق، ثم أردف قائلًا: «ربما يمكنك أن تزيِّف خطَّك، وتدَّعي جهلَك باللغة البريطانية بمنتهى التواضع، وهو ما لا يليق بمؤهلاتك المتعددة، ولكن ما يجب أن تحرص عليه أشد الحرص في المستقبل عند كتابة مثل هذه الرسائل هو أن تغسلَ يديك.»

قال فيشر مكررًا في حيرة: «أغسل يديَّ!»

أومأ تي إكس.

«كما ترى، لقد تركتَ بصمةً صغيرة لإبهامك، ونحن بارعون إلى حدٍّ ما في كشف بصمات الإبهام في سكوتلاند يارد، يا فيشر.»

«أرى ذلك. والآن ما التهمة الموجهة إليَّ، يا سيدي؟»

«لن أوجِّه لك أيَّ اتهام عدا ذلك الاتهام التقليدي بكونك متهمًا حاصلًا على إفراجٍ مشروطٍ والتقاعس عن الإبلاغ عن تحركاتك.»

أطلق فيشر تنهيدةً عميقة.

«هذا يعني اثني عشر شهرًا سجنًا فقط. هل ستتهمني بهذا الأمر؟» وأومأ برأسه ناحية الورقة.

هزَّ تي إكس رأسه نافيًا.

«أنا لا أضمر لك أيَّ نوايا سيئة مع أنك قد حاولت ترويع الآنسة بارثولوميو. أوه، نعم، أنا أعرف أنها الآنسة بارثولوميو، وطوال الوقت كنت أعرف ذلك. إن السيدة موجودة هناك لسببٍ لا شأن لك أو لي به. لن أتهمك بمحاولة ابتزازها، ومكافأة لي على تساهلي معك، أتمنى أن تخبرني بكل شيء تعرفه عن جريمة مقتل كارا. أظنك لن تودَّ أن أتهمك بذلك، هل تودُّ ذلك بأي حال؟»

أخذ فيشر نفسًا طويلًا.

وقال بجدية: «لا، يا سيدي، ولكن أستطيع إثبات براءتي لو فعلت.» وأضاف: «لقد أمضيتُ المساء بأكمله في المطبخ.»

قال تي إكس: «عدا ربع ساعة.»

أومأ الرجل مؤيدًا ذلك.

وقال: «هذا صحيح، يا سيدي، خرجتُ لمقابلة صديق لي.»

سأله تي إكس: «الرجل المتواطئ معك في هذا الأمر؟»

تردَّد فيشر.

«أجل، يا سيدي. لقد كان معي في هذا الأمر ولكن لم يكن ثمَّة إساءة في هذا الأمر ... إلى الحد الذي وصلنا إليه. لا مانع لدي من الاعتراف بالتخطيط لأمرٍ جلل. ولن أفصح عن أي معلومات بشأنه، إذا كان سيجرني إلى مأزق، ولكن إذا وعدتني بأن ذلك لن يحدث، فسأخبرك بالقصة كاملة.»

«ضد مَن كانت ضربتك التي خطَّطت لها؟»

قال فيشر: «ضد السيد كارا، يا سيدي.»

أومأ تي إكس وقال: «أكمل قصتك.»

كانت القصة قصيرة وعادية. كان فيشر قد التقى رجلًا كان على معرفةٍ برجلٍ آخرَ كان تركيًّا أو ألبانيًّا. علموا أن كارا قد اعتاد الاحتفاظَ بمبالغَ كبيرة من المال في المنزل وخططوا لسرقته. كانت هذه هي القصة باختصار. في مرحلةٍ ما فشِلت الخطة. وبدأ تي إكس يتابعه بأقصى اهتمام حين أتى على سرد الأحداث التي وقعت ليلة الجريمة.

قال فيشر: «دخل السيد العجوز وأوصلتُه إلى الغرفة في الطابَق العلوي. وسمعته وهو يخرج وصعدتُ إلى أعلى وتحدثتُ إليه بينما كان يتبادل الحديث مع السيد كارا عند الباب المفتوح.»

«هل سمعتَ السيد كارا يتحدَّث؟»

قال فيشر: «أعتقد أنني قد سمعته، يا سيدي، على أيِّ حال كان السيد العجوز في غاية السعادة بنفسه.»

سأله تي إكس: «لماذا تقول «السيد العجوز»؛ فهو لم يكن عجوزًا.»

قال فيشر: «ليس بالضبط، يا سيدي، ولكن كان له أسلوب انفعالي صاخب كذلك الذي يتسم به السادة العُجُز أحيانًا، وقد ثبت في ذهني بطريقةٍ ما أنه عجوز. ولكنه في الواقع كان في حوالي الخامسة والأربعين، وربما كان في الخمسين.»

«أخبرتني بكلِّ هذا من قبل. هل كان به أي شيء غريب؟»

تردَّد فيشر.

«لا شيء، يا سيدي، عدا أن إحدى ذراعيه كانت مركبة.»

«تعني أنها كانت ...»

«أعني أنها كانت ذراعًا اصطناعية، يا سيدي، حسب استنتاجي.»

قاطعه تي إكس قائلًا: «هل كانت الذراع الاصطناعية اليسرى أم اليمنى؟»

«ذراعه اليسرى، يا سيدي.»

«هل أنت متأكد؟»

«أقسمُ على ذلك، يا سيدي.»

«حسنًا جدًّا، أكمل.»

«نزل إلى الطابَق السفلي وخرج ولم أرَه مجددًا قط. حين جئتَ واكتُشِفت الجريمة، ولعلمي أن مخططي في حيِّز التنفيذ وأن أحدَ أعوانك قد يعتقلني، اضطربتُ بعض الشيء. نزلت إلى الرَّدهة وكان أولُ شيء رأيته ممددًا على الطاولة خطابًا. كان موجَّهًا لي.»

توقَّف عن الحديث وأومأ تي إكس.

ثم قال مرة أخرى: «استمر.»

«لا أفهم كيف وصل إلى هناك، ولكن بما أنني كنتُ موجودًا في المطبخ طوال المساء إلا حين خرجتُ لمقابلة صديقي لأخبره بأن العملية قد أُلغيَت الليلة، فربما قد جاء إلى هناك قبل وصولك. فتحتُ الخطاب. لم يكن به سوى بضع كلمات وأستطيع أن أخبرك أن تلك الكلمات القليلة جعلت قلبي يقفز إلى حلقي، وجعلت جسدي يقشعر من البرودة.»

تساءل تي إكس: «ماذا كانت تلك الكلمات؟»

قال الرجل بنبرة جادة: «لن أنساها أبدًا يا سيدي. ستظل عالقةً دائمًا في عقلي، لقد بدأت الرسالة بالرموز «إيه سي ٢٧٤».»

تساءل تي إكس: «ماذا يعني ذلك؟»

«هذا رقمي حين كنت في سجن دارتمور، يا سيدي.»

«ماذا قالت الرسالة؟»

««اخرج من هنا فورًا» ... لا أدري مَن وضعها هناك، ولكن من الواضح أن أمري قد انكشف ولم يكن أمامي مجالٌ للمجازفة. تلك هي القصة كاملة من الألف إلى الياء. وتصادف أن التقيتُ بالآنسة الشابة، الآنسة هولاند ... أو الآنسة بارثولوميو في الحقيقة ... وتتبعتها إلى منزلها في بورتمان بليس. كان ذلك في الليلة التي كنتَ موجودًا فيها هناك.»

انزعج تي إكس أشد الانزعاج حين وجد الغضب قد بلغ منه مبلغه.

سأله: «ألَا تعرف أي شيء آخر؟»

«ليس لديَّ أي شيء آخر، يا سيدي ... ولو أُرديتُ صريعًا ...»

قال تي إكس ناصحًا إياه: «دع أحاديث السبت تلك إلى الكاهن»، وأخذوا السيد فيشر الذي لم يكن ساخطًا إلى حدٍّ كبير.

في تلك الليلة تحدَّث تي إكس مع سجينه في مركز شرطة كانون رو وطرح عليه بعض الأسئلة الأخرى.

قالت الفتاة حين قابلها في صباح اليوم التالي في متنزه جرين بارك: «يوجد شيء واحد أريد أن أسألك عنه.»

قال محذرًا إياها: «إذا كنتِ ستسألين عما إذا كنت قد أجريت تحريات عن محل سكنك، فأرجوك أن تمتنعي عن السؤال.»

كان يحدِّث نفسه بأنها تبدو غاية في الجمال ذلك الصباح. فقد أضفى الهواء الشديد إشراقةً على وجهها وخفَّة على مِشيتها، وبينما كانت تهرول بجواره بحيوية الشباب الحرة الهوجاء، كانت عنوانًا للحياة التي كانت تتفتح على كل شجرة في المتنزه حتى في ذلك الوقت.

قال: «لقد عاد والدكِ إلى المدينة، بالمناسبة، وينتظر لقاءكِ على أحر من الجمر.»

قطبت وجهها قليلًا.

«أرجو ألا تكون قد تحدثتَ مع أبي بشأني.»

قال في قلة حيلة: «بالطبع تحدثت معه، كما استدعيت كلَّ الصحفيين من مقرات عملهم في شارع فليت وقدَّمت لهم وصفًا وافيًا لمغامراتك.»

نظرَت إليه وفي عينَيْها ضحكة.

ثم قالت: «لديك كل طبائع الشهداء المسيحيين الأوائل.» وتابعت: «يا لك من مسكين! هل تودُّ أن تُلقَى إلى الأُسود؟»

قال في كآبة: «أفضِّل أن أُلقى إلى البط المعلون.»

قالت موبخةً إياه: «أنت رجل بائس، ولكن لديك كل ما يجعل الحياة تستحق أن تُعاش.»

قال تي إكس: «ها، ها!»

«بالطبع لديكَ كل شيء! لديك منصب مرموق. الجميع يتطلع إليك ويتحدَّث عنك. لديك زوجة وأسرة يحبونك ...»

توقَّف عن السير ونظر إليها وكأنها حشرة غريبة.

تساءل في سذاجة: «لدي ماذا؟»

سألته في براءة: «ألست متزوجًا؟»

أطلق صوتًا غريبًا من حنجرته.

تابعت قائلة: «أتعرف أنني طالما تصورتك متزوجًا، كثيرًا ما أتصورك في محيط منزلك تقرأ لأطفالك تلك القصص الشيقة للغاية من «ذا ديلي ميجافون» عن ويلي بَق الماء الصغير.»

تمسَّك بقضبان السور كي يستند إليها.

تساءل في وهن: «هل يمكننا الجلوس؟»

جلست إلى جواره في خجلٍ وهيام، مستديرة نحوه نصف استدارة.

وأخيرًا قال: «لا شك أنكِ محقة في جانب واحد، ولكنكِ مخطئة تمامًا بشأن الأطفال.»

تساءلت بلا أي دلالة على فكاهةٍ في صوتها: «أأنت متزوج؟»

سألها: «ألم تكوني تعرفين ذلك؟»

ابتلعت شيئًا ما.

«بالطبع هذا ليس من شأني وأنا واثقة أنني أتمنى أن تكون في غاية السعادة.»

قال تي إكس بنبرةِ رضا: «في غاية السعادة.» وأردف: «لا بد أن تأتي وتشاهديني عصر السبت وأنا أزرع البطاطس. حين يطلقون لي العِنان في حديقة الخضراوات تدبُّ فيَّ فورة نشاط لا تُوصف.»

قالت: «هلا نواصل المسير؟»

كان سيُقسم على أن عينيها ترقرقت بالدموع، وبطبيعة الرجال، ظن أنها قد تضايقت منه لخداعه لها.

سألها: «أنا لم أغضبكِ، أليس كذلك؟»

أجابت: «أوه، كلا.»

«أعني أنك لا تصدقين كل هذه التُّرهات بشأن زواجي وكل هذه الأشياء؟»

قالت وهي تهز كتفَيْها في لا مبالاة: «لست مهتمة كثيرًا. لقد كنت في غاية المروءة معي ومن الوقاحة مني ألا أكون ممتنة لك. بالطبع لستُ عابئةً بما إذا كنت

متزوجًا أم لا، فهذا أمر لا يعنيني، أليس كذلك؟»

أجاب: «بالتأكيد لا يعنيك. أظن أنك لست متزوجة؟»

كرَّرت الكلمة بامتعاض: «متزوجة، أتريد أن تكون زوجي الرابع؟»

كانت الكلمات تخرج من ثغرها بجرأة قبل أن تدرك خطأها الفادح. وبعد ثانية ارتمت بين ذراعيه وراح يقبِّلها على مرأى من حارسٍ مسنٍّ من حراس المتنزه، وصبي صغير ضئيل الجسد ذي وجه متسخ، وذكر بط منسول الريش بدا هازئًا مما يحدث وكان يراقبه بعين صفراء وحاقدة.

قال تي إكس عند افتراقهما: «بليندا ماري، لا بد أن تبتعدي عن منزلكِ الريفي الصغير، حيثما قد يكون، وتعودي إلى شقاء بورتمان بليس. أوه، أعلم أنكِ لا تستطيعين العودة بعد. إن ذلك «الشخص المجهول» موجود هناك، وأستطيع أن أخمِّن هُوِيته إلى حدٍّ كبير.»

قالت في تحدٍّ: «مَن هو؟»

قال: «أظن أن والدتك قد عادت.»

سكنت نظرةُ استنكارٍ وجهها الجميل.

وقالت في اشمئزاز: «يا إلهي، تومي! أتظن أنني سأجعل أمي قابعةً في الضواحي دون أن أخبرها بكلِّ ما يدور حولها؟!»

قال: «أنت فتاة عاقة.»

وصلا إلى مبنى هورس جاردز في وايتهول وكان يودعها.

ردت قائلة: «إذا تعلَّق الأمر بالواجب، فربما سيكون من واجبك أن توقف حركة المرور من أجلي كي أعبر هذا الطريق.»

قال محتجًّا: «فتاتي العزيزة، أتريديني أن أوقف حركة المرور؟»

قالت في سخط: «بالطبع، أنت شرطي.»

رد بسرعة قائلًا: «فقط حين أكون بالزي الرسمي»، وأرشدها عبر الطريق.

كان ذلك الرجل الذي عاد إلى المكتب الكئيب في وايتهول شخصًا جديدًا. كان رجلًا ذا قلب يموج وينبض بزهوة وفرحة أغلى شيء في الحياة.

الفصل الثامن عشر

جلس تي إكس إلى مكتبه، واضعًا ذقنه بين يديه، وكان ذهنه منشغلًا على نحوٍ لافت. وبقدْر خطورة الأمر الذي كان يفكِّر فيه، نهض في خفَّة ونشاط لمقابلة الفتاة الباسمة الوجه التي كان مانسوس يقودها عَبْر الباب إلى مكتبه، يكتنفه الغموض والجدية على نحوٍ غير طبيعي.

كانت مشرقة في ذلك اليوم. وكانت عيناها تشعان بريقًا غيرَ مألوف.

قالت: «جئتُ لأخبرك بأروعِ شيء، ولكنني لا أستطيع أن أخبرك به.»

قال تي إكس وهو يأخذ فراء المعصم الواقي من يديها: «تلك بداية جيدة للغاية.»

صاحت في حماس: «ولكنه حقًّا رائع، أروع من أي شيء سمعت به على الإطلاق.»

قال تي إكس برقَّة: «نحن في شوق لسماعه.»

قالت بنبرة استعطاف: «لا، لا، لا يجب أن تمزح، لا يمكنني أن أخبرك الآن، ولكنه شيء سوف يجعلك ببساطة ...» لم تجد تشبيهًا مناسبًا.

قال تي إكس مقترحًا: «أخرج من جلدي من الدهشة؟»

أومأت برأسها في جدية: «سوف أدهشك بالفعل.»

ابتسم قائلًا: «حذار؛ فأنا أتلقى الكثير من المفاجآت، ومعرفتك وحدها كفيلة باستنفاد طاقة المرء على تحمُّل المفاجآت.»

قالت في حذر: «قد يكون ذلك أمرًا في غاية الروعة، أو في غاية البغض.»

قال ضاحكًا: «ولكني سأعتبره أمرًا في غاية الروعة.» وأضاف: «والآن تكلمي، آتيني بقصتك هذه.»

هزَّت رأسها بقوة شديدة.

ثم قالت: «لا يمكنني أن أخبرك بأي شيء.»

قال في تذمُّر مبرر: «إذن لماذا شرعتِ بحق الجحيم في إخباري بأي شيء من الأساس؟»

«لأنني أردت فحسب أن تعرف أنني على دراية بشيء.»

قال مزمجرًا: «أوه، يا إلهي!» وتابع: «أنت على دراية بكل شيء بالتأكيد. بليندا ماري، أنت حقًّا أروع فتاة على الإطلاق.»

وجلس على حافة كرسيها ذي الذراعين ووضع يده على كتفها.

وقال: «وقد جئتِ لتصطحبيني لتناول الغداء بالخارج!»

سألته: «ما الذي كان يقلقك حين دخلتُ؟»

أومأ بإشارة بسيطة كأنما يخبرها بأن تنسى الموضوع.

«ليس أمرًا مهمًّا. سمعتني أتحدَّث عن جون لكسمان، أليس كذلك؟»

أمالت رأسها.

«لكسمان هو مؤلف الكثير من القصص البوليسية الرائعة، ولكنك على الأرجح قد قرأت كتبه.»

أومأت مجددًا، ومجددًا لاحظ تي إكس اللهفة الخامدة في عينيها.

وتساءل في قلق: «أنتِ لستِ مريضة أو على شفا أي مرض، أليس كذلك؟ — حصبة أو نكاف أو شيء من هذا القبيل؟»

قالت: «لا تكن سخيفًا، أكمِل وأخبرني شيئًا عن السيد لكسمان.»

قال تي إكس: «سيغادر إلى أمريكا، ويريد أن يلقي محاضرة بسيطة قبل أن يغادر.»

«محاضرة؟»

«يبدو أمرًا عجيبًا، ولكن هذا ما يريد القيام به.»

تساءلت: «ولماذا سيقوم به؟»

أومأ تي إكس بإشارة تنم عن يأس.

«هذا واحد من الألغاز التي ربما لن تتبيَّن لي قط، عدا ...» وزمَّ شفتيه ونظر إلى الفتاة في تأمُّل. ثم قال: «توجد أوقات يدور فيها بداخل الإنسان صراع شديد بين الجانب الإنساني الأصلح منه والجانب المهني الأكثر وضاعة. جانب مني لديه رغبة شديدة في الاستماع لمحاضرة جون لكسمان هذه، والآخر يحجم عن هذه التجربة الصعبة.»

قالت بأسلوب عملي: «لنناقش هذا الأمر على الغداء»، وأخذته وانصرفا.

الفصل التاسع عشر

من الصعب أن يُقرِن أحدٌ اسمَ نائب القنصل البدين في دوريس بعمال الصرف ذوي الأحذية الطويلة الذين ينزلون ليلًا إلى مصارف لندن الأرضية. ولكن كان ثمَّة رجل عمليٍ، كان يعيش في لامبيث ولا يدري بوجود مكان مثل دوريس، هو مَن كان مسئولًا عن إيقاظ هذا المسئول المستكن من فراشه في الساعات الأولى من الصباح، داعيًا إياه — على مضض وبلغة عنيفة ومتمردة — إلى إجراء بعض التحريات في الأسواق المزدحمة.

لم يحالفه النجاح في البداية؛ نظرًا لوجود كثيرين يحملون اسم حسين أفندي في دوريس. فأرسل دعوة إلى القنصل الأمريكي لتناول غداء خفيف معه ومساعدته.

«لا أفهم حقًّا سببًا لهذا الاهتمام المفاجئ من قِبل وزارة الخارجية بحسين أفندي.»

قال الأمريكي الدمث: «لا بد أن وزارة الخارجية تهتم بشيءٍ ما، كما تعلم.» وأردف: «إنني أتلقى من واشنطن بعضًا من أغرب المطالب، حتى إنني أتخيَّل أنهم يبرقون إليك فقط ليعرفوا إن كانت قد وصلت إليك أم لا.»

«لماذا تفعلون ذلك؟»

قال المسئول الإنجليزي: «لقد قابلت حاكات بك.» وتابع: «تُرى ماذا كان يفعل هذا الرجل؟ من المحتمل أن أتلقى تقريعًا في القريب العاجل.»

في الوقت نفسه تقريبًا كان عامل الصرف وسط عائلته يحتسي رشفات عالية وصاخبة من كوب كبير من الشاي.

قال لزوجته المتطلعة إليه في إعجاب: «ألن تندهشي إذا صعدت إلى المحكمة الجنائية المركزية من أجل الإدلاء بالشهادة.»

قالت باهتمام: «يا إلهي! جو! ماذا حدث؟»

ملأ عامل الصرف غليونه وسرد لها القصة بكمٍّ وفيرٍ من التفاصيل المربكة. فأدلى بتفاصيلَ عن الساعة التي نزل فيها إلى بئر الصرف في شارع فيكتوريا، وعما قاله له بيل مورجان وهما في طريقهما للنزول، وعما قاله لهاري كارتر وهما يغطسان عبر النفق ذي السقف المنخفض، وعن الشعور الغريب المضحك الذي انتابه بأنه سيكتشف شيئًا، وهكذا حتى وصلا إلى خاتمة قصته الطويلة المؤجلة.

في تلك الليلة ظل تي إكس منتظرًا حتى وقتٍ متأخر جدًّا، وفي الثانية عشرة أتى صبره ثماره؛ إذ أحضر إليه رسول وزارة الخارجية برقية. كانت موجهة إلى السكرتير العام، وكان نصها كالتالي:

> رقم ٨٤٧. ٦٣٩٥٢ بتاريخ أمس. البداية. غادر حسين أفندي، أحد تجار هذه المدينة الموسرين، إلى إيطاليا ليودِعَ ابنته دير ماري تريزا للراهبات، بفلورنسا، كون حسين مسيحيًّا. ثم واصل رحلته إلى باريس. وتوجَّه إلى شركة رالي ثيوكريتيس، شارع الأوبرا. انتهى.

بعد نصف ساعة اتصل هاتفيًّا بباريس، وكان يصدر تعليمات إلى مندوب الشرطة البريطانية في تلك المدينة. وفي صباح اليوم التالي تلقى تقريرًا آخر عبر الهاتف من باريس أشعره بارتياحٍ لا حدود له. كان يجمع خيوط هذا اللغز المحيِّر

معًا ببطء، ولكن على نحوٍ صحيح قاطع، ويوفقها معًا. وكان حسين أفندي على الأرجح هو مَن سيقدِّم له الخيوط الأخيرة المفقودة.

في الساعة الثامنة من تلك الليلة فُتح الباب ودخل الرجل الذي كان يمثِّل تي إكس في باريس حاملًا على ذراعه معطف سفر. أومأ له تي إكس محييًا إياه، وبينما كان الوافد الجديد واقفًا والباب مفتوحًا، وكان واضحًا أنه في انتظار شخص ما ليتبعه، قال:

«أدخله، سوف أقابله بمفردي.»

دلف إلى مكتبه رجل طويل يرتدي معطفًا طويلًا وطربوشًا أحمر. كان عمره يتراوح ما بين الخامسة والخمسين إلى الستين، ذا بنية قوية، ووجه داكن متجهم، ولحية رفيعة بيضاء. حياه بانحناءة حين دخل.

قال تي إكس بعد قليل: «أعتقد أنك تتحدث الفرنسية.»

انحنى له الآخر.

قال تي إكس بالفرنسية: «لقد أوضح لك مندوبي أنني أريد بعض المعلومات بغرض استجلاء لغز جريمة ارتُكبت في هذا البلد. وقد أعطيتك تأكيدًا، إن كان للتأكيد ضرورة، أن أي شيء قد تخبرني به لن يترتَّب عليه أيُّ أذًى لك.»

قال التركي الطويل القامة: «أفهم ذلك يا سيدي، لطالما كان الأمريكيون والإنجليز أصدقاء جيدين لي، كما أنني ترددت كثيرًا على لندن. لذا سأكون في غاية السعادة بإسداء أي مساعدة لك.»

توجَّه تي إكس إلى خزانة كتب مغلقة على أحد جانبي الغرفة، وفتحها، وأخرج منها شيئًا ملفوفًا في منديل ورقي أبيض. وضع هذا الشيء على الطاولة، بينما راح التركي يشاهد ما يحدث بوجهٍ جامد خلا من أيِّ تعبير. وبتؤدة شديدة فكَّ مفوَّض الشرطة الحُزْمة الصغيرة وفي النهاية أخرج سكينًا طويلًا رفيعًا، يعتريه صدأ وبقع،

وكان له مقبض، كان واضحًا أنه كان مرصعًا بالفضة قبل أن يتلطّخ على هذا النحو. رفع الخنجر من فوق الطاولة وناوله إلى التركي.

ثم قال بصوت خفيض: «أظن أن هذا ملكك.»

أخذ الرجل يقلِّبه، واقترب أكثر من الطاولة لعله يحظى بإضاءة أفضل. أخذ يتفحص النصل بالقرب من المقبض ثم أعاد السلاح إلى تي إكس.

ثم قال: «هذا سكيني.»

ابتسم تي إكس.

«أنت تفهم بالطبع أنني قد رأيت اسم «حسين أفندي من دوريس» منقوشًا باللغة العربية بالقرب من المقبض.»

أمال التركي رأسه.

تابع تي إكس، متحدثًا بنبرة تأكيد بطيئة: «لقد ارتُكبت جريمة قتل في هذه المدينة بواسطة هذا السلاح.»

لم تبدُ على الرجل أيُّ أمارة اهتمام أو دهشة، أو أيُّ انفعال أيما كان.

قال في هدوء: «إنها إرادة الرب، وهذه الأمور تحدث حتى في مدينة كبيرة مثل لندن.»

قال تي إكس: «لقد كان سكينك.»

قال التركي: «ولكن يدي كانت في دوريس، يا سيدي.»

ونظر إلى السكين مرة أخرى.

«إذن مات الروماني الأسود، يا سيدي.»

تساءل تي إكس متحيرًا قليلًا: «الروماني الأسود؟»

قال التركي: «ذلك اليوناني الذي يدعونه كارا؛ لقد كان رجلًا خبيثًا وفاسدًا للغاية.»

هبَّ تي إكس واقفًا، ومال عَبْر الطاولة ونظر إلى الآخر مضيِّقًا عينيه.

سأله سريعًا: «كيف عرفت أنه كارا؟»

هزَّ التركي كتفَيْه.

وقال: «مَن يمكن أن يكون سواه؟ — ألا تعجُّ صحفُكم بالخبر؟»

اتكأ تي إكس مرة أخرى، وقد تملَّكه الإحباط والضيق من نفسه بعض الشيء.

«هذا صحيح، يا حسين أفندي، ولكني لم أكن أظن أنك تُطالع الصحف.»

رد الآخر ببرود: «ولا أنا، يا سيدي، ولم أعرف بمقتل كارا حتى رأيت هذا السكين. كيف وصل هذا السكين إليك؟»

قال تي إكس: «عُثِر عليه في بالوعةٍ لصرف الأمطار، يبدو أن القاتل قد ألقاه فيها. ولكن إذا كنت لم تطالع الصحف، يا سيدي، إذن فأنت تعترف بأنك تعرف مرتكب هذه الجريمة.»

رفع التركي يديه ببطء إلى مستوى كتفَيْه.

ثم قال: «رغم أنني مسيحي، أتذكر أقوالًا حكيمة من دين أبي. ومن أحد هذه الأقوال، يا سيدي، «لا بد أن يموت الشرير في بيوت الأبرار، وبأسلحة الشرفاء يهلك الأشرار.» أنا رجل شريف، يا سيادة المفوَّض؛ لأنني لم آتِ في حياتي بشيء مشين. كنت أتاجر بنزاهة وشرف مع اليونانيين والإيطاليين، ومع الفرنسيين، ومع الإنجليز، ومع اليهود أيضًا. لم أسعَ قط لنهبهم أو الإضرار بهم. ولو أنني قتلت أحدًا، يعلم الربُّ أن ذلك لم يكن رغبةً مني في موتهم، ولكن لأن حياتهم تشكِّل خطورة عليَّ وعلى أسرتي. فلتوجه لنصل السكين كلَّ الأسئلة وانظر الإجابة التي

سيدلي بها. وإلى أن ينطق، فأنا أبكمُ كنصل السكين؛ إذ يُقال أيضًا: «إن الجندي خادم سيفه» وأيضًا «الخادم الحكيم يتكتم على شئون سيده».»

ضحك تي إكس في قلة حيلة.

ثم قال: «كنت أتمنى لو استطعت مساعدتي، كنت أتمنى ذلك وأخشاه؛ إذا كنت لا تستطيع أن تتكلم، فليست مهمتي أن أرغمك على ذلك سواء بالتهديد أو بالفعل. أنا ممتن لحضورك، مع أن الزيارة لم تكن مثمرة للغاية في اعتقادي.»

وابتسم ثانية ومدَّ يده له مصافحًا.

قال التركي العجوز في وقار ورزانة: «سيادة المفوَّض، في الحياة أشياءُ يُستحسن أن تُترك وشأنها، وثمَّة لحظاتٌ ينبغي فيها أن تكون العدالة عمياءَ بحيث لا ترى الجُرم، وها هي واحدة من تلك اللحظات.»

وعند هذا انتهى اللقاء، الذي كان تي إكس يعقد عليه آمالًا ضخمة. ورافقته كآبته إلى بورتمان بليس، حيث رتَّب للقاء بليندا ماري.

كان السؤال الذي استقبلته به: «أين سيلقي السيد لكسمان محاضرته الشهيرة؟ وما موضوعها؟»

قال في جدية: «إنها عن موضوعٍ ذي أهمية بالغة لي؛ لقد أطلق على محاضرته اسم «دليل الشمعة الملتوية.» ما من عقلية يمكن توظيفها في مجال كشف المجرمين أذكى من عقلية جون لكسمان. وعلى الرغم من أنه يستخدم عبقريته لتأليف القصص، فأنا واثق أنه كان سيترك بصمةً لا يُشق لها غبار في العالم لو استُخدمت في العمل الشرطي المشروع. إنه عازم على إلقاء هذه المحاضرة وأعد عددًا من الدعوات. وتشمل قائمة المدعوين رؤساء الشرطة السرية لكل دول العالم المتحضرة تقريبًا. إن أوجرادي في طريقه من أمريكا، وأرسل لي هذا الصباح برقيةً بهذا المعنى. حتى رئيس الشرطة الروسية قَبِل الدعوة؛ لأن هذه الجريمة، كما تعلمين، أثارت قدرًا كبيرًا من الاهتمام في الدوائر والأوساط

الشرطية في كل مكان.» ثم أضاف ببطء: «لن يلقي جون لكسمان هذه المحاضرة فحسب، ولكنه سيخبرنا مَن ارتكب الجريمة وكيف ارتُكِبت.»

فكَّرت لحظةً.

«أين سُتلقى؟»

قال في استغراب: «لا أعلم، هل يهم ذلك في شيء؟»

قالت في تأكيد: «يهم كثيرًا، لا سيما إن كنتُ أرغب في أن تُلقى في مكانٍ بعينه. هلا تقنع السيد لكسمان بأن يلقي محاضرته في منزلي؟»

سألها: «في بورتمان بليس؟»

هزَّت رأسها.

وقالت: «كلا، إن لي منزلًا مستقلًّا. منزلًا مفروشًا استأجرته في بلاكهيث. هل ستُقنِع السيد لكسمان بإلقاء محاضرته هناك؟»

تساءل قائلًا: «ولكن لماذا؟»

قالت في استعطاف: «أرجوك، لا تسأل أي أسئلة؛ لِتفعل هذا من أجلي، يا تومي.»

أدرك أنها جادة فيما تقول.

وعَدَها قائلًا: «سأكتب إلى لكسمان العزيز عصر اليوم.»

وجاء رد جون لكسمان عَبْر الهاتف.

قال: «أفضِّل مكانًا خارج لندن، وبما أن الآنسة بارثولوميو لديها قدْر من الاهتمام بالأمر، هل يمكنني أن أوجِّه لها الدعوة؟ أعد بأن صدمتها لن تكون أكبرَ من صدمة امرأة طيبة القلب.»

وهكذا أَضيف اسم بليندا ماري بارثولوميو إلى قائمة النخبة من رؤساء الشرطة، الذين كانوا متجهين إلى لندن في تلك اللحظة كي يسمعوا مِن الرجل الذي تكفَّل بحل قصة كارا ومقتله، وحل الغموض الذي أحاط بموته، ومغزى الشمعتَيْن الملتويتَيْن اللتَيْن كانتا في تلك اللحظة قابعتَيْن في المتحف الأسود بسكوتلاند يارد.

الفصل العشرون

كانت القاعة كبيرة وأُخليت من معظم أثاثها كي تَسَع الضيوف الذين جاءوا من أقاصي الأرض ليتعرفوا على قصة الشمعتَيْن الملتويتَيْن، واختبار نظرية جون لكسمان بأنفسهم.

جلسوا يتسامرون في مرحٍ عن رجال الجريمة، وعن الانقلابات الكبرى التي دُبرت وأُحبطت، وعن الأفعالٍ الغريبة التي ارتُكِبت ولم تُكتشف. ترامَت أجزاء من حديثهم إلى مسامع بليندا ماري بينما كانت تقف عند المدخل الذي أُسدلت عليه ستارةٌ من نسيج قطني مطبوع، والذي يؤدي من غرفة الاستقبال إلى الغرفة التي كانت تستخدمها غرفةَ مكتب.

«... أتذكُر يا سير جورج، قضية بولبروك؟ أخذت الرجل من أوديسا ...»

«... الأمر الغريب أنني لم أجد أيَّ أموال بحوزة الرجل الميت، ولم أجد سوى قلادة حظ ذهبية صغيرة بها حجر زمرد وحيد؛ ومن ثَم عرفت أن الفتاة ذات القلنسوة المصنوعة من الفراء هي مَن ...»

«... فرَّ بينوت بعد أن أصابني بثلاث رصاصات، ولكني جررتُ نفسي إلى النافذة وأرديته قتيلًا ... كانت تسديدةً جيدة حقًّا ...!»

نهضوا لمقابلتها وقدَّمها تي إكس إلى الحضور. وفي تلك اللحظة أُعلن عن وصول جون لكسمان.

بدا مرهقًا، ولكنه ردَّ تحيةَ مفوَّض الشرطة بوجهٍ بشوش. كان يعرف جميع الرجال الحاضرين بالاسم، مثلما كانوا يعرفونه. كان معه بضع أوراق ملاحظات، وضعها على الطاولة الصغيرة التي وُضِعت من أجله، وحين انتهى التعارف، توجَّه إلى هذه الطاولة وبدأ الحديث دون مقدمات.

الفصل الحادي والعشرون

رواية جون لكسمان

«كما قد تعلمون جميعًا، أنا كاتب قصصٍ تعتمد في نجاحها على تأليفِ ألغازٍ إجرامية ومن ثَم حلِّها.

كان رئيس الشرطة من الكرم بما يكفي ليخبركم أن قصصي كانت أكثر من مجرد سعي وراء الإثارة، وأنني سعيت من خلال تلك القصص لطرحِ مواقفَ غامضة ولكنها محتملة الحدوث، وتقديم حلٍّ مقبول لتلك المعضلات، بقدْر ما أُوتيتُ من براعة، ليس فقط للقارئ العادي، بل أيضًا للخبير الشرطي.

وعلى الرغم من أنني لا أعتبر أعمالي الأولى ذات جدية، ولم أسعَ فيها في الواقع سوى وراء المواقف والأحداث المثيرة، أستطيع الآن، بالنظر إلى الوراء، أن أرى وراء هذه الأعمال التي بدت في حينها بلا هدف شيئًا أشبه بمخطط دراسات.

لا بد أن تغفروا لي غروري؛ لأن من الضروري أن أقدم هذا التوضيح، وينبغي لكم، وأنتم من ضباط الشرطة الكبار ممن يملكون قدرًا كبيرًا من الخبرة والفراسة، أن تقدروا حقيقة أنني قد استطعت اختراق عقول المجرمين الخياليين الذين صوَّرتُهم في قصصي؛ ومن ثَم فأنا قادر على تتبع عقلية الرجل الذي ارتكب هذه الجريمة، أو إعادة تكوين نفسية قاتل رمينجتون كارا، إن لم أستطع تتبُّع عقليته.

بحوزة معظمكم الحقائقُ المهمة الخاصة بهذا الرجل. تعلمون أيُّ نوع من الرجال كان هذا الرجل، ولديكم أمثلة على عنفه وفظاعته، وتعلمون أنه كان وصمة عار على أرض الرب، نفس شريرة آثمة تسعى إلى إشباع تلك الشهوة الغريبة للدماء والألم، التي لا توجد إلَّا لدى قلةٍ قليلة من المجرمين.»

مضى جون لكسمان ليصف مقتل فاسالارو.

قال: «أعرف كيف حدث ذلك.» وتابع: «كنتُ قد تلقيت عشيةَ عيد الميلاد الفائت، من بين هدايا أخرى، مسدسًا من معجب مجهول. كان هذا المعجب المجهول هو كارا، الذي خطَّط لهذه الجريمة قبل نحو ثلاثة أشهر من وقوعها. كان هو مَن أرسل لي المسدس البراونينج، وكان يعلم وهو يفعل ذلك أنني لم أستخدم مثل هذا السلاح قط من قبل، وأنني لذلك سأكون متحفظًا في استخدامه. ربما كان عليَّ أن أحتفظ بالمسدس في خزانة بعيدًا عن المتناول؛ ومن ثَم كانت خطته المدبَّرة بدقةٍ برمَّتها ستفشل.

ولكن كارا كان منظمًا في كل الأمور. فبعد أن تلقيت السلاح بثلاثة أسابيع، وقعت محاولة خرقاء لاقتحام منزلي والسطو عليه في منتصف الليل. بدت لي آنذاك أنها محاولة خرقاء؛ لأن اللص أحدث جلبة هائلة، واختفى فور بدء محاولته، دون إحداث أضرار سوى كسر نافذة غرفة المائدة. بطبيعة الحال ذهب عقلي إلى احتمال وقوع محاولة أخرى من هذا النوع؛ إذ يقع منزلي على أطراف القرية، وكان طبيعيًّا تمامًا أن آخذ المسدس من أحد خزائني الخاصة وأضعه في مكانٍ في متناولي. ولمزيد من التأكيد، جاء كارا في اليوم التالي، وسمع القصة الكاملة لمحاولة الاعتداء.

لم يتحدث عن أيِّ أسلحة، ولكن أذكر الآن، مع أنني لم أتذكَّر ذلك في حينها، أنني قد ذكرت حقيقة أن لديَّ مسدسًا تحت يدي. بعد أسبوعين وقعت محاولةٌ أخرى لاقتحام المنزل. أقول محاولة، لكنني لا أظن أن الغرض من ورائها كان جادًّا على

الإطلاق. لقد دُبِّر هذا الاعتداء بهدف جعل ذلك المسدس في مكانٍ يسهُل الوصول إليه.

وحضر كارا مجددًا لرؤيتنا في اليوم التالي للسطو، ومرة أخرى لا بد أنني قد أخبرته بما حدث في الليلة الماضية، وإن كنت لا أذكر ذلك بوضوح. فلم يكن من الطبيعي ألا أذكر تلك الحقيقة؛ إذ كانت محور نقاش بيني وبين زوجتي والخدم.

ثم جاء خطاب التهديد، ويشاء القدر أن يكون كارا موجودًا. في ليلة ارتكاب الجريمة، وبينما لم يزل كارا في منزلي، خرجتُ للبحث عن سائقه. بقي كارا بضع دقائق مع زوجتي، وبحجةٍ ما دلف إلى المكتبة. وهناك قام بتعبئة المسدس بالرصاص، واضعًا خرطوشًا في خزينة المسدس، ومعولًا على الحظ في ألا أسحب الزناد إلى أن أصوبه في وجه الضحية. وهنا انتهز أكبر فرصة أُتيحت له؛ لأنه قبْل أن يرسل لي المسدس، كان قد أرخى نابض المسدس بشدة حتى إن أقلَّ لمسة من شأنها أن تجعله ينطلق، ولكون السلاح آليًّا، كما تعرفون، ومع انطلاق خرطوش واحد، يُعاد تعبئته ويطلق الخرطوش التالي وهكذا، ربما كان من شأن لمسة عابرة أن تفسد مخططه ... وربما أنا أيضًا.

أنتم تعلمون ما حدث في تلك الليلة.»

ثم مضى يتحدَّث عن محاكمته وإدانته وتحدَّث سريعًا عن الحياة التي عاشها حتى ذلك الصباح في دارتمور.

«علم كارا بثبوت براءتي ولأن كراهيته لي هي الهاجس الأكبر الذي يسيطر عليه؛ كوني أملِك الشيء الذي كان يريده ولكن لم يَعُد مرغوبًا لديه، فالأمر مفهوم؛ فقد رأى المعاناة التي دبَّرها لي ولزوجتي الحبيبة تنتهي فجأة. وبالمناسبة، كان قد وضع خطته بالفعل وصارت في حيز التنفيذ بالفعل، وكانت عبارة عن حملة تعذيب ممنهج لها.»

والتفت إلى تي إكس وقال: «لعلك لم تعرف أنه لم يكن قد مرَّ شهر حين حضر شقي معروف إلى شقتها مدعيًا أنه قد أُطلِق سراحه من بورتلاند أو وورموود سكرابس في صباح ذلك اليوم وأنه قابلني. كانت القصة التي يحملها لها كل رسول يأتيها كفيلة بأن تفطر فؤاد حتى أشجع النساء. كانت تدور حول سوء المعاملة التي أتلقاها من المسئولين الغلاظ القلب، وإصابتي بالمرض، والجنون، وكل ما من شأنه أن يحطِّم قلب زوجة مخلصة محبة.

كانت هذه خطة كارا. ألا يؤلمها بسوط أو بسكين، بل يجرح قلبها جرحًا غائرًا بلسانه الخبيث الملعون، ويتوغَّل إلى عقلها الغر. وحين وجد أنني سأنال حريتي — ربما يكون قد خمَّن، أو ربما عرف بوسيلةٍ ما ماكرة، أن ثمَّة عفوًا على وشك الصدور — نسجَ خطته الكبرى. ولم يكن أمامه سوى أقل من يومين لتنفيذها.

فعن طريق أحد عملائه وجد حارسًا لديه بعض المشاكل مع السلطات، وكان رجلًا جشعًا؛ بل وكان على وشك الفصل من الخدمة على خلفية اتِّجاره غير المشروع مع السجناء. كانت الرشوة التي عرضها على هذا الحارس ضخمة ولذلك قبِلها.

اشترى كارا طائرة جديدة أحادية السطح وهو، كما تعلمون، كان طيارًا متميزًا. وبواسطة هذه الآلة طار إلى ديفون ووصل عند الفجر إلى أحد الأجزاء المهجورة من المستنقع.

لست في حاجةٍ لسرد قصة هروبي. فقصتي تبدأ فعليًّا من اللحظة التي وضعت فيها قدميَّ على متن السفينة بريت. وكان أول شخص طلبت رؤيته بطبيعة الحال هو زوجتي. بيد أن كارا أصر على أن أذهب إلى المقصورة التي أعدَّها لي وأبدل ثيابي، وحتى ذلك الحين لم أكن أدرك أنني ما زلت بلباس السجن. كان بانتظاري ثياب نظيفة، ولا أستطيع أن أصف لكم رفاهية القمصان الناعمة والملابس المحكمة على الجسد بعد زي السجن.

بعد أن ارتديت ثيابي وتأنقت، اصطحبني خادم اليوناني إلى المقصورة الخاصة الأكبر حجمًا وهناك وجدت حبيبتي في انتظاري.»

انخفض صوته إلى حد الهمس، ومرت دقيقة أو دقيقتان قبل أن يستطيع السيطرة على مشاعره.

ثم أضاف: «كانت تساورها شكوك إزاء كارا، ولكنه كان مثابرًا وعنيدًا للغاية. فقد شرح لها الخطط تفصيلًا، وأراها الطائرة، ولكن حتى في ذلك الحين لم تكن لتأمن على نفسها على متن السفينة، وكانت تنتظر في قاربٍ بخاري يتحرك بموازاة اليخت، إلى أن رأت عملية هبوط الطائرة وأدركت أن كارا لم يكن يخدعها كما كانت تظن. كان كارا قد استأجر القارب البخاري وعلى الأرجح أن الرجلين القابعين بداخله قد تلقيا رشوةً كبيرة مثل الحارس.

لا يعرف فرحةَ الحرية إلا مَن عانوا أهوال السجن. لعلها عبارة عادية وواضحة بما يكفي، ولكن حين يصف المرء أشياءَ أساسية جوهرية، فلا مجال للغموض. مرت الرحلة بلا أحداث إلى حدٍّ كبير. ولم نرَ كارا إلا قليلًا؛ إذ لم يفرض نفسه علينا، وكان مصدر إثارتنا الوحيد يكمن في الخوف من أن تعترضنا مدمرةٌ بريطانية، أو أن تبحث عنا السلطات الإنجليزية عند وصولنا جبل طارق. كان كارا قد تنبَّأ بذلك الاحتمال، وتزوَّد بما يكفي من الفحم للهرب.

اجتزنا البحر المتوسط وسط أجواء عاصفة إلى حدٍّ كبير، ولكن بعد ذلك لم يحدث شيء حتى وصلنا إلى دوريس. اضطررنا للنزول على الشاطئ متنكرَين؛ لأن كارا أخبرنا أن القنصل الإنجليزي قد يرانا ويتسبَّب لنا في مشكلةٍ ما. ارتدينا ثيابًا تركية، فتلثمت جريس تمامًا وارتديتُ أنا قفطانًا قديمًا مليئًا ببقع الشحم، ومع النحول الذي طال وجهي إلى حدٍّ ما وذقني غير الحليق، عبَرت دون تعليق من أحد.

إن منزل كارا كان، ولا يزال، على بُعد نحو ثمانية عشر ميلًا من دوريس. إنه لا يقع على الطريق الرئيسي، والوصول إليه يكون عن طريق أحد المسارات

الجبلية الصخرية التي تتعرج وتتمعج وسط التلال وصولًا إلى جنوب شرق المدينة. إن المنطقة هناك مقفرة وأراضيها بائرة بالأساس. فاضطررنا إلى اجتياز المستنقعات والبحيرات الشاطئية الحدودية الضخمة بينما نرتفع ونرتفع من مصطبة إلى أخرى حتى وصلنا إلى الطرق التي تقطع الجبال.

إن قصر كارا، والذي لا يمكنك أن تصفه بأقل من ذلك، شُيِّد بإطلالة على البحر. فهو يطل على شبه جزيرة أكروسيروانيان بالقرب من رأس لنجويتا. والمنطقة في هذا المكان مأهولة أكثر بالسكان والمزروعات. اجتزنا منحدرات كبيرة مغطاة تمامًا بأشجار التوت الأمريكي والزيتون، بينما يوجد في الأودية حقول الذرة. يقع القصر الضخم على تلة شاهقة. ويُوصل إليه بطريقين، كانا محصَّنَين جيدًا في الماضي ضد قوات السلطان العسكرية، أو ضد العصابات التي كانت القرى المعادية تحشدها بغرض اقتحام هذا الحصن ونهبه.

كان الألبان، وهم جماعة متعطشة للدماء بلا شفقة أو رحمة، مخلصين تمامًا لزعيمهم، شأنهم شأن كارا. فكان يجزل لهم العطاء حتى إن سرقته لم تكن مجدية؛ وفوق ذلك، كان يشغل العناصر المشاغبة منهم بالغارات المحدودة التي كان يطلقها هو أو أعوانه من آنٍ لآخر. وكان القصر مشيدًا على الطراز المغربي وليس التركي.

كان أقرب إلى الطراز الشرقي المُطعم بملامح من العمارة الإيطالية؛ فكان منزلًا به ساحاتٌ ذات أعمدة بيضاء، وأفنية كبيرة مرصوفة، ونوافير وغرف داكنة رائعة.

حين مررت من البوابات أدركت لأول مرة بعضًا من وزن كارا ومكانته. كان ثمَّة عشرون خادمًا، كلهم من الشرق، وكانوا مدربين على أعلى مستوًى، وصامتين، وخانعين. وقادنا إلى غرفته الخاصة.

كان جناحًا كبيرًا به مقاعدُ تمتد عبر الحائط، ومجموعةٌ من غرف الاستقبال المزخرفة على الطراز الفرنسي، وسجادة فارسية ضخمة من أفخر أنواع السجاد

الشيرازي على الإطلاق. واسمحوا لي هنا أن أقول إن أسلوبه تجاهي طوال الرحلة كان ودودًا تمامًا وكان أسلوبه تجاه جريس أفضل ما يمكن أن أتوقَّعه من صديقٍ مقرَّب؛ إذ كان مهذبًا ولطيفًا.

لم نكد نصل إلى غرفته حتى قال لي بتلك الوداعة التي التزمها طوال الرحلة: «هل تودُّ أن ترى غرفتك؟»

أبديت رغبة في ذلك. فصفَّق بيديه وجاء خادمٌ ألباني ضخم الجثة عَبْر المدخل المزدان بالستائر، ملقيًا التحيةَ المعتادة، وتحدَّث إليه ببضع كلمات بلغةٍ أعتقد أنها كانت التركية.

قال كارا بابتسامته الشديدة الرقة: «سوف يريك الطريق.»

اتبعت الخادم عَبْر الستائر التي لم تكد تنسدل من ورائي حتى أمسك بي أربعة رجال، وطرحوني أرضًا بعنف، وحُشِر طربوش قذر في فمي، وقبل أن أدرك ما يحدث قُيدت يداي وقدماي.

حين أدركت خيانة الرجل الكبرى، اتجهت أولى أفكاري التي اجتاحت عقلي بجنون إلى جريس وسلامتها. أخذت أغالب بقوة الرجال، لكن كثرتهم غلبتني، وجرجرت عبر الممر وفُتِح باب وأُلقيت داخل حجرةٍ خاوية من كل شيء. لا بد أنني قد ظللتُ مستلقيًا على الأرض لمدة نصف ساعة حين جاءوني وكان برفقتهم هذه المرة رجلٌ في منتصف العمر يُدعى سالفوليو، والذي كان إما إيطاليًّا وإما يونانيًّا.

كان يتحدَّث الإنجليزية جيدًا إلى حدٍّ كبير وأوضح لي أن عليَّ أن أكون لطيفًا وعاقلًا. اقْتِدتُ مرةً أخرى إلى الغرفة التي جئتُ منها لأجد كارا جالسًا على واحدٍ من تلك الكراسي الضخمة ذات الذراعين التي كان يفضِّلها، يدخن سيجارة. كانت جريس المسكينة تجلس في مواجهته، ولم تزل بثوبها التركي. سرَّني أن أجدها بلا

قيود، ولكن حين نهضتْ عند دخولي وبدتْ كأنها مقبلة نحوي، دفعها الحارس الواقف بجوارها إلى الوراء بغلظة.

قال كارا متشدقًا: «سيد جون لكسمان، أنت في بداية خيبة أمل كبيرة. لدي بضعة أمور أودُّ أن أخبرك بها ستجعلك تشعر بالانزعاج نوعًا ما.» وكانت هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها أن أمر العفو عني قد وُقِّع وأنهم اكتشفوا براءتي.

قال كارا: «بعد كل ما تجشمته من عناء لأزجَّ بك في السجن، ليس واردًا أن أسمح بإحباط كل خططي، وخطتي هي أن أشقيكما شقاءً لا حدَّ له.»

لم يرفع صوته، وكان لم يزل يتحدث بنفس نبرة الحديث، الهادئة وشبه المستمتعة.

قال: «أنا أكرهك لأنك أخذت المرأة التي كنت أريدها. وهذه جريمة لا تُغتفر لرجلٍ له طباعي. لم أكن يومًا راغبًا في النساء قط، سواء على سبيل الصداقة أو المتعة. فأنا واحد من القلائل ممن يكتفون بذاتهم في هذا العالم. وحدث أن كنت راغبًا في زوجتك، ورفضَتْني لأنها فضَّلتك على ما يبدو.»

ونظر إليَّ في سخرية.

وأردف بنبرةٍ متباطئة: «لعلك تعتقد في هذه اللحظة أنني راغب فيها الآن، وأن جزءًا من انتقامي أن أضعها في الحرملك. هذا أبعد ما يكون عن رغباتي أو أفكاري. فالروماني الأسود لا يرضى بفضلات أمثالك من الحثالة. إنني أكره كليكما بالقدْر نفسه، وفي انتظاركما تجربةٌ أبشعُ مما يمكن أن يستحضرها خيالُك المرن.» وسألني وهو لا يزال محتفظًا بهدوئه: «أتفهم ما يعنيه ذلك؟»

لم أُجِب. ولم أجرؤ على النظر إلى جريس التي كان ملتفتًا إليها.

قال لها: «أعتقد أنكِ تحبين زوجك، يا صديقتي، سوف يخضع حبيبكِ إلى اختبارٍ عصيبٍ للغاية. سوف ترينه وقد صار مجرَّد حطام رجل. سوف ترينه تحت

وطأة بطشٍ أكبر مما تتعرَّض له الماشية في الحقل. لن أجعلكما تنعمان بأي بهجة، ولن تذوقا راحة البال. منذ هذه اللحظة فصاعدًا أنتما عبدان، بل أقل من العبيد.»

وصفَّق بيديه. وانتهى اللقاء ومنذ تلك اللحظة لم أرَ جريس إلا مرة واحدة فقط.»

توقَّف جون لكسمان عن الكلام ودفن وجهه بين يديه.

ثم أضاف: «أخذوني إلى زنزانةٍ سريَّة تحت الأرض حُفرت في الصخر الصلد المصمت. كانت تشبه إلى حدٍّ كبير قلعة شيون في أن نافذتها الوحيدة كانت تطل على بحيرةٍ متطرفة تجتاحها العواصف وكانت أرضيتها من صخر محزز. لقد وصفتها بأنها تحت الأرض؛ لأنها كانت بالفعل على ذلك الجانب؛ إذ كان القصر مشيدًا على منحدرٍ شديد الانحدار يمتد من حافة التلال.

صفدوا ساقيَّ بالسلاسل الحديدية وتركوني وحيدًا بلا رقيب. كانوا يعطونني قطعةً صغيرة من لحم الماعز وكوبًا معدنيًّا صغيرًا من الماء مرة واحدة في اليوم، وكان كارا يدخل مرة واحدة أسبوعيًّا وخارج نطاق دائرة نصف القطر التي تشكِّلها أصفادي الحديدية كان يفتح مقعدًا قابلًا للطي بلا مسند ويجلس يدخِّن سيجارته ويتحدث. يا إلهي! ما أبشعَ الأشياء التي كان ينطق بها ذلك الرجل! ما أبشع الأشياء التي كان يصفها! ما أشنع الفظائع التي كان يرويها! وكانت جريس دائمًا هي محور وصفه. وكان يروي القصص التي كان يخبرها بها عني. لا أستطيع أن أصفها. إنها لا تقبل التكرار.»

ارتعد جون لكسمان وأغلق عينيه.

ثم أردف: «كان هذا سلاحه. لم يواجهني صراحة بتعذيب حبيبتي، ولم يقدِّم لي دليلًا ملموسًا على معاناتها، فقط كان يجلس ويتحدث، واصفًا بلغة واضحة إلى حدٍّ استثنائي بدا مدهشًا بالنسبة إلى أجنبي، «الفقرات الترفيهية» التي كان يشهدها.

ظننت أنني على شفا الجنون. قفزتُ نحوه مرتين وفي المرتين كانت الأصفاد التي تلفُّ ساقي تطيح بي بقوة على تلك الأرضية القاسية. ذات مرة أدخل حارس الزنزانة ليجلدني، ولكني تحملتُ ضربات السوط برباطة جأش شديدة لم تمنحه أيَّ شعور بالتشفي. كنت قد أخبرتكم أنني قد رأيت جريس مرة أخرى وقد جاءت على النحو التالي.

كان ذلك بعد واقعة الجلد، وقد خطَّط كارا، الذي كان في ثورته شيطانًا بمعنى الكلمة، للثأرِ مني عقابًا لي على لا مبالاتي. أحضروا جريس على متن قاربٍ وجدَّفوا بالقارب إلى حيث أستطيع أن أراها من نافذة زنزانتي. وهناك سلَّط السوطَ الذي جُلدتُ به عليها.» وأضاف في انكسار: «لا أستطيع أن أخبركم بأيِّ شيء آخرَ عن ذلك، ولكن لا تعلمون كم كانت بداخلي رغبةٌ محمومة في أن أنهار وأشفي غليل ذلك الوغد كما يريد. يا إلهي! كان الأمر مريعًا!

حين جاء الشتاء اعتادوا اصطحابي مصفَّد الساقين لجمع جذوع الأشجار من الغابة. لم يكن ثمَّة مبرِّر لتكليفي بهذا العمل، ولكن الحقيقة، كما عرفتها من سالفوليو، أن كارا كان يرى أن زنزانتي دافئةٌ أكثرُ مما ينبغي. فقد كان التل الواقع بالخلف يحميها من الرياح وحتى في أبرد الأيام كانت محتملة. ثم رحل كارا لفترة. أعتقد أنه قطْعًا ذهب إلى إنجلترا، وعاد ثائرًا ثورةً عارمة. فقد اتخذت واحدة من خططه الكبرى منحًى خاطئًا وكان التعذيب النفسي الذي سلَّطه عليَّ أشدَّ من أيِّ وقتٍ مضى.

كان قبل ذلك معتادًا المجيءَ مرةً واحدة أسبوعيًّا، ولكن في تلك الآونة صار حضوره شبهَ يومي. عادة ما كان يصل بعد الظهيرة وفُوجئت في إحدى الليالي حين أُوقظت من نومي لأراه واقفًا عند الباب وبيده مصباحٌ وسيجارته في فمه كالمعتاد. كان دائمًا ما يرتدي الثياب الألبانية التقليدية حين يكون بالبلدة، تلك الثياب المؤلَّفة من تنانير اسكتلندية بيضاء وسترات الزواف القصيرة المفتوحة من الأمام

التي يفضِّلها أهالي التل، ولم يكن لها تأثيرٌ سوى أن زادت من مظهره الشيطاني. وضع المصباح أرضًا واستند إلى الحائط.

قال في تثاقل: «أخشى أن زوجتك تنهار، يا لكسمان، إنها ليست تلك المرأة الإنجليزية الجذابة القوية التي ظننتها.»

لم أردَّ بشيء. فقد وجدت بالتجربة المريرة أنني إذا تدخلت في الحديث، فلن أجني سوى مزيد من المعاناة.

تابع قائلًا: «لقد أرسلت في إحضار طبيب من دوريس؛ فبعد كل العناء الذي تكبدتُه، لا أرغب بطبيعة الحال في أن أفقدها بالموت.» وكرَّر بلذة استمتاع ولكن بنبرة ضيق خافتة في صوته: «إنها تنهار، وطلبتْ رؤيتك ثلاث مرات هذا الصباح.»

سيطرتُ على نفسي كما لم أتوقَّع مطلقًا من رجلٍ يمر بمثل هذه الظروف العصيبة.

قلتُ بأقصى قدْر ممكن من الهدوء: «كارا، ماذا فَعَلَتْ كي تستحق كلَّ هذا الجحيم الذي عاشت فيه؟»

نفث حلقةً طويلة من الدخان من سيجارته وراح يشاهد تقدُّمها عَبْر الزنزانة.

قال مثبِّتًا عينه على حلقة الدخان: «ماذا فعلت؟» — سأظل دائمًا أذكر كل نظرة، وكل إيماءة، وكل نبرة في صوته. وأضاف: «لقد فعلت بي كلَّ ما يمكن أن تفعله امرأةٌ برجلٍ مثلي. جعلتني أشعر بالضآلة. كنت أملِك العالم كله تحت قدمي حتى صدتني، يا لكسمان. كنت أفعل كلَّ ما يحلو لي. إن أشرتُ بإصبعي الصغير، كان الناس يُهرعون خلفي، وتجربتي معها حطمتني.» وأردف سريعًا: «أوه، لا تظن أن العشق هو ما حطمني. فأنا لم أحبها قط، فلم تكن سوى عاطفة عابرة، ولكنها قتلَت ثقتي بنفسي. من بعدها، كلما وصلت إلى لحظة حاسمة في علاقاتي، حين أكون في أشد الاحتياج للوصول إلى الحالة واليقين اللازمَين لبلوغ هدفي

وتنفيذ خططي، حينما أكون في أقصى درجات الثقة بنفسي وبقدراتي وبخطتي، يُبعَث خيالُ هذه الفتاة الملعونة، وأشعر بذلك الضعف اللحظي، وتتراءى لي ذكرى تلك الهزيمة، التي صنعت كل الفارق بين النجاح والفشل.»

ثم قال بحدة وعنف: «لقد كرهتها وما زلت أكرهها، وإن ماتت فسوف أكرهها أكثر؛ لأنها ستظل للأبد تهدِّد أفكاري وتفسد خططي إلى الأبد.»

ثم مال إلى الأمام واضعًا مرفقيه على ركبتيه، وقبضته تحت ذقنه — كم أراه جيدًا في خيالي! — وحملق بي.

ثم قال ملوِّحًا بيده إلى محيط الزنزانة الداخلي: «كان بوسعي أن أكون ملِكًا هنا في هذه الأرض، كان بوسعي أن أسلك طريقي إلى عرش ألبانيا بالرشوة والقتل. ألا تدرك ما يعنيه ذلك لرجلٍ مثلي؟ لا يزال هناك فرصة وإذا استطعت أن أبقي زوجتك على قيد الحياة، وإذا استطعت أن أراها محطمة العقل والعافية، مجرَّد حطام مسكين هزيل تهذي وتركع على قدمي حين أقترب منها، سوف أستعيد سيطرتي على نفسي.» ثم قال مومئًا برأسه: «صدقني، سوف تحظى زوجتك بأفضل رعاية طبية يمكن الحصول عليها.»

خرج كارا ولم أرَه ثانية لفترة طويلة جدًّا. وأرسل لي بعدها رسالةً صغيرة كُتبت في عجالة في الصباح، ليخبرني أن زوجتي قد فارقت الحياة.»

نهض جون لكسمان من مقعده وراح يذرع الغرفة ورأسه مستند إلى صدره.

ثم قال: «منذ تلك اللحظة وأنا أعيش لأجل شيء واحد فقط، معاقبة رمينجتون كارا. وقد عاقبته أيها السادة.»

وقف في منتصف الغرفة وخبط صدره العريض بقبضة يده.

ثم قال: «لقد قتلت رمينجتون كارا»، وانطلقت زفرةُ تعجُّب خفيفة من كل الحاضرين عدا واحد. كان ذلك هو تي إكس ميرديث، الذي كان يعرف ذلك طوال

الوقت.

الفصل الثاني والعشرون

استأنف لكسمان قصَّته بعد وهلة.

«كنتُ قد أخبرتكم أن ثمَّة رجلًا في القصر يُدعى سالفوليو. كان سالفوليو رجلًا يقضي حكمًا بالسجن مدى الحياة في أحد السجون بجنوب إيطاليا. وبطريقة غامضة هرب من السجن وعبر البحر الأدرياتيكي في قاربٍ صغير. لا أعرف كيف عثر عليه كارا. كان سالفوليو شخصًا كتومًا ومتحفِّظًا للغاية. لم يُتَح لي قط أن أعرف يقينًا إن كان يونانيًّا أو إيطاليًّا. كل ما كنتُ متيقنًا منه أنه كان أشرَّ وغدٍ قابلته على الإطلاق بعد سيده.

كان جاهزًا بسكينه ورأيته يقتل واحدًا من الحرس، ظن أنه يحابيني فيما يتعلَّق بمسألة الطعام دون ندمٍ أو وخز ضمير كأنما يقتل فأرًا.

كان هو مَن أحدث بي هذه النَّدْبة»، وأشار جون لكسمان إلى وجنته. وأضاف: «كان في غياب سيده يتولَّى مهمة إجراء محاكاة خرقاء لما يمارسه كارا من تعذيب واضطهاد. كما أعطاني النظرة الخاطفة الوحيدة التي ألقيتها على ما لاقته جريس المسكينة من تعذيب. كانت تكره الكلاب، ولا بد أن كارا قد علِم بذلك فوضع في غرفةِ نومها — فقد كان واضحًا أنها حظيت بإقامةٍ أفضل مما حظيتُ بها — أربعة كلاب شرسة مكبَّلة بالسلاسل بقوة حتى إنها كانت تستطيع الوصول إليها.

أثار تلميحٌ من هذا الوغد الدنيء بشأن زوجتي جنونيَ إلى حدٍّ فاق احتمالي فقفزت نحوه. فسحب سكينه وسدَّده نحوي وأنا أسقط على الأرض وأفلتُّ من الضربة بأعجوبة. كان واضحًا أن لديه أوامرَ بألا يَمسني؛ إذ انتابته حالةٌ من الهلع،

وكان له مبرِّره في ذلك؛ لأن كارا اكتشف حالةَ وجهي لدى عودته، وفتح تحقيقًا وأُخِذ سالفوليو إلى الفناء على الطريقة الشرقية الأصلية وضُرب بالفلقة على قدميه حتى تعجَّنتا.

لعلكم على يقينٍ من أن الرجل كان يكرهني كراهيةً ممتزجة بضغينة كادت تغلب ضغينةَ سيِّده. بعد وفاة جريس غادر كارا فجأةً وتُرِكتُ تحت رحمة هذا الرجل. كان واضحًا أنه قد أطلق له العِنان للتصرُّف كما يحلو له إلى حدٍّ كبير. فقد ماتت مَن كان كارا يستهدفها بكراهيته بالأساس، وازداد اهتمامه بي قليلًا، أو أنه سئم هوايته. بدأ سالفوليو مضايقاته بتقليل طعامي. لحسن الحظ كنتُ آكلُ أقلَّ القليل. ومع ذلك بدأت المؤنُ تتناقص أكثر وأكثر، وحين بدأت أشعر بآثار هذا التجويع الممنهج، حدث شيء غيَّر مسار حياتي بالكامل وفتح لي طريقًا للحرية والثأر.

لم يكن سالفوليو يقلِّد سيده في تقشفه وتزمُّته وكان في غياب كارا يقيم القليل من حفلات المجون والعربدة. فكان يُحضِر راقصات من دوريس لأجل الترفيه عن نفسه ويدعو شخصياتٍ بارزة في الجوار إلى ولائمه وحفلاته الترفيهية؛ إذ كان يصبح سيد القصر بلا منازع في غياب كارا وكان بإمكانه أن يلهو ويعبث كما يشاء. في تلك الليلة بالذات امتدت الاحتفالات على غير المعتاد؛ إذ كانت الساعة قد قاربت الرابعة صباحًا، حسبما استطعت أن أخمِّن من ضوء النهار الذي كان يتسلل عَبْر نافذتِي، حين فُتِح الباب الفولاذي المصفَّح الضخم ودخل سالفوليو، وكان ثملًا بعض الشيء. أحضر معه، كما خمَّنت، واحدة من فتياته الراقصات التي كانت فيما يبدو تحظى بامتياز مشاهدة معالم القصر.

ظل واقفًا فترةً طويلة في المدخل يتحدَّث بلا ترابطٍ بلغةٍ أعتقد أنها اللغة التركية بلا شك؛ إذ التقطتُ كلمة أو اثنتين.

بدت الفتاة، أيًّا كانت هويتها، خائفةً بعض الشيء، واستطعت أن أرى ذلك؛ لأنها كانت ترتد منه إلى الخلف، رغم أن ذراعه كانت تطوِّق كتفَيها وكان يرتكز

بنصف وزنه عليها. كان ثمَّة خوف، ليس فقط في النظرات الخاطفة القليلة التي سادها الفضول والتي كانت ترمقني بها من آنٍ لآخر، بل أيضًا في وجهها الذي كانت تشيح به بعيدًا. وعلمت بقصتها. لم تكن من الطبقة التي كان سالفوليو يُحضِر منها الراقصات اللاتي كن يحضرن إلى القصر من آنٍ لآخر لأجل متعته ومتعة ضيوفه. كانت ابنةَ تاجر تركي من سكوتري كان عضوًا بالكنيسة الكاثوليكية.

توجَّه والدها إلى دوريس إبَّان حرب البلقان الأولى ثم قابل سالفوليو الفتاةَ ولم يعلم هويةَ أبيها، وتولَّد بينهما نوع من التودُّد والتقارب انتهى بهروب الفتاة في نفس هذا اليوم ولحقَت بحبيبها البغيض في القصر. وأنا إن كنت قد أخبرتكم بهذه القصة؛ فهذا لأن الأمرَ كان له انعكاس على مصيري.

كما قلت، كانت الفتاة خائفة وبدت كأنها موشكة على الخروج من الزنزانة. ربما كانت خائفة من السجين الأشعث ومن الرجل الثمل الذي كان بجوارها. غير أنه لم يُرِد أن يتركها دون أن يريَها شيئًا من سطوته. فأقبل يترنَّح بالقرب من موضع استلقائي، ممسكًا بسكينه الطويل في يده تأهبًا لأي طوارئ، وانطلق لسانه بوابل من السِّباب من نوعيةٍ لم أعد أعبأ بها تمامًا.

ثم سدَّد لي ركلة خاطفة استقرَّت في ضلوعي، ولكن مرة أخرى لم ينتَبْني أيُّ شعور بالسخط أو بأي ألم شديد. فقد سبق أن تعامل معي سالفوليو على هذا النحو نفسه من قبل وصمدتُ أمامه. ووسط هذا الوابل من الشتائم، وبينما كنت أنظر وراءه، كنت شاهدًا جديدًا على مشهد استثنائي.

وقفت الفتاة في المدخل المفتوح، وقد ارتدَّت إلى الباب في وجلٍ، وراحت تنظر بأسًى وشفقة إلى المشهد الذي صنعته وحشية سالفوليو. ثم وعلى حين غرة، ظهر بجوارها رجلٌ تركي طويل القامة. كانت له لحية رمادية ووجه كالح متجهِّم. التفتت بجوارها ورأته، وما لبثت تفتح فاهَا لتصرخ، حتى أسكتها بإشارة وأشار إلى الظلام بالخارج.

انسلّت من خلفه في خنوعٍ دون أن تنطق بكلمة واحدة، ولم تُصدِر قدماها المنتعلتان صندلًا أيَّ صوت. كان سالفوليو طوال هذا الوقت مستمرًّا في وابل إساءاته، ولكن لا بد أنه رأى نظرة التعجب في عينيَّ؛ إذ توقَّف والتفت وراءه.

أخذ التركي العجوز خطوةً إلى الأمام، وطوّق جسد الآخر بذراعه اليسرى، ووقفا هناك في وضعٍ غريب كأنهما رفيقان على وشك الرقص معًا. كان التركي أطولَ من سالفوليو قليلًا، وكان ذا قوة بدنية هائلة، حسبما رأيت.

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، وجهًا لوجه، وسرعان ما استعاد سالفوليو إدراكه … ثم سدَّد له التركي لكمة خفيفة في ضلوعه. كان هذا ما تراءى لي، إلا أن سالفوليو أخذ يسعل بشدة، وسقط مترنحًا بين ذراعي الآخر، وهوى مرتطمًا بالأرض. انحنى التركي على الأرض في هدوء واتزان ومسح سكينَه الطويل على سترة الآخر قبل أن يعيدها إلى حزام خصره.

ثم استدار لينصرف رامقًا إياي بنظرة خاطفة، ولكنه توقَّف عند الباب ونظر خلفه في تأمُّل. قال شيئًا بالتركية لم أستطِع فهمه، ثم تحدَّث بالفرنسية.

سألني: «مَن أنت؟»

أوضحت له بأقلِّ قدْر ممكن من الكلمات. فأقبل نحوي ونظر إلى الوَثَاق المحيط بساقي وهزَّ رأسه.

ثم قال: «لن تستطيع حلَّ هذا الوَثاق أبدًا.»

أمسك بالسلسلة الحديدية التي كانت طويلة إلى حدٍّ كبير، ولفَّها مرتين حول ذراعه وثبَّت يده على فخذه، ثم استدار بهِزة مفاجئة. صدر صوت «انشطار» سريع مع انفصام السلسلة الحديدية. بعدها أمسكني من كتفي وجذبني إلى أسفل عند قدمي. ثم قال: «لُفَّ السلسلة حول خصرك، أيها السيد»، وأخرج من حزامه مسدسًا وناولني إياه.

قال: «ربما تحتاج إلى هذا قبل أن نعود إلى دوريس.» كان حزامه حرفيًّا مدججًا بالأسلحة — فقد رأيت ثلاثة مسدسات بخلاف الذي كان بحوزتي — وكان واضحًا أنه جاء متأهبًا لأي قلاقل. شققنا طريقنا من الزنزانة إلى العالم الخارجي برائحته النقية.

كانت هذه هي المرة الثانية التي أخرُج فيها في الهواء الطلق على مدى ثمانية عشر شهرًا، وكانت ركبتاي ترتجفان من تحتي من الوهن والإثارة. أغلق العجوز باب السجن من خلفنا وواصلنا المسير حتى وصلنا إلى الفتاة التي كانت بانتظارنا بجوار البحيرة. كانت تبكي في هدوء وتحدَّث إليها ببضع كلمات في صوت خفيض وكفَّت عن البكاء.

قال: «سوف ترينا ابنتي هذه الطريق؛ فأنا لا أعرف هذا الجزء من المنطقة، أما هي فتعرفه تمام المعرفة.»»

ثم أضاف لكسمان: «اختصارًا لقصةٍ طويلة، وصلنا إلى دوريس بعد الظهر. لم تكن ثمَّة أيُّ محاولة لتتبُّع أثرنا ولم يُكتشف غيابي ولا جثة سالفوليو حتى وقت متأخر من العصر. لا بد أن تعرفوا أن لا أحد سوى سالفوليو كان مسموحًا له بالدخول إلى زنزانتي؛ ولذا لم تواتِ أحدًا الشجاعةُ لتقصي الوضع.

اصطحبني العجوز إلى منزله دون أن يلاحظنا أحد، وأحضر أحد أصهاره أو أقاربه لإزالة القيد الحديدي الذي يطوِّق كاحلي. كان اسم مُضيِّفي حسين أفندي.

في تلك الليلة نفسها غادرنا مع قافلةٍ صغيرة لزيارة بعض أقرباء الرجل العجوز. فلم يكن واثقًا من عاقبة فَعْلته، ولدواعي السلامة قام بهذه الرحلة التي كان من شأنها أن تمكِّنه، إذا اقتضت الحاجة، من إيجاد ملاذ لدى إحدى القبائل التركية البربرية التي ستوفر له الحماية.

في خلال تلك الأشهر الثلاثة رأيت ألبانيا على حقيقتها؛ كانت تجربة لا تُنسى!

لم أقابل بعدُ رجلًا أفضلَ من هيابام حسين أفندي على أرض الرب. كان هو مَن أمدني بالمال لأغادر ألبانيا. وتوسَّلت إليه أيضًا كي آخذ السكين الذي قُتل به سالفوليو. لقد اكتشف أن كارا في إنجلترا وأخبرني بشيء عن عمله لم أكن أعرفه من قبل. عبَرت إلى إيطاليا وواصلت الطريق حتى ميلان. وهناك علِمت أن سيدًا إنجليزيًّا غريب الأطوار كان قد وصل قبل بضعة أيام على متن أحد المراكب القادمة من أمريكا الجنوبية، يقيم في الفندق الذي أقيم به ويمر بوعكةٍ صحيةٍ شديدة.

لا داعيَ لأن أخبركم بأن الفندق الذي أقمتُ به لم يكن باهظ التكلفة للغاية، وكان واضحًا أننا الإنجليزيان الوحيدان في المكان. لم يكن أمامي سوى الصعود لأرى ما بوسعي أن أفعله لهذا المسكين الذي كان يحتضر حين رأيته. بدا لي أنني قد رأيته من قبل وعند البحث عن شيء يوضح هويته، عرفت اسمه وتذكَّرت الظروفَ التي رأيته فيها بسهولة.

كان هذا الرجل هو جورج جاذركول، الذي عاد من أمريكا الجنوبية. كان يعاني حمى الملاريا وتسمُّم الدم، وظلِلت على مدى أسبوع أصارع معه، بصحبة طبيب إيطالي، كمن يصارع من أجلِ حياته.» وفجأةً ارتسمت على وجه جون لكسمان ابتسامةٌ حين تذكَّر الواقعة: «كان مريضًا مُتعِبًا، لاذعًا في لغته، جزعًا ومتغطرسًا في أسلوبه مع أصدقائه. فكان، على سبيل المثال، حساسًا بشدة تجاه مسألة ذراعه المفقودة، ولم يكن ليسمح للطبيب أو لي بالدخول إلى الغرفة إلى أن يتدثر حتى عنقه، ولم يكن يأكل أو يشرب في حضورنا. ولكنه كان أشجعَ الشجعان، ولا يعبأ بنفسه، وكان عصبيًّا فقط؛ لأنه لم يكن لديه وقت للانتهاء من كتابه الجديد. ولكن لم تنقذه روحه العنيدة التي لا تُقهر. فقد تُوفي في السابع عشر من يناير من هذا العام. كنت في جنوة في ذلك الوقت؛ إذ ذهبت إلى هناك بناءً على طلبٍ منه لإنقاذ متعلقاته. وحين عُدتُ كان قد وُوري الثرى. تصفحت أوراقه وفي ذلك الحين واتتني فكرتي بشأن كيفية الوصول إلى كارا.

وجدت خطابًا من اليوناني، كان معنونًا على بيونس آيرس، بانتظار الوصول، وتذكَّرت في لمح البصر أن كارا كان قد أخبرني أنه أرسل جورج جاذركول إلى أمريكا الجنوبية ليعدَّ له تقريرًا عن التكوينات المحتمل وجودها لترسبات الذهب. عزمت على قتل كارا، وعزمت على قتله بطريقة معينة بحيث أخفي كل أثر يثبت تورُّطي في الجريمة.

كما دبَّر هو لتحطيمي، وخطَّط لكل خطوة وأخفى كل أثر لتورُّطه في ذلك، خططتُ أنا لقتله بحيث لا تحيط بي أي شكوك.

كنت أعرف مكان منزله. وكانت لي دراية بعض الشيء بعاداته. كنت أعلم بالخوف الذي كان يعانيه حين كان في إنجلترا وبعيدًا عن حرس إقطاعيته الذين كانوا يحيطون به في ألبانيا. كنت أعرف بابه الشهير بمزلاجه الفولاذي وكنت أخطِّط للتحايل على كل هذه الاحترازات وألا أجلب له المِيتة التي يستحقها فحسب؛ بل أجلب له أيضًا معرفةً تامة بمصيره قبل أن يموت.

كان جاذركول يملك بعض المال — نحو ١٤٠ جنيهًا — أخذت منه ١٠٠ جنيه لاستخدامي الخاص؛ إذ كنت أعلم أنه يجب أن يكون معي ما يكفي من المال في لندن لتعويض ورثته، أما بقية النقود وكل الوثائق التي كانت بحوزته، عدا تلك التي تربطه بكارا، فقد سلَّمتها إلى القنصل البريطاني.

كنت قريب الشبه بالراحل. فقد كانت لحيتي شعثاء، وكنت على علم بطبائع جاذركول الغريبة بما يكفي لتقمُّص الدور. كانت أول خطوة اتخذتها هو الإعلان عن وصولي بطريق الاستنتاج. فأنا صحفي جيد إلى حدٍّ كبير ولدي معرفة عامة واسعة، وبواسطة هذه المعرفة التي صحَّحتها بالرجوع إلى الكتب اللازمة التي وجدتها في مكتبة المتحف البريطاني، تمكنتُ من كتابة مقال محترم جدًّا عن باتاجونيا.

أرسلت هذا المقال إلى جريدة «ذا تايمز» ومعه إحدى بطاقات جاذركول، وقد جرى نشره كما تعلمون. كانت خطوتي التالية هي إيجاد مسكن مناسب بين تشيلسي

وسكوتلاند يارد. وحالفني الحظ إذ استطعتُ استئجار شقة مفروشة كان مالكها بصدد الرحيل إلى جنوب فرنسا لمدة ثلاثة أشهر. دفعت الإيجار مقدمًا، وعندما تخليت عن كل الطباع الشاذة التي تصنعتُها لإتقان شخصية جاذركول، فقد أبهرت مالك الشقة قطعًا، حتى إنه قبِلني دون إي إحالات أو توصيات.»

ثم ابتسم قائلًا: «كان لديَّ عدة أطقم من الملابس الجديدة التي لم تُصنع في لندن، بل في مانشستر، ومرة أخرى هندمت مظهري لتجنب التعرُّف على هويتي فيما بعد. حين جمعتُ هذه الملابس معًا في شقتي، اخترت يوم البدء. وفي الصباح أرسلت صندوقَين يضمان معظم متعلقاتي إلى فندق جريت ميدلاند.

توجَّهت بعد الظهيرة إلى كادوجان سكوير وظلِلت أتسكع إلى أن شاهدت كارا يغادر بسيارته. كانت أول مرة أراه فيها منذ غادرت ألبانيا وتطلَّب مني الأمر كلَّ ما أملِك من ضبطٍ للنفس كي أمنع نفسي من الاندفاع نحوه في الشارع وتمزيقه بيديَّ.

بمجرد أن غاب عن الأنظار، ذهبت إلى المنزل متقمصًا شكل جاذركول وسلوكياته المصطنعة بكل حذافيرها. لم تكن بدايتي موفقة؛ إذ صُدمتُ حين أدركتُ أن الخادم ما هو إلا سجين كان معي في كوخ حارس السجن في صبيحة يوم هروبي من دارتمور. لم يكن ثمَّة شك في هويته، وحين سمعتُ صوته تأكدتُ. تساءلت: هل سيتعرف عليَّ، برغم اللحية والنظارة؟

لم يتعرَّف عليَّ حسبما بدا. لقد أعطيته كلَّ فرصة ممكنة لذلك. ثبتُّ وجهي في وجهه وفي زيارتي الثانية تحديته، بطريقة جاذركول العجوز المسكين الغريبة، بأن يختبر رمادية لحيتي. غير أنني كنت راضيًا لحظتها عن تجربتي المقتضبة، وانصرفت بعد فاصل زمني معقول، عائدًا إلى مسكني في شارع فيكتوريا وظلِلت منتظرًا هناك حتى المساء.

لاحظت خلال مراقبتي للمنزل، بينما كنت أنتظر مغادرة كارا، أن هناك سلكَي هاتف منِفصلين يمتدان حتى السقف. خمَّنت دون يقين أن واحدًا من هذين الهاتفين

كان خطًا خاصًا، ونظرًا لمعرفتي بشيء عن الخوف الذي يعانيه كارا، افترضتُ أن ذلك الخط متصل بأحد ضباط الشرطة، أو بحارس أو آخر من نوعٍ ما. فقد كان لدى كارا النسق نفسه في ألبانيا؛ إذ كان يربط القصر بمراكز قواتِ الدرك في أليسو. وكان حسين هو مَن أخبرني بهذا.

في تلك الليلة قمت بجولة استكشافية للمنزل، ورأيت نافذة غرفة كارا مضيئة، وفي العاشرة وعشْر دقائق قرعت الجرس وأعتقد أنني حينذاك أخضعت اللحية للاختبار. كان كارا في غرفته، حسبما أخبرني الخادم، وقادني إلى الطابق العلوي. كنت قادمًا متأهبًا للتعامل مع هذا الخادم؛ إذ كان لديَّ مبرِّر خاص جعلني أتمنى ألا يخضع للاستجواب من قِبل الشرطة. كتبت على بطاقةٍ خاوية الرقم الذي كان يحمله في دارتمور وأضفت إليه كلمات: «أنا أعرفك، اخرج من هنا في الحال.»

وما إن استدار ليقودني إلى الطابق العلوي، حتى ألقيت المظروف الذي يحوي البطاقة على الطاولة الكائنة في الرَّدهة. وفي جيب داخلي، بحيث يكونان أقرب ما يكون إلى جسدي، وضعت الشمعتين. وكنت قد حددت بالفعل كيف سأستخدمهما. أدخلني الخادم غرفة كارا، ومرةً أخرى وجدتُني واقفًا في حضرة الرجل الذي قتل حبيبتي ومحا كلَّ ما كان جميلًا في حياتي.»

ساد صمت مطبق حين توقَّف. وأسند تي إكس ظهره إلى كرسيه، واضعًا رأسه على صدره، وعاقدًا ذراعيه، وعيناه تراقبان لكسمان باهتمام.

جلس رئيس الشرطة يمسد شاربه، بوجه شديد العبوس وشفتين مزمومتين، وراح ينظر من تحت حاجبيه الكثيفين إلى المتحدث. أما الضابط الفرنسي، فكان يتلقى كل كلمة بحماس ولهفة، مقحمًا يديه بعمق في جيبيه، ورأسه مائل على أحد الجانبين. بينما خلا وجه الضابط الروسي الشاحب من أي تعبير، وبدا كأنه قناع محفور من العاج. أما أوجرادي الأمريكي، فكان يغيِّر وضعيته في نفاد صبر مع كل وقفة وكأنه يتعجل الخاتمة.

بعد قليل واصل جون لكسمان الحديث.

«نهض من الفراش وأقبل نحوي لاستقبالي بينما كنت أغلق الباب خلفي.

قال بنبرته الناعمة المألوفة: «أوه، سيد جاذركول»، ومد يده ليصافحني.

لم أنطق بكلمة. نظرت إليه فقط بفرحة غامرة في قلبي لم أشعر بها من قبل قط.

وحينها رأى في عينيَّ الحقيقة ومد يده ليصل إلى الهاتف.

ولكن في تلك اللحظة كنت قد انقضضت عليه. كان في يدي كالطفل. كل العذابات المريرة التي أذاقني إياها، وكل ما عانيته من ويلات في أيام الجوع وليالي الزمهرير جعلتني صلدًا متحجرَ القلب. كنت قد عُدتُ إلى لندن متنكرًا بذراع مزيفة، فتخلصت منها. لم تكن سوى قفاز من خشب رقيق صنعتُه في باريس.

دفعته إلى الخلف ملقيًا إياه على السرير، وثنيت ركبتيَّ وانقضضت بنصف جسدي الأعلى فوقه.

ثم قلت: «كارا، سوف تموت مِيتةً أرحمَ من مِيتة زوجتي.»

حاول أن يتحدث. كانت يداه الناعمتان تصدران إشارات عنيفة وعشوائية، ولكنني كنت مستلقيًا جزئيًّا على إحدى ذراعيه، وأُمسِك بالأخرى.

همستُ في أذنه قائلًا:

«لا أحد سيعرف قاتلك، يا كارا، فكِّر في ذلك! سأفلت دون عقوبة، وستكون محور لغز رائع! كل خطاباتك ستُقرأ، وكل حياتك ستنكشف، وسيعرفك العالم على حقيقتك!»»

ثم قال جون لكسمان ببساطة: «تركت ذراعه برهةً فقط ريثما أستل سكيني وأطعنه. أظن أنه قد أسلم الروح في الحال.

تركته في موضعه واتجهت إلى الباب. لم يكن لديَّ الكثير من الوقت لأضيعه. أخرجت الشمعتين من جيبي. كانتا قد لانتا بالفعل من حرارة جسدي.

رفعت المزلاج الفولاذي للباب وأسندت المزلاج بأصغر الشمعتين؛ إذ كان أحد طرفيها على منتصف تجويف المزلاج والآخر أسفل المزلاج. كنت أعلم أن حرارة الغرفة سوف تستمر في تليين الشمعة وتغلق المزلاج في غضون وقت قصير.

كنتُ متأهبًا للهاتف الكائن بجوار سريره مع أنني لم أكن أعلم الجهةَ المتصلَ بها. وحسمت أمري في التعامل معه بفضل وجود فتاحة الورق. وضعتها في توازن على علبة السجائر الفضية بحيث يكون أحد طرفيها أسفل سماعة الهاتف، وأسفل الطرف الآخر وضعت الشمعة الثانية التي اضطررتُ لقطعها كي يكون حجمها مناسبًا. وفوق فتاحة الورق عند طرف الشمعة وضعت الكتابين الوحيدين اللذين استطعت العثور عليهما في الغرفة في توازن، وكانا لحسن الحظ ثقيلي الوزن.

لم يتسنَّ لي معرفةُ كم من الوقت ستستغرقه الشمعة كي تنصهر حتى تصل إلى حالةٍ من الالتواء والانثناء تسمح لوزن الكتابين بالكامل بالنزول على طرف الشمعة الواقع عند فتاحة الورق ورفع السماعة. كنت أتمنى لو كان فيشر قد أخذ بتحذيري له وغادر. فحين فتحت الباب برفق، سمعت خطواته في الرَّدهة بالأسفل. ولم يكن أمامي سوى أن أنهي الأمر.

استدرت ووجهت حديثًا متخيَّلًا إلى كارا. كان الأمر مريعًا، ولكنَّ ثمَّة شيئًا فيه أثار بداخلي شعورًا غريبًا بالمزاح والهزل، وأردت أن أضحك وأضحك وأضحك!

سمعت الرجل يرتقي درجات السُّلم وأغلقتُ الباب بحذرٍ شديد. وتساءلت في نفسي كم من الوقت ستستغرق الشمعة لتنثني!

ولكي أؤسس حجةَ غيابي على نحوٍ وافٍ، قررتُ أن أنخرط مع فيشر في حديث، وكان ذلك أمرًا يسيرًا للغاية؛ إذ كان يبدو أنه لم يرَ المظروف الذي تركته

على الطاولة بالأسفل. لم أضطر للانتظار طويلًا؛ إذ فجأةً سمعت المزلاج الفولاذي يعود إلى مكانه محدثًا صوت ارتطام. فقد انثنت الشمعة تحت تأثير الحرارة أسرع مما توقَّعت. سألت فيشر عن معنى الصوت وشرح لي الأمر. وظَلِلت أتحدث طَوال وقت نزولي درجات السُّلم. وجدت سيارة أجرة في سلون سكوير واتجهت بها إلى مسكني. كنت مرتديًا بِذلةَ سهرة تحت معطفي.

بعد عشْر دقائق من دخولي من باب شقتي خرجت إلى المدينة في هيئةِ رجلٍ بلا لحية، لا يختلف عن الآلاف الآخرين ممن تجدهم في تلك الليلة يجوبون ساحةَ أيٍّ من القاعات الموسيقية الكبرى. انطلقت من شارع فيكتوريا إلى سكوتلاند يارد مباشرة. لم تكن سوى مصادفة أن تكون الشمعة الثانية قد التوت في اللحظة التي كان يُفترض أن أتحدَّث فيها إليكم جميعًا، لينطلق جرسُ الإنذار في المكتب الذي كنت أجلس فيه.

أؤكد لكم جميعًا بمنتهى الجدية أنني لم أشكَّ في سبب ذلك الرنين الذي انطلق حتى تحدَّث السيد مانسوس.»

ثم فتح ذراعيه في يأسٍ وقال: «هاك قصَّتي، أيها السادة!»

وأضاف: «افعلوا بي ما شئتم. لقد كان كارا قاتلًا، تخضَّبت يداه بدماء الأبرياء مائةَ مرة. لقد فعلتُ كلَّ ما عزمت على فعله فقط دون زيادة أو نقصان. فكَّرت في الرحيل إلى أمريكا، ولكن كلما اقترب يوم رحيلي، افتقدت في ذاكرتي الخطط التي وضعتها أنا وهي، فتاتي ... فتاتي المسكينة الشهيدة!»

وجلس إلى الطاولة الصغيرة، ويداه معقودتان أمامه، ووجهه شاحب ومجعد.

ثم قال فجأة، بابتسامةٍ ساخرة كئيبة: «وتلك هي النهاية!»

«ليست كذلك بالضبط!» استدار تي إكس باندفاعٍ مُصدِرًا زفرة مفاجئة. كانت بليندا ماري هي المتحدثة.

قالت: «أستطيع أن أكملها.»

كانت في حالة مدهشة من الاتزان ورباطة الجأش، هكذا قال تي إكس في نفسه، ولكن بعد ذلك لم يفكِّر تي إكس في أي شيء سوى أن بها شيئًا «رائعًا» بصورة أو بأخرى.

قالت الفتاة المدهشة غيرَ عابئةٍ بالأعين المذهولة التي كانت تحدق بها: «معظم ما جاء بقصتك صحيح، يا سيد لكسمان، ولكن كارا خدعك في أمر واحد.»

تساءل جون لكسمان وهو ينهض واقفًا في غيرِ اتزان: «ماذا تقصدين؟»

وقفت كي تجيب عن السؤال وسارت إلى الوراء صوب الباب ذي الستائر القطنية المطبوعة وفتحته؛ كانت هناك فترة انتظار بدت كالدهر، ثم جاءت عَبْر المدخل فتاةٌ نحيفة ووقورة وجميلة.

قال تي إكس هامسًا: «يا إلهي!» وأردف: «جريس لكسمان!»

الفصل الثالث والعشرون

خرجوا وتركوهما بمفردهما، اثنان من البشر وجدا في هذه اللحظة جنةً ليست بعيدةً عن متناول البشر، ولكن قلما بلغوها. كان في انتظار بليندا ماري جمهور متلهِّف لها وحدها.

قالت في امتعاض: «إنها بالطبع لم تمُت.» وتابعت: «لقد كان كارا يلعب على وتر مخاوفه طَوال الوقت. إنه حتى لم يمسسها بأذًى؛ على النحو الذي كان يخشاه السيد لكسمان. لقد أخبر السيدة لكسمان بأن زوجها قد مات، مثلما أخبر جون لكسمان بأن زوجته قد رحلت عن الحياة. وحقيقة الأمر أنه قد أعادها إلى إنجلترا ...»

تساءل تي إكس في ارتياب: «أعاد مَن؟»

قالت الفتاة مبتسمةً: «جريس لكسمان.» وأضافت: «لم تكن لتظن ذلك محتملًا، ولكن عندما تعرف أن لديه يختًا خاصًّا به، وأنه يستطيع التنقُّل من أي مرسًى يشاء إلى منزله في كادوجان سكوير بالسيارة، ويصطحبها مباشرة إلى قبو منزله دون أن يزعج أهل المنزل، سوف تعي أن الصعوبة الوحيدة التي واجهها كانت تكمن في إنزالها. لقد وجدتها في القبو السفلي.»

تساءل رئيس الشرطة: «وجدتِها في القبو؟»

أومأت الفتاة إيجابًا.

وقالت بشيء من الفخر: «وجدتُها هي والكلب — لقد سمعتَ كيف كان كارا يُرهِبها — وقتلت الكلب بيديَّ»، ثم ارتعدَت. واعترفَت قائلة: «لقد كان في غاية البشاعة والتوحش.»

سألها تي إكس في عدم تصديق: «وكانت تعيش معكِ كلَّ هذا الوقت ولم تفصحي عن شيء!»

أومأت بليندا ماري إيجابًا.

«وهذا هو السبب في عدم رغبتكِ في أن أعرف مكان إقامتكِ؟» فأومأتْ إيجابًا ثانيةً.

ثم قالت: «لقد كانت في حالةٍ صحية متردية كما ترى، وكان لزامًا أن أعتني بها، وبالطبع كنت أعلم أن لكسمان هو مَن قتل كارا ولم يكن بوسعي أن أخبركَ بشيء عن جريس لكسمان دون أن أشي به. لذا عندما قرَّر السيد لكسمان أن يرويَ قصَّته، ارتأيت أن من الأفضل أن أضع النهاية الكبرى.»

نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر.

تساءل رئيس الشرطة: «ماذا ستفعل بشأن لكسمان؟ — وبالمناسبة، يا تي إكس، إلى أي مدًى يتواءم كل ذلك مع نظرياتك؟»

أجاب تي إكس في هدوء: «إنه يتواءم معها على نحوٍ جيد للغاية، من الواضح أن الرجل الذي ارتكب الجريمة هو الرجل الذي أُدخِلَ إلى الغرفة باعتباره جاذركول مثلما هو واضح أيضًا أنه لم يكن جاذركول، رغم ما يبدو في الظاهر من أنه كان فاقدًا ذراعه اليسرى.»

سأله رئيس الشرطة: «لماذا تقول من الواضح؟»

أجاب تي إكس ميرديث: «لأن جاذركول الحقيقي كان فاقدًا ذراعه اليمنى، وهذا هو الخطأ الوحيد الذي وقع فيه لكسمان.»

أخذ رئيس الشرطة يشد شاربَه وينظر عَبْر أرجاء الغرفة في تساؤل ثم قال: «هممم، لا بد أن نحسم أمرنا سريعًا بشأن لكسمان.» ثم أضاف: «ماذا ترى، يا كارلنو؟»

هزَّ الرجل الفرنسي كتفَيْه.

وقال بأسلوب صفيق: «عن نفسي لا يجب فقط أن ألحَّ على وزير داخليتكم من أجل العفو عنه، بل يجب أن أوصي بمنحه معاشًا تقاعديًّا.»

«ما رأيك، يا سافورسكي؟»

ابتسم الروسي قليلًا.

ثم قال بأسلوب فاتر: «إنها قصة مثيرة للغاية، يبدو لي أنك إذا انتويت تقديم السيد لكسمان إلى المحاكمة، فربما تكشف بعض الفضائح الفظيعة للغاية.» ثم أضاف وهو يداعب شاربه الصغير المشذب: «وبالمناسبة، قد يجدر بي الإشارة إلى أن أيَّ فضائح تجذب الأنظار إلى الأوضاع غير الشرعية في ألبانيا لن تكون مستحسنة من جانب حكومة بلادي.»

لمعت عينا رئيس الشرطة وأومأ.

قال رئيس هيئة الشرطة الإيطالية: «ذاك رأيي أيضًا، نحن مهتمون اهتمامًا بالغًا، بطبيعة الحال، بكلِّ ما يحدث في منطقة البحر الأدرياتيكي الساحلية. يبدو لي أن كارا قد لقي نهايةً رحيمة للغاية، ولا أميل إلى النظر إلى محاكمة السيد لكسمان بهدوء أعصاب.»

قال أوجرادي: «حسنًا، أظن أن الجانب السياسي للقضية ليس له تأثير جمٌّ علينا، ولكن باعتباري رجلًا كان قاب قوسين أو أدنى من الهلاك بسبب إثارة النوع الخاطئ من القضايا، سوف أترك المسألة حيث هي.»

كان رئيس الشرطة مستغرقًا بقوة في التفكير وكانت بليندا ماري تنظر إليه في قلق.

قال بأسلوب جاف: «اطلبي منهما أن يدخلا.»

ذهبت الفتاة وأحضرت جون لكسمان وزوجته، ودخلا متشابكي اليدين في شموخ وسعادة ممتزجة بالسكينة أيًّا كان ما قد يحمله لهما المستقبل. تنحنح رئيس الشرطة.

ثم قال: «لكسمان، نحن جميعًا في غاية الامتنان لك، لتلك القصة المثيرة للغاية وتلك النظرية المثيرة للغاية. إن ما فعلتَه، من واقع فهمي للأمر، أنك وضعت نفسك موضع القاتل، وقدَّمت نظرية، ليس للكيفية التي ارتُكِبت بها الجريمة فعليًّا فحسب؛ بل أيضًا للدافع وراء تلك الجريمة. يجدر بي القول إنها إعادة تجسيد رائعة جدًّا للجريمة»، كان يتحدث بهدوء وروية، وأطاح بالمقاطعة المشوبة بالدهشة التي كاد جون لكسمان أن ينطق بها، بأمر نافذ إذ قال مزمجرًا: «من فضلك انتظر ولا تتكلم حتى أصبح بعيدًا عن مرمى السمع. لقد تقمصتَ شخصية القاتل الحقيقي وتحدثتَ بأسلوبٍ غاية في الإقناع. كان المرء سيحسب أن الرجل الذي قتل رمينجتون كارا ماثل بالفعل أمامنا. ونحن جميعًا ممتنون للغاية لهذا التقمُّص»؛ وحملق من فوق نظارته إلى زملائه الذين يتفهمون الأمر وسرت بينهم همهمات الاستحسان.

ثم نظر إلى ساعته.

وقال: «والآن أخشى أنني مضطرٌّ للانصراف»، واجتاز الغرفةَ إلى الجانب الآخر ومدَّ يده إلى جون لكسمان مصافحًا. ثم قال: «أتمنى لك حظًّا سعيدًا»، ووضع يدَي جريس لكسمان في يدَيْه. وأضاف بأسلوبٍ أبوي حانٍ: «يومًا ما سآتي إلى بيستون تريسي وسوف يروي لي زوجكِ قصةً أخرى أكثر بهجة.»

توقَّف عند الباب وهو يهمُّ بالخروج ونظر خلفه ليرى نظرات الامتنان تشعُّ من عينَي لكسمان.

ثم قال في تردُّد: «بالمناسبة، يا سيد لكسمان، لا أظن، لو كنت مكانك، أنني سأكتب يومًا قصة بعنوان «دليل الشمعة الملتوية».»

هز جون لكسمان رأسه نافيًا.

ثم قال: «لن تُكتب أبدًا ... بقلمي.»

الفهـــــــرس

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرون
الفصل الحادي والعشرون
الفصل الثاني والعشرون
الفصل الثالث والعشرون